سلسلة تفسير

الكتاب المقدس يتحدث اليوم



الطبعة الثانية



العهد الجديد

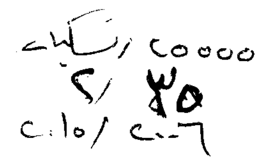
BST



سلسلة
تفسير

الكتاب المقدس يتحدث اليوم

العهد الجديد



الموعظة علي الجبل

(متي ٥ : ١ ـ ٧ : ٢٨ ، ٢٩)

تأليف

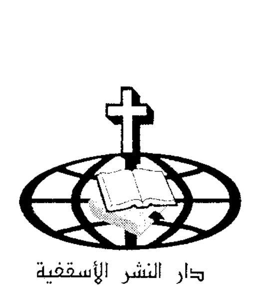
جـــون ستـــوت

ترجمة

الدكتور: رضا الجمل

مراجعة

الدكتور القس: منيس عبد النور



BST

The Bible Speaks Today
The Message of The Sermon on The Mount
By: John R.W.Stott

This Translation of first published in 1984, is published by arrangement with Inter-**Vasity Press**, Leicester, United Kingdom.

الطبعة الثانية ٢٠٠٦

الكتـاب.......................	**الموعظة على الجبل**
الناشـر:........................	دار النشر الأسقفية ت: ٥٧٩٠٨٤٨ ـ ٥٧٥٥٣١٦
	٣٠ شارع شبرا - القاهرة
المؤلف:........................	جون ستوت
المتـرجـم:.....................	د. رضا الجمل
الجمع التصويرى والتصميم الداخلى:	جى سى سنتر ت: ٦٣٧٣٦٨٦
رقم الإيداع:....................	٩٩/٥٤٦٠
الترقيم الدولى:..................	977 - 5884 - 15 - 2
المطبعة:	أم دى جرافيك ـ ت: ٣٤١٨٨٦١

تقديم .. وإهداء

إنه ليسعدنى كثيراً أن أُهدى هذه السلسلة الرائعة: «الكتاب المقدس يتحدث اليوم»، لجميع القرَّاء بالعربية: منهم القارئ العادى ومنهم المتخصص أو الباحث أو اللاهوتى، حيث اشترك فيها وكتب فيها مشاهير الوعَّاظ واللاهوتيين فى عصرنا الحاضر، وهم: جون ستوت John R. W. Stott، وموتييه J. A. Motyer، وغيرهما من الذين قدموا لنا هذه السلسلة؛ حتى يستمتع بها القارئ وهو يصغى لما يقوله الروح القدس، من خلال العهدين القديم والجديد، فى شرح ينساب بسهولة وجاذبية.

وهى لذلك، لا تُعتبر مجرد سلسلة فى كتب التفاسير، بل هى وسيلة فعَّالة للبناءالروحى لكل إنسان.

وإننى انتهز الفرصة لأقدِّمها فى وقتنا الحاضر، وقت الاستعداد للمجيء الثانى للسيد المسيح، ونحن على أعتاب القرن الواحد والعشرين، حيث بزوغ فجر الألفية الثالثة. مع تقديرينا العميق للكثير والعديد من المساعدين والمساهمين معنا بمحبة فى هذه السلسلة، فى جميع مراحل أعدادها شكلاً ومضموناً؛ حتى تخرج السلسلة بالمستوى الذى يمجِّد الله القدوس. أصلِّى أن يستخدمها اللّه لبناء كنيسته، ولمجده فى حياة كل من يقرأها.

المُحب،

المطران الرئيس/غايس عبد الملك

رئيس الكنيسة الأسقفية بالقدس والشرق الأوسط

هذه السلسلة

إن سلسلة: «**الكتاب المقدس يتحدث اليوم**» **The Bible Speaks Today**، تجمع شرحاً لكل من العهد القديم والعهد الجديد، فى محاولة صادقة منها لأن تتميز بثلاث ميزات:

- شرح دقيق لنصوص الكتاب المقدس.
- ربط لهذه النصوص بالحياة المعاصرة التى نحياها اليوم.
- سهولة ووضوح فى العرض والتحليل.

وبالتالى، فهذه السلسلة، **ليست مجرد** «**سلسلة تفاسير**» ، **بالمعنى المألوف**، حتى لا تقتصر عل مجرد الشرح دون التطبيق العملى له؛ فتصير مرجعاً دراسياً بحتاً على حساب الجانب الأدبى الجمالى.. كما أن هذه السلسلة، وعلى الجانب الآخر، **ليست مجرد نوع من** «**العظات**» فى قضايا الحياة المعاصرة، دون أساس كتابى عميق..

لذلك.. فقد اتحد جميع المساهمين فى هذه السلسلة على هذه المبادئ، واتفقوا **على أن الله مازال** «**يتحدث**» **من خلال ما نطق به سابقاً**، حيث لا يوجد شئ أهم للحياة السليمة النامية فى المسيحية، من الإصغاء إلى ما يقوله لنا الروح القدس، من خلال كلماته الخالدة المعاصرة دائماً.

محرر السلسلة،

جون ستوت
John. R. W. Stott

ج. أ. موتييه
J. A. Motyer

المحتويات

صفحة

تقديم وإهداء	٣
هذه السلسلة	٥
مقدمة المؤلف	٩
ترتيب الأحداث للموعظة على الجبل	١٢
مقدمة: ما هي الموعظة على الجبل؟	١٥
١ـ الباب الأول: صفات المسيحي: التطويبات	٣١
٢ـ الباب الثاني: تأثير المسيحي: ملح ونور	٦١
٣ـ الباب الثالث: بر المسيحي	٧٧
٤ـ الباب الرابع: تدين المسيحي: ليست رياء، بل صدقا	١٣١
٥ـ الباب الخامس: صلاة المسيحي: ليس آلية، لكنها متأملة	١٥١
٦ـ الباب السادس: طموح المسيحي	١٦٣
٧ـ الباب السابع: علاقة المسيحي بإخوته وأبيه	١٨٩
٨ـ الباب الثامن: علاقات المسيحي: مع الأنبياء الكذبة	٢١١
٩ـ الباب التاسع: التزام المسيحي: الاختيار الحاسم	٢٢٧
١٠ـ خاتمة الأحداث: من هو هذا المعلم؟!	٢٣٩
١١ـ قائمة المراجع واختصاراتها بالنص الأصلي:	٢٥٤

مقدمة المؤلف

إن «الموعظة على الجبل» لها جاذبيتها الخاصة. فهى تبدو كخلاصة متكاملة لتعاليم السيد المسيح، وتجعل من الصلاح أمراً شيقاً، فى أنها تدين سلوكياتنا المشينة، وتولّد فينا أحلاماً عريضة لأجل عالم أفضل كما نحن فيه.

وكما وصفها «جون دون» John Donne فى عظة له بمؤتمر لنت Lent ١٦٢٩، وبدون أدنى مبالغة:

«إن كل موضوعات ديننا، وكل أعضاء كنيستنا، وكل أوامر أمرائنا، وكل عظات آبائنا، وكل جسد السماء؛ كل هذا يكمن فى هذه الأصحاحات الثلاثة، فى هذه الموعظة الواحدة التى كانت على الجبل».

ولابد وأن أعترف أننى شخصياً قد وقعت تحت تأثيرها الطاغى، أو بالأحرى تحت تأثير سلطان ذاك الذى علَّمَ بها.

وعلى مدار السنوات السبع الماضية ـ على الأقل ـ كنت مستغرقاً بالكامل فى تأملها وبالتالى، اكتشفت أن عقلى يسكن إلى قضاياها، وأن قلبي يهدأ فى نبل أفكارها. وخلال هذه المدة حاولت مراراً وتكراراً أن شارك أفكارى وحماسى ونشوتى تجاه «الموعظة على الجبل»، مع طلبة كلية كامبردج، ومع مجموعات الدراسة بأمريكا وكندا، وجماعة المؤمنين بكنيسة All souls، فى Langham Palace، ومع الآلاف النفوس من كل أنحاء العالم، العطشى إلى الإيمان، الوافدين إلى مؤتمر Keswick عام ١٩٧٢.

وإن كان من الطبيعى أن يؤلف المئات من التفاسير حول الموعظة على الجبل، فقد سمح ذلك لى بأن أدرس حوالى خمسة وعشرين من هذه التفاسير؛ الأمر الذى جعلنى مديوناً لهؤلاء المفسرين ـ كما سيتضح ذلك للقارئ.

وبالفعل، فإن كتابى هذا سيبدو منثوراً بالاقتباسات التى أخذتها عن هؤلاء، لأننى أعتقد بضرورة أن نعطى تراثنا الفكرى واللاهوتى قيمة أعلى مما هى عليه الآن، حيث يقتفى أثر معلمينا السابقين، بكل تواضع وإصغاء.

إن هدفى من هذا التفسير، ومن خلال التمشى مع الروح العامة لهذه السلسلة: «الكتاب المقدس يتحدث اليوم» (The Bible Speaks Today) هو الإصغاء الشديد إلى النص الكتابى ذاته.

ولذا، فقد سعيت، قبل كل شئ، لأن أدع النص نفسه يتحدث، أو بالأحرى أن أدع السيد المسيح نفسه يتحدث ويعلّم العظة ذاتها مرة أخرى، بلغة موجهة إلى عالمنا المعاصر.

لذلك حرصت على المناقشة المتكاملة للقضايا التى تطرحها «الموعظة» على ضمير المسيحيين اليوم، دون تجاهل لأى منها. لأن يسوع المسح لم يقدم لنا عظة أكاديمية عقلية لاستثارة عقولنا، بل إننى أؤمن تماماً أنه قدم «الموعظة على الجبل»؛ لكى تحفظ فى قلوبنا وتُطاع فى سلوكنا.

وبالتالى؛ فإن استطاعت الكنيسة اليوم أن تقب بواقعية معايير السيد المسيح وقيمه، كما وضعها هو، وإن عاشة بهذه المعايير والقيم؛ فسوف تصبح الكنيسة ذلك المجتمع «البديل» الذى أراده هو أن يكون، ولسوف تستطيع أن تمنح العالم اليوم: ثقافة مسيحية مضادة للثقافة الشائعة» (Christan Counter - Culture).

وإننى فى شديد الإمتنان «لجون مايل» John Maile المحاضر فى مادة العهد الجديد بكلية سبرجن College بلندن، لأجل قرائته مخطوطة هذه الكتاب وملاحظاته القيمة، وكذلك أقدم شكرى لمن قاما بجمع هذا الكتاب على الكمبيوتر.

جون ستوت

John R. W. STOTT

ترتيب الأحداث ـ بالموعظة على الجبل

[متى ٥:١ ـ ٧:٢٨ ، ٢٩]

الشاهد		صفحة
[٥: ١ ، ٢]	**مقدمة: ما هي الموعظة على الجبل؟**	١٥
	١ـ هل الموعظة على الجبل هى تعليم مسيحي للعالم؟	٢٢
	٢ـ هل الموعظة على الجبل مناسبة لعصرنا؟	٢٥
	٣ـ هل الموعظة على الجبل .. عملية؟	٢٧
[٥: ٣ـ١٢]	**الباب لأول: صفات المسيحي: التطويبات**	٣١
	أ ـ من هم الأشخاص الموصوفون هنا؟	٣٣
	ب ـ ما هى صفات المطوبين؟	٣٤
	ج ـ ما هى البركات التي وعدوا بها؟	٣٥
[٥: ٣]	**١ـ المساكين بالروح**	٤٢
[٥: ٤]	**٢ـ الحزانى**	٤٤
[٥: ٥]	**٣ـ الودعاء**	٤٦
[٥: ٦]	**٤ـ الجياع والعطاش إلى البر**	٤٨
[٥: ٧]	**٥ـ الرحماء**	٥١
[٥: ٨]	**٦ـ أنقياء القلب**	٥٣
[٥: ٩]	**٧ـ صانعو السلام**	٥٥
[٥: ١٠ـ١٢]	**٨ـ المضطهدون من أجل البر**	٥٧
[٥: ١٣ـ١٦]	**الباب الثاني: تأثير المسيحي: ملح ونور**	٦١
[٥: ١٣]	**١ـ الملح والأرض**	٦٦
[٥: ١٤ـ١٦]	**٢ـ نور العالم**	٦٨
	٣ـ الدروس التى نتعلمها من «الملح والنور»	٧٠
	أ ـ الفرق الجوهرب بين المؤمنين وغير المؤمنين	٧٠
	ب ـ قبول مسئولية هذا التمييز	٧٠
	ج ـ التطلع إلى مسئوليتنا، كمسئولية مزدوجة	٧١
[٥: ١٧ ـ ٤٨]	**الباب الثالث: بر المسيحي؟**	٧٧
[٥: ١٧ ـ ٢٠]	***أولاً: المسيح، والمسيحى، والناموس***	٧٩
[٥: ١٧ ، ١٨]	١ـ المسيح والناموس	٨٠
[٥: ١٩ ، ٢٠]	٢ـ المسيحى والناموس	٨٣
[٥: ٢١ ـ ٣٠]	***ثانياً: تجنب الغضب والشهوة***	٩١
[٥: ٢١ ـ ٢٦]	١ـ تجنب الغضب	٩١
[٥: ٢٧ ـ ٣٠]	٢ـ تجنب الشهوة	٩٥
[٥: ٣١ ـ ٣٧]	***ثالثاً: الإخلاص في الزواج، والأمانه في الكلام***	١٠٠
[٥: ٣١ـ٣٢]	١ـ الإخلاص فى الزواج	١٠٠
[٥: ٣٣]	٢ـ الأمانة فى الكلام	١٠٧
[٥: ٣٨ـ٤٨]	***رابعاً: عدم الانتقام، والمحبة العملية***	١١١
[٥: ٣٨ـ٤٢]	١ـ عدم الأخذ بالثأر	١١١
[٥: ٤٣ـ٤٨]	٢ـ المحبة العاملة	١٢٢
[٦: ١ ـ ١٦ :١٦ـ ١٨]	**الباب الرابع: تدين المسيحي: ليس رياء، بل صدقاً**	١٣١
[٦: ٢ـ ٤]	١ـ عطاء المسيحى	١٣١
[٦: ٥ـ ٦]	٢ـ صلاة المسيحى	١٤١
[٦: ١٦ـ ١٨]	٣ـ صوم المسيحى	١٤٤

صفحة

[٦: ٧-١٥]	الباب الخامس: صلاة المسيحي: ليست آلية، لكنها متأملة	١٥١
	١- طريقة الأمم في الصلاة	١٥٤
	٢- الطريقة المسيحية للصلاة	١٥٦
[٦: ١٩-٣٤]	الباب السادس: طموح المسيحي	١٦٣
[٦: ١٩-٢١]	١- سؤال حول الثروة!	١٦٧
[٦: ٢٢، ٢٣]	٢- سؤال حول الرؤية!	١٧٠
[٦: ٢٤]	٣- سؤال حول القيمة!	١٧٢
[٦: ٢٥- ٣٤]	٤- سؤال حول الطموح!	١٧٤
	أولاً: الطموح المزيف أو العالمي: أماننا الشخصي في الماديات!	١٧٨
[٦: ٢٥- ٣٠]	١- القلق لا يتفق مع الإيمان المسيحي	١٧٨
	٢- مشاكل متعلقة بالإيمان المسيح	١٧٩
[٦: ٣٤]	٣- القلق لا يتفق مع النظرة السليمة للأمور	١٨٢
	ثانياً الطموح المسيحي الصحيح: يطلب «ملكوت الله وبره»	١٨٩
	١- اطلبوا أولاً ملكوت الله	١٨٤
	٢- أطلبوا أولاً بر الله	١٨٤
		١٨٥
[٧: ١- ١٢]	الباب السابع: علاقة المسيحي باخوته وأبيه	١٨٩
[٧: ١- ٥]	١- موقفنا تجاه إخوتنا	١٩٢
[٧: ١، ٢]	أ- المؤمن لا يجب أن يدين	١٩٢
[٧: ٣، ٤]	ب - المؤمن ليس مرائياً	١٩٥
[٧: ٥]	ج - على المؤمن أن يكون أخاً	١٩٦
[٧: ٦]	٢- موقفنا تجاه الكلاب والخنازير	١٩٧
[٧: ٧ - ١١]	٣- موقفنا تجاه الآب السماوى	٢٠١
	أ- الوعود التى قدمها المسيح	٢٠١
	ب - المشاكل التى يثيرها الإنسان	٢٠٣
	ج - الدروس التى نتعلمها	٢٠٧
[٧: ١٢]	٤- موقفنا تجاه كل الناس	٢٠٨
[٧: ١٣- ٢٠]	الباب الثامن: علاقات المسيحي: مع الأنبياء الكذبة	٢١١
[٧: ١٣، ١٤]	١- الاختيار الذى لا مفر منه	٢١٣
[٧: ١٥- ٢٠]	٢- مخاطر المعلمين الكذبة	٢١٤
	أ - الافتراضات	٢١٥
	ب - التحذيرات	٢١٦
	ج - امتحانات	٢١٨
[٧: ٢١ - ٢٧]	الباب التاسع: التزام المسيحي: الاختيار الحاسم	٢٢٧
[٧: ٢١ - ٢٣]	١- خطورة الاعتراف بالفم فقط	٢٣٠
[٧: ٢٤ - ٢٧]	٢- خطواة المعرفة العقلية فقط	٢٣٣
[٧: ٢٨، ٢٩]	خاتمة الأحداث: من هو هذا المعلم؟	٢٣٩
	١- سلطان المسيح .. كالمعلم	٢٤٣
	٢- سلطان المسيح .. كالمسيا	٢٤٦
	٣- سلطان المسيح .. كرب	٢٤٧
	٤- سلطان المسيح .. كالمخلص	٢٤٩
	٥- سلطان المسيح .. كالديان	٢٥٠
	٦- سلطان المسيح .. كإبن الله	٢٥١
	٧- سلطان المسيح .. كالله	٢٥٢

مقدمة

ما هي الموعظة على الجبل؟

[أصحاح ٥ : ١ ، ٢]

بالرغم من أن «الموعظة على الجبل» تُعتبر أفضل ما قدَّمه المسيح من تعليم، إلا أنها قليلاً ما تُفهم ونادراً ما تُطاع. **وهي أقرب شيء إلى إعلان المسيح عن رؤيته الخاصة لمن يكون أتباعه وعملهم. وأعتقد أنه لا يوجد ما يلخص هدف هذه الموعظة ويعبِّر بجلاء عن تحديها لعالمنا المعاصر؛ أفضل من القول إنها «المسيحية في مواجهة الحضارة» [Christian Counter - culture] (أو اختلاف الأخلاق المسيحية عن أخلاقيات المجتمع)**. ودعنى أشرح لماذا:

تميَّزت السنوات التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ بما نسميه «المثالية البريئة»، فكابوس الموت الرهيب قد انتهى، وأصبح الهدف العام هو «البناء». دخلت السنوات الست التى تم فيها الدمار والفقر فى ذمة التاريخ، وصار الهدف بناء عالم جديد يعم فيه التعاون والسلام. لكن الشقيق التوأم للمثالية هو «خيبة الأمل»: خيبة الأمل للذى يسيرون فى ركاب المثاليات، وأردأ من ذلك لمن يقاومونها، والأسوأ من هذه كلها لمن يغدرون بها. وخيبة الأمل فى ما هو كائن تدفع المثالية إلى الأمام.

ويبدو أننا نقضى عشرات السنين فى فشل، ويسخط كل جيل جديد على ما ورثه من الأجيال السابقة، وأحياناً يكون ردُّ فعله ساذجاً، ولو أنه قد يكون مُخْلصاً. وواضحٌ أن الذين حملوا الورود ورفعوا شعارات «مارسوا الحب لا الحرب» ـ احتجاجاً على حرب فيتنام بما حملته من رعب لم ينهوا الحرب، لكن اعتراضاتهم لم تمر مرَّ الكرام.

واليوم يرفض البعض ما وصل إليه الغرب من غنى وبحبوبة يزدادان يوماً بعد يوم على حساب تدمير البيئة أو استغلال الدول النامية، ويعلنون رفضهم لهذه الأمور بأن يلبسوا ملابس مهلهلة أو يسيرون حفاة الأقدام، مع أن ما يحتاجونه هو علاقات صادقة،لا أن يقلدوا الطبقة العامة الفقيرة. هؤلاء الشباب يحتقرون السطحية المادية الغير المتدينين وشكلية المتدينين، وهم يدركون أن هناك أموراً أكثر جوهرية من مجرد مثل هذه التفاهات، فيجمعون بين التأمل والجنس والمخدرات، ويكرهون فكرة «الجنس الخائن» ويبتعدون عنه ولا يشاركون فيه. وهذه كلها مجرد أعراض لعدم قدرة الأجيال الصاعدة على التأقلم مع الواقع الأليم والأخلاق السائدة، فيشعرون بالغربة عن بيوتهم ومجتمعهم.

وفى طلبهم للبديل يستخدمون عبارة «مواجهة الحضارة» (counter - cultue) تعبيراً عن مدى واسع من الأفكار والمثاليات الخبرات والأهداف. وقد سجل هذه الأفكار «ثيودور روزاك»

(١٩٦٩) فى كتابة «صُنع حضارة مختلفة»، وأوس جوينّس (١٩٧٣) فى كتابه «تراب الموت»، وكينيث ليش (١٩٧٣) فى كتابه «زلزلة الشباب».

وقد وجد المؤمنون أن فى البحث عن أخلاق بديلة آمالاً عريضة، لأنهم يعلمون أن الروح القدس يزعزع قبل أن يشكِّل، ويعلمون أن الذى يفتش عنه الشباب سيقودهم إلى الحل والجواب. وعندما بحث «ثيودور روزاك» عن كلمات يعبر بها عن الحقيقة التى يبحث عنها الجيل الصاعد، والتى عبَّر عنها العلماء بكلمة «الموضوعية»؛ لم يجد مفراً من أن يعود إلى كلمات المسيح: «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟»[١].

وان كان هناك أمل يتطلع إليه المعترضون أو الباحثون، فالأمل هو فى المؤمنين. لكن ما يدعو إلى الخجل هو أن جيل اليوم يتطلع إلى الأمور الحقيقية (المعنى، والسلام، والحب، والصدق). ويبحثون عنها فى الأماكن الخاطئة، بينما المكان الذى ينبغى أن يذهبوا إليه هو المكان الذى يجهلونه، إلا وهو الكنيسة لماذا؟ لأنهم فى كثير من الأحيان لا يرون فيها أخلاقاً مختلفة، بل يرونها مثل مجتمعهم إنهم لا يرون فيها مجتمعاً جديداً يجسِّد المثاليات التى يتطلعون إليها، فهى صورة مكررة من المجتمع القديم الذى رفضوه. لا يجدون فيه الحياة بل الموت، وهم يصادقون على ما قاله المسيح لكنيسة ساردس فى القرن الأول: «لك اسم أنك حى وأنت ميت» (رؤ ٣ :١).

وللأسف نحن لا نرى ذلك فقط، بل نشعر أيضاً بفداحة هذه المأساة، فقد صارت الكنيسة على شكل العالم، وأصبحت هى والعالم وجهين لعملة واحدة، فالكنيسة تناقض هويتها، وأكثر ما يؤلمنا من تعليق هو قول العالم للكنيسة: «أنتم لا تختلفون عن العالم من حولكم»، وهو للأسف قول صادق.

إن الغرض الجوهرى لكل الكتاب المقدس من التكوين إلى الرؤيا، هو أن يؤكد لنا أن الله يدعو لنفسه عبر التاريخ: شعباً خاصاً، «مقدساً»، مفرزاً من العالم، ومخصصاً لله؛ ليطيعه ويسلك بحسب هذه الدعوة في القداسة، ويكون مختلفاً في مظهره وسلوكه. وهذا ما قاله الله لشعبه، بعدما حررهم من العبودية فى أرض مصر وجعلهم شعباً خاصاً دخل معهم فى عهد: «أنا الرب إلهكم. مثل عمل أرض مصر التى سكنتم فيها لا تعملوا ومثل عمل أرض كنعان التى أنا آتٍ بكم إليها لا تعملوا وحسب فرائضهم لا تسلكون. أحكامى تعملون وفرائضى تحفظو لتسلكوا فيها. أنا الرب إلهكم» (لاويين ١٨ :٢-٤). وقد بدأ الرب هذه الكلمات بقوله: «أنا الرب إلهكم» وأنهاها بذات القول. ولأنه

(١) *The making of counter - culture* (Anchor Books, Doubleday, 1969, p. 333)

إله العهد، ولأنهم شعبه الخاص؛ عليهم أن يكونوا مختلفين عن بقية الشعوب، وأن يحفظوا وصاياه، ولا يستمدوا قيمهم ومثالياتهم من العالم حولهم.

ولكن عبر القرون التى تلت إلقاء هذه الكلمات، نسى شعب الله مركزه السامى كشعب لله. وبالرغم من كلمات بلعام عنه: «هوذا شعب يسكن وحده بين الشعوب لا يحسب» (عد ٢٣ :٩) إلا أنهم فى الواقع كانوا يتمثلون بالشعوب التى حولهم «بل اختلطوا بالأمم وتعلموا أعمالهم» (مز ١٠٦ :٣٥) . فطلبوا ملكاً يحكمهم مثل الأمم، وقالوا: «اجعل لنا ملكاً يقضى لنا كسائر الشعوب» (١ صم ٨ :٥) . وعندما ساء الأمر فى عينى صموئيل واعترض على أساس أن الله هو ملكهم؛ أصروا فى عناد على مطلبهم: «فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا: لا. بل يكون علينا ملك فنكون نحن أيضاً مثل سائر الشعوب» (١ صم ٨ :١٩ ، ٢٠) . ولكن الأسوأ من كل هذا، كان انغماسهم فى الوثنية، فقيل لهم: «إذ تقولون نكون كالأمم كقبائل الأراضى فنعبد الخشب والحجر» (حز ٢٠ :٣٢) ، لذلك أرسل الله لهم الأنبياء تباعاً ليذكروهم بهويتهم وليطلبوا منهم أن يسيروا فى طرقه، فقال لهم إرميا: «اسمعوا الكلمة التى تكلم بها الرب.. لا تتعلموا طريق الأمم» (إر ١٠ :١ ، ٢) ، وقال لهم حزقيال: «لا تتنجسوا بأصنام مصر. أنا الرب إلهكم» (حز ٢٠ :٧) . إلا أن شعب الرب لم يسمع لصوته. وكان هذا هو السبب الرئيسى الذى أوقع الدينونة على المملكة الشمالية «إسرائيل»، ثم بعد نحو مئة وخمسين سنة على المملكة الجنوبية «يهوذا» فإن «بنى إسرائيل أخطأوا إلى الرب إلههم.. وسلكوا حسب فرائض الأمم. ويهوذا أيضاً لم يحفظوا وصايا الرب إلههم بل سلكوا فى فرائض إسرائيل التى عملوها» (٢مل ١٧ :٧ ، ٨ ، ١٩ . قارن حز ٥ :٧ و١١ :١٢) .

هذه خلفية ضرورية لفهم «الموعظة على الجبل» التى أوردها «البشير متى» فى بدء روايته لخدمة المسيح الجهارية. فبعد المعمودية، والتجربة من إبليس، بدأ المسيح يعلن الأخبار السارة عن ملكوت الله، الذى وعد الله به فى زمن العهد القديم، بواسطة المسيح لبزوغ فجر جديد. لقد نادى المسيح: «توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (مت ٤ :١٧) ، وذهب إلى «كل الجليل يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت» (مت ٤ :٢٣) . ومن خلال هذه القرينة، ينبغى أن نفهم «الموعظة على الجبل»، فهى تصف التوبة وتغيير الاتجاه والفكر، وممارسة البر الذى ينتمى إلى الملكوت، وتصف «حالة» الإنسان الخاضع لنعمة الله وسط المجتمع.

فما هى هذه الحالة؟ إنها: «**الاختلاف!**» . **لقد ركز المسيح على أن أتباعه الحقيقيين أبناء ملكوت الله، «مختلفون» عن الآخرين،** فهم لا يستمدون إرشاداتهم من الناس من حولهم، لكن من الله، وبهذا يبرهنون أنهم بالحقيقة أبناء الآب السماوى. وأعتقد أن العبارة

المفتاحية «للموعظة على الجبل هي: «فلا تتشبهوا بهم» (مت ٦ : ٨) . أنها تذكرنا بكلام الله للشعب القديم «عمل أرض كنعان لا تعملوا» (لا ١٨ :٣) . إنها ذات الدعوة لنكون مختلفين. وكلما درسنا «الموعظة على الجبل» . أدركنا أن هذا موضوعها الرئيسى، فصفاتهم (وهى التطويبات) ينبغى أن تختلف عن الصفات التى يفتخر بها العالم. وعليهم أن يضيئوا مثل النو فى ظلام العالم، وينبغى أن يزيد برهم عن الكتبة والفريسين فى السلوك والأخلاق والتكريس. وينبغى أيضاً أ تكون محبتهم أعظم، وطموحهم أسمى وأنبل من طموح الأمم.

ولا توجد فقرة فى «الموعظة على الجبل» تخلو من إظهار أوجه الفرق بين مستوى المؤمن وغير المؤمن «فالاختلاف» هو الموضوع الجوهرى والرئيسى فى الموعظة، أما الباقى فهو بعض الأمور الاعتراضية. ويقارن الرب بين الأمم الوثنيين وبين شعبه، فالأمم يحبون من يحبونهم، لكن شعب الله ينبغى أن يحب أعداءه (مت ٥: ٤٤ـ٤٧) . والأمم يصلون بترديد كلمات فارغة، لكن المؤمنين ينبغى أن يصلوا باتضاع الأبناء لأبيهم السماوى (٦ :٧ـ١٣) . والأمم ينشغلون باحتياجاتهم المادية، لكن المؤمنين يطلبون أولاً ملكوت الله وبره (٦:٣٢ ، ٣٣) .

وفى أوقات أخرى لا يقارن المسيح بين أتباعه والوثنيين، بل بينهم وبين اليهود المتدينين وعلى الأخص الكتبة والفريسيين. ولقد فرق «البروفيسور إرميا» بين الكتبة والفريسيين، فقال أن الكتبة هم المعلمون اللاهوتيون الذين قضوا فترة كبيرة فى التعليم، لكن الفريسيين ليسوا لاهوتيين بل مجموعة من الاتقياء من كل أنحاء المجتمع[1] . وقد أوضح المسيح الفرق بين الأخلاق المسيحية وتعليم الكتبة الأخلاقى (٥:٢١ـ ٤٨) ، وشر الفرق بين التقوى المسيحية وتعبد الفريسيين المرائين (٦ : ١ـ ١٨) .

وهكذا فأتباع المسيح «مختلفون» عن الكنيسة الإسمية وعن العالم الدنيوى، وهم مختلفون عن المتدينين وغير المتدينين. «فالموعظة على الجبل» أكمل صورة وردت في العهد الجديد عن الأخلاق المسيحية «المختلفة» عن أخلاقيات العالم، وفيها توضيح لقيم المؤمن ومقاييسه الأخلاقية وتكريسه الروحى وموقفه من المال، والطموح، وطريقة حياته وعلاقاته، هذه الأمور جميعها تختلف تماما مع قيم العالم غير المسيح. أما الأخلاق المسيحية فهى الحياة في ملكوت الله، وهى حياة إنسانية، لكنها تقاس بقوانين إلهية.

---

(١) *The Sermon on the Mount, Joachim Jeremias,* (University of London, Athlone press, 1961, P.33

نأتى الآن إلى مقدمة الموعظة على الجبل، التى قدمها البشير متى باختصار لكن بإبهار، لنرى أهميتها فى نظره:

«ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل. فلما جلس تقدم إليه تلاميذه، ففتح فاه وعلمهم قائلاً» (٥: ١، ٢).

لا شك أن الغرض الأساسى من صعود المسيح إلى الجبل، كان لينسحب من الجموع الكثيرة التى تبعته من الجليل والعشر المدن وأورشليم واليهودية وعبر الأردن (مت ٤ :٢٥)، فقد قضى الشهور الأولى من خدمته الجهارية يطوف فى الجليل يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ويشفى كل مرضى وكل ضعف فى الشعب، فذاع خبره فى جميع سورية، فأحضروا إليه جميع السقماء والمصابين بأمراض وأوجاع مختلفة والمجانين والمصروعى والمفلوجين، فشفاهم (مت ٤ :٢٣ ، ٢٤). لذلك انسحب المسيح، لا لمجرد أن يعطى لنفسه فرصة للخلوة والصلاة، لكن أيضاً ليقدم الموعظة إلى تلاميذه فى جو أكثر تركيزاً.

ويبدو (كما قال كثير من المفسرين القدامى والمعاصرين) أن المسيح صعد إلى الجبل بمحض إرادته ليعلم فيكون فى هذا مفارقة بينه وبين موسى الذى أخذ الناموس من على جبل سيناء. ولقد شرح المسيح تطبيقاته بنفسه لتلاميذه على ما يسمى «جبل التطوبيات، الواقع (غالباً) على الشاطئ الشمالى لبحيرة طبرية. وبالرغم من أن المسيح كان أعظم من موسى، وبالرغم من أن رسالته تحمل بشارة مفرحة أكثر بكثير من الناموس، إلا انه اختار اثنى عشر تلميذا ليكونوا نواة إسرائيل الجديد، على مثال إسرائيل القديم الذى كان مكوناً من الأسباط الاثنى عشر. ولقد أعلن المسيح فى «الموعظة على الجبل» أنه معلم وسيد، فقدم تفسيره الخاص لشريعة موسى، وأم من يسمعه بالطاعة. وبعد ذلك دعا تلاميذه ليحملوا نيره ويتعلموا منه ويخضعوا لتعاليمه، كما سبق أن حملوا نير التوراة (مت ١١ :٢٩ ، ٣٠).

وقد تشبث بعض المفسرين بهذا الفكر، حتى أنهم بنوا إطار من خلال الموعظة على الجبل، ليسير فى خط متواز مع العهد القديم. فعلى سبيل المثال قال «ب. وباكون» إن متى قسم بشارته إلى خمسة أجزاء، ينتهى كل جزء منها بعبارة «فلما أكمل يسوع» (مت ٧ :٢٨و ١١ :١و ١٣ :٥٣و ١٩ :١و ٢٦ :١). وقال إن كل جزء من هذه الأجزاء الخمسة يتطابق مع سفر من أسفار موسى الخمسة، فأصبح الإنجيل عبارة عن عهد أسفار موسى الخمسة الجديد»[1].

(١) B.W. Bacon's theory is summarized and criticized by W.D. Davies, pp. 15-25.

وقدَّم «أوستن فاريز» فكراً آخر، فقال إن (مت ٥-٧) يتطابق مع (خر ٢٠- ٢٤)، والتطويبات الثمانية تتطابق مع الوصايا العشر، وبقية الموعظة عبارة عن شرح وتطبيقات، فهى تتطابق مع شرح وتطبيقات الوصايا(١).

وهذه المحاولات البارعة لإيجاد نوع من التطابق بين الموعظة والعهد القديم هى محاولات مفهومة، لأن اصحاحات كثيرة من العهد الجديد تصوِّر عمل المسح كأنه خروج جديد (مت ٢ :١٥)، والحياة المسيحية كاحتفال بهذا الخروج «لأن فصحنا أيضاً المسيح قد ذُبح لأجلنا. إذاً لنعيِّد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث بل بفطير الإخلاص والحق» (١كو ٥ :٧ ، ٨). إلا أن «متى» لم يشبِّه المسيح بموسى، ونحن لا نستطيع أن نعطى لأنفسنا الحق أن نقول عن «الموعظة على الجبل» أكثر من أنها مواد الناموس الجديد، وسيناء الجديدة، وموسى الجديد ههنا(٢).

وفى كل الأحوال، جلس المسيح آخذاً مكان المعلم، ودنا إليه تلاميذه ليستمعوا إلى تعليمه ثم «فتح فاه» (وهو تعبير عن جلال كلماته) وعلمهم.

وستدور فى ذهن القارئ العصرى الذى يدرس هذه الموعظة ثلاثة أسئلة أساسية. ولن يقبل تعاليمها إلا إذا وجد إجابات شافية لأسئلته هذه:

أولاً: هل الموعظة على الجبل هى بالحقيقة موعظة المسيح؟ هل هو الذى قدمها؟!

ثانياً: هل محتوياتها تتفق مع روح العصر، أم أنها غير عصرية؟!

ثالثاً: هل يمكن الوصول إلى المستوى الذى قدمته، أو، هل نرفض ما فيها باعتبارها مثاليات غير عملية؟!

١- هل الموعظة على الجبل هى تعليم المسيح فعلاً؟

لقد وردت الموعظة على الجبل فى إنجيل متى فقط، وهناك موعظة شبيهة وردت فى إنجيل لوقا تسمى «موعظة السهل» (لو ٦ :١٧-٤٩). ويخبرنا «لوقا» أن المسيح «نزل من على الجبل حيث قضى الليل كله فى الصلاة ووقف فى موضع سهل» (لو ٦ :١٢ ، ١٧). ولا ينبغى أن نتوقف كثيراً عند مكان إلقاء العظة، لأنه قد يكون هناك «موضع سهل» (مكان منبسط) فوق الجبل، وبالتالى لا يقصد لوقا أن المسيح ألقى موعظته فى واد.

(١) المرجع السابق، ص ٩-١٣

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٨

فإذا قارنا ما بين محتوى العظتين؛ نكتشف أنهما ليستا موعظة واحدة، فموعظة السهل فى (إنجيل لوقا) قصيرة تتكون من ثلاثين آية، بينما موعظة الجبل فى (إنجيل متى) تتكون من مائة وسبع آيات. وتحتوى كل من الموعظتين تعاليم غير موجودة فى الأخرى، ولو أن هناك تشابها واضحاً بينهما، فكل من العظتين تبدأ بالتطويبات وتنتهى بمثل «البنائين». وبين البداية والنهاية نجد القاعدة الذهبية، والوصية بمحبة الأعداء، وتحويل الخد للضارب، وعدم إدانة الآخرين، وتفسير واضح للخشبة فى العين، والشجرة وثمرها. فالمادة المشتركة بين العظتين، وبدايتهما ونهايتهما متشابهة فربما كانتا ترجمتين لعظة واحدة. إذا: ما هى العلاقة بين العظتين؟ وكيف نفسر التشابهات والاختلافات بينهما؟

لقد أنكر البعض أن موعظة الجبل هى «موعظة» بالمعنى الحرفى، ألقاها المسيح فى مناسبة خاصة. ومن المعروف أن بعض التلاميذ فى أيام المسيحية الأولى اهتموا بجمع تعاليم المسيح، وأفضل مثال لهذا هو أمثال المسيح السبعة فى إنجيل (مت ١٣)، فقال البعض إن إنجيل (مت ٥-٧) مجموعة أقوال للمسيح جمعها «البشير متى»، أو جمعها بعض المؤمنين بذكاء وأخذها منهم متى. حتى إن «جون كلفن» كان يؤمن بهذا الرأى، فقال: «إن خطة كل من البشيرين هى جمع التعاليم الرائدة للمسيح التى تتعلق بحياة التقوى والقداسة فى مكان واحد»[١]. وعلى هذا تكون الموعظة «موجزاً مختصراً جامعاً من أحاديث مختلفة للمسيح»[٢].

وقد انتقد بعض المفسرين الموعظة بلا مواربة، فكتب «و.د. دافيز» إنها «مجرد عبارات غير مترابطة قيلت فى مناسبات مختلفة»، ثم بدأ ينتقدها من حيث مصدرها وشكلها ومضمونها، وخرج بهذا الاستنتاج: «إن وقع تأثير النقد الحديث يلقى الشكوك فى جدوى البحث لفهم هذا الجزء، الذى يمثل مجموعة من الأقوال غير المترابطة من تعاليم المسيح»[٣]. وفى النهاية أذعن لما اتجه إليه التيارالمعروف باسم «نقد الصياغة» الذى يقول إن التلاميذ مولفون حاذقون كتبوا ما

---

(١) *J. Carlin, Commentary o a harmony of the Evangelists,* Mathew, Mark, and Luke, I, (1558: Tr. By William Pringle, 1845; Eerdamans, n.d.,) p. 258

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٩

(٣) مرجع سابق لدافيز، ص ٥٢١

بلغهم من تقاليد. ولكن «دافيز» ظل يشك فى أصالة بعض ما جاء فى موعظة الجبل مأخوذاً من فم المسيح نفسه.

ويتوق تفاعُل القارئ مع مثل هذه الانتقادات على فكره اللاهوتى عن الله، وعن طبيعة وغرض إعلانه فى المسيح، وعن عمل الروح القدس، وعن إحساس الصدق عند البشيرين. وأنا شخصياً يصعب علىَّ أن أقبل أى فكر يقول إن هذه الموعظة صادرة عن الكنيسة الأولى وليس عن المسيح ولا أنظر إليها كأنه مجموعة أقوال قيلت فى مناسبات مختلفة. والسبب فى اعتقادى هذا أن متى ولوقا عرضا الموعظة على أنها من فم المسيح، وأرادا لقرائهما أن يقبلوها بهذا المعنى. وأوردا التاريخ والمكان اللذين قيلت فيه، فالتاريخ هو بداية خدمة المسيح الجهارية فى الجليل، والمكان هو «جبل» سلطان وليس كالكتبة (مت ٧:٢٨ ، ٢٩). وقال كلاهما إنه بعد أن أَنهى وعظه دخل كفر ناحوم (مت ٨:٥ ولو ٧:١).

وأعتقد أن هذا لا يعنى أن البشيرين قدما لنا ذات كلمات الموعظة ككل، فواضح أنهما لم يفعلا هذا، لأن المسيح تكلم بالأرامية، وقدم البشيران ترجمة يونانية لما قيل. أضف إلى ذلك أن كلمات البشيرين تختلف عن بعضها. وهناك طرق عديدة نفسر بها هذا:

فلعل كلاً منهما قدم ترجمته، أو أجزاءً من مصدر واحد أو من مصادر مختلفة.

أو أن لوقا قدم مختصراً للموعظة، فحذف منها بعض الأجزاء بينما دوَّن متى أكثر من لوقا، إن لم يكن قد دوَّن كل الموعظة.

أو أن متى قدم الموعظة الأصلية القصيرة، وأضاف إليها أقوالاً للمسيح من مواعظ أخرى. إلا أننا فى النهاية نؤكد أن الروح القدس وجَّه الاختيار والترتيب الذى فى الموعظة.

أو أن متى قدم الموعظة الأصلية القصيرة، وأضاف إليها أقوالاً للمسيح من مواعظ أخرى. إلا أننا فى النهاية نؤكد أن الروح القدس وجَّه الاختيار والترتيب الذى فى الموعظة.

وأنا شخصياً أفضل رأى البروفيسور «أ. ب. بروس»، والذى كتبه فى تفسيره عام ١٨٩٧، فقال إن ما كُتب فى (مت ٥-٧) يمثل تعليمات «قيلت ليس فى ساعة من الزمن، أو في يوم واحد، لكن على فترات متقطعة»[١]. وأعتقد أن المسيح يمكن أن يكون قد أخذ تلاميذه معه على الجبل لقضاء نوع من «مدرسة صيفية». لذلك سمَّى هذه الأصحاحات لا «موعظة الرب على الجبل» (وهو

(١) *A.B. Bruce, Commentury on the Synopic Gospels, in the expositor's Greek Tetament.* edited by W. Robertson Nicholl (Hodder, 1897)p. 94

التعبير الذى كان أغسطينوس أول من أطلقه على الموعظة) ، لكن «التعليم الذى على الجبل»[١] كما أنك تقدر أن تقرأ الموعظة كلها فى عشر دقائق، لذلك فما قدمه لنا البشيران قد يكون ملخصاً سمعاه.

٢ـ هل الموعظة علي الجبل مناسبة للعصر؟

لا نستطيع أن نحكم إن كانت الموعظة على الجبل تناسب الحياة العصرية، إلا إذا فحصنا محتوياتها بالتفصيل. إن ما يلفت النظر أن الموعظة على الجبل برغم أنها تتناول موضوعات متعددة، لكنها مترابطة ترابطاً ملحوظاً، وهى ترسم صورة للسلوك الذى يتوقعه المسيح من كل تلميذ من تلاميذه، لأن كل تلميذ له هو عضو فى ملكوت الله. ففى هذه الموعظة نرى تلميذ المسيح كما يجب أن يكون من حيث قلبه، ودوافعه، أفكاره. بل نراه وهو يتحدث إلى الله فى صلاته السرية، كما نراه أيضاً فى الحياة العامة فى علاقاته مع الآخرين وهو يظهر الرحمة ويصنع السلام ويضطهد. وهو كالملح، كما أنه يضئ بنوره، ويحب الآخرين ويخدمهم حتى إن كانوا أعداءه، وفوق الكل يكرس ذاته لامتداد ملكوت الله وبره فى العالم.

ولعل جولة تحليلة سريعة فى الموعظة على الجبل، تساعدنا لندرك مدى حاجتنا لمثل هذه الموعظة فى القرن الحادى والعشرين.

(أ) صفات المسيحي (٥:٣ـ١٢)

تركز التطويبات على ثمانى صفات رئيسية للمسيحى، وتشرح علاقته بالله والناس، وما يتبارك به أصحاب هذه الصفات من بركات إلهية.

(ب) تأثير المسيحي (٥:١٣ـ١٦)

من تشبيه المؤمن بالملح والنور نرى التأثير الصلاح الذى يجب أن يقوم به المسيحيون فى المجتمع، إذا احتفظوا بصفاتهم المتميزة التى نراها فى التطويبات.

(١) المرجع السابق، ص ٩٥

(ج) بر المسيحي (٥:١٧-٤٨)

ما هو موقف المؤمن من ناموس الله الأخلاقى؟ هل توقف تطبيق الناموس فى الحياة المسيحية، كما تنادى بهذا مدارس «لسنا تحت الناموس» ؟ «والأخلاق الجديدة» ؟

لا! فالمسيح قال إنه لم يأت لينقض الناموس وأقوال الأنبياء، بل ليكملها. ثم أعلن أن العظمة فى ملكوت الله تتحدد بممارسة تعاليمه الأخلاقية وناموسه الأدبى. ويستحيل دخول ملكوت الله بدون بر يزيد على بر الكتبة والفريسيين (٥:١٧-٢٠). وقدم المسيح ستة توضيحات كل واحد من هذه يقول: «سمعتم أنه قيل، أما أنا فأقول» فيرفض تقليد الكتبة، ويؤكد سلطان العهد القديم. ثم يأتى بنا إلى مضمون ناموس الله الأخلاقى الكامل.

(د) التقوي المسيحية (٦:١-١٨)

وفى تقوى المؤمنين وتكريسهم وعبادتهم يجب أن لا يتشبهوا بالفريسيين فى ريائهم، أو الأمم فى شكلية عبادتهم. فينبغى أن التقوى المسيحية تتميز بصدق وإخلاص أولاد الله الذين يعيشون فى محضر أبيهم السماوى.

(هـ) طموح المسيحي (٦:١٩-٣٤)

يجب أن يتجنب المؤمنون «العالمية»، سواء أخذت شكلاً دينياً أو دنيوياً، فيجب أن نختلف عن غير المؤمنين، لا فى التكريس والتقوى فحسب، بل أيضاً فى طموحاتنا. فلقد غير المسيح موقفنا تجاه الماديات والممتلكات، وأوضح أنه من المستحيل أن نعبد الله والمال، فعلينا أن نختار أحدهما. وفى الوقت الذى فيه ينشغل أهل العالم بطلب الطعام والشراب والملابس، على المؤمن أن يتحرر من قلقه تجاه هذه الماديات التى تركز على الذات، ويكرس نفسه لانتشار ملكوت الله وبره، فيكون طموحه الأسمى: مجد الله، لا مجد ذاته، ولا يكون طموحه فى حياة رغدة. إن التحدى الذى أمامنا هو: ما الذى نطلبه أولاً؟

(و) علاقات المسيحي (٧:١-٢٠)

علاقات المؤمن معقدة ومتشابكة، تنبع من علاقته بالله، فعلاقتنا السليمة بالله ستؤثر تماماً على علاقتنا بالآخرين. وقد تتغير العلاقات القديمة؟ لأن هناك علاقات جديدة خُلقت فينا. فلا نعود نُدين إخوتنا بل نخدمهم (١-٥)، ونتجنب تقدمى الإنجيل للذين قرروا أن يرفضوه

(ع٦)، ونصلى إلى أبينا السماوى (٧ـ١٢)، ونحترس من الأنبياء الكذبة الذين يعوقون دخول الناس من الباب الضيق (١٣ـ٢٠).

(ز) التزام المسيحي (٧: ٢١ـ٢٧)

إن التحدى الأخير الذى توقفنا أمامه الموعظة هو كل يتعلق بسلطان صاحب هذه الموعظة، فليس كافياً أن تدعوه «يارب، يارب» (الأعداد ٢١ـ٣١) أو أن نكتفى بسماع تعليمه (الأعداد ٢٤ـ٢٧)، لكن السؤال الأساسى هو: هل نعنى ما نقول، وهل نعمل بما نسمع؟ إن مصيرنا الأبدى يتعلق بهذا الالتزام، فالعاقل هو الذى يطيع المسيح كرب، لأنه يبنى بيته على أساس صخرى، فلا تؤثر فيه المقاومة ولا الدينونة.

لقد تعجب الجموع من السلطان الذى كان المسيح يعلّم به (العددان ٢٨ ، ٢٩)، وهو السلطان الذى يجب أن يخضع له كل أتباع المسيح فى كل العصور **إن إعلان سيادة المسيح سواء كان في المبادئ أو في التطبيقات أمر يناسب العصر تماماً، كما كان يناسب العصر الذى علم فيه المسيح منذ ألفى عام.**

٣ـ هل الموعظة علي الجبل عملية؟

والسؤال الثالث هو سؤال الناس العمليين، فمن السهل أن نقتنع بما ورد فى الموعظة نظرياً، لكن هل يمكن تطبيقها عملياً؟ هل يمكن أن نصل إلى مثل هذه المقاييس، أم هل نكتفى بالإعجاب بها من بعيد؟

وينظر الكثير من المفسرين والقراء إلى مقاييس هذه الموعظة فى ضوء الطبيعة البشرية الضالة، فيرون أنه من المستحيل الوصول إلى هذه المقاييس المثالية السامية لأنها غير عملية. إنها مبهرة، لكن يستحيل تنفيذها. فإن كنا نعرف شيئاً عن الطبيعة البشرية الشديدة الأنانية، فكيف نتوقع أن نكون ودعاء؟!

وإن كنا نعرف شيئاً عن الطبيعة الشهوانية الجنسية للإنسان، فكيف نمنع من التفكير والنظر الشهوانى؟ وإن كنا نعرف أن هموم العالم تبتلع الإنسان، فكيف نتخلص من الاهتمام والقلق؟!

وأن كنا نعلم أن الإنسان معرَّض للغضب ويتعطش للانتقام، فكيف نتوقع منه أن يحب أعداءه ؟!

لكن الأكثر من ذلك: أليس الأمر بتحويل الخد الآخر للضارب شيئاً خطيراً بالنسبة لصحة المجتمع، كما أنه أمر صعب التنفيذ؟!

إن طاعة هذا الأمر تزيد العنف ولا تحده.. كلا! «فالموعظة على الجبل» غير ذات فائدة عملية على مستوى الفرد والمجتمع، فهى فى أحسن أحوالها مثالية نظرية لا واقعية. إنها حلم لا يمكن تحقيقه وقد عبر «يوهانس فايس» عن رأى مشابه لهذه الرأى، نشره «ألبرت شفايتزر»، قال فيه أن المسيح كان يطلب مطلباً استثنائياً لأوضاع استثنائية، لأنه كان يتوقع أن تأتى نهاية العالم سريعاً، فأعطى تلاميذه «قواعد أخلاقية مؤقتة»، الأمر الذى كان يتطلب منهم تضحيات كاملة مثل ترك أملاكهم، ومحبة أعدائهم، وتضحيات لا تتناسب إلا مع أوقات الأزمات. وفى هذه الحالة تصبح الموعظة على الجبل نوعاً من القوانين العسكرية»[١]، لا تتناسب إلا مع الظروف الحرجة، وبالتالى فهى ليست أخلاقيات كل يوم.

غير أنه جرت محاولات كثيرة للتوفيق بين «الموعظة على الجبل: ومستوانا الأخلاقى المتدنى. ففى الفصلين الرابع والخامس من كتاب «فهم موعظة على الجبل» الذى كتبه «هارفى ماك» أرثر، أجرى مسحاً ثم تقييماً لأكثر من اثنتى عشرة طريقة مختلفة لتفسير الموعظة على الجبل[٢] ثم قال إنه من الممكن وضع عنوان لمثل هذه التفسيرات هو: «ترجمات وتهرُّبات من الموعظة على الجبل»، لأن كل هذه التفسيرات، باستثناء تفسير واحد تقدم تحفُّظات حذرة على مطالب هذه الموعظة.

وعلى النقيض من هؤلاء هناك بعض السطحيين الذين أكدوا أن فى الموعظة على الجبل مقاييس أخلاقية سهلة الأتّباع، مشتركة بين كل الديانات . وقالوا: «نحن نعيش وفقاً للموعظة على الجبل». ويبدو أن مثل هؤلاء الناس لم يقرأوا هذه الموعظة أبداً! أما الأديب الروسى الكبير «ليو تولستوى» الذى كان يدرك فشله الروحى (والذى كان أيضاً يؤمن أن المسيح ألقى هذه الموعظة لتُطاع)، فقد كان يؤمن أن تعاليم المسيح يمكن ممارستها. وسجَّل هذا الاعتقاد على فم «الأمير نيكولودوف» بطل روايته الأخيرة العظيمة «القيامة»، والتى نُشرت فى عامى ١٨٩٩ و١٩٠٠. ففى نهاية هذه الرواية، أعاد «نيكولودوف» قراءة إنجيل متى، فرأى فى

(١) هذا التعبير مأخوذ من البروفيسور Jermias مرجع سابق، ص ٤١

(٢) H. Mcarthur, Understanding the Sermon on the Mountain (Harper, 1960; Epworth, (1961), pp.105-148.

الموعظة على الجبل لا مجرد أفكار جميلة تقدِّم وصايا صعبة التنفيذ، لكنها وصايا واضحة عملية، وبطاعتها (وهذا ممكن سيؤسس نظاماً جديداً تماماً للمجتمع الإنسانى، فيه تتوقف القسوة (التى ملأت نيكولودوف بالغضب) من تلقاء نفسها، وسيتطلع المجتمع إلى بركات عظيمة يمكن تحقيقها؛ فيتحقق أما مجئ ملكوت السموات فى الأرض...

لقد جلس «نيكولودوف» ينظر إلى الضوء الخافت المنبعث من الصباح، وتوقف قلبه عن النبض، وبدأ يتذكر الفشل الرهيب الذى كان يعيش فيه، ثم بدأ يصوِّر لنفسه نوعية الحياة التى سيحياها الناس - إن هم تعلموا بل وأطاعوا هذه الوصايا. وهنا بدأت روحه تطفر فرحاً لم يسبق له أن شعر به، فكان كما لو بعد حزن وألم طويل وجد فجأة السلام والحرية...

ولم ينم فى هذه الليلة. وكما حدث لكثير من الناس الذين قرأوا الإنجيل، أدرك لأول مرة فى حياته المعنى الكامل للكلمات التى قرأها مرات عديدة من قبل، وكما تتشرَّب الإسفنجة الماء تشرِّب هو من كل الإعلانات الحيوية الهامة المفرحة التى أعلنها له هذه الكتاب. وبدأ كل ما قرأه وكأنه مألوف لديه، جسَّد أمامه ما كان يعرف من قبل بدون أن يفهمه، أو ما كان يؤمن به لكنه الآن عرف معناه، فقال لنفسه: تقول موعظة الجبل: «أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره، وهذه كلها تُزداد لكم». أما نحن، فنطلب كل هذه الأشياء التى «تُزاد لنا»، ويبدو أننا فشلنا فى الحصول عليها. لقد أصبحت هذه الأشياء الشغل الشاغل لحياتى، وكلما حصلت على شئ منها أريد أن أحصل على المزيد»...

فى تلك الليلة بدأ «نيكولودوف» حياة جديدة، لا لأن الظروف تغيرت وأصبح ظروفاً جديدة، لكن لأن كل ما حدث له من هذا الوقت فصاعداً كان مستمداً من معان جديدة مختلفة. أما كيف سينتهى هذا الفصل الجديد من حياته، فهذا ما سيتضح فى المستقبل.(١)

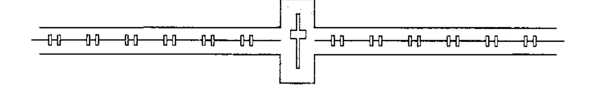
لقد جسَّد «تولستوى» فى نفسه التوتر بين المثاليات والواقع، لأنه من جانب كان مقتنعاً بأن طاعة الموعظة على الجبل «أمر ممكن الحدوث»، لكن من الجانب الآخر كان دوره فى المسرحية يفيد الاعتقاد أن الحقيقة بعيدة تماماً عن مثل هذه التصورات، فمقاييس الموعظة يمكن أن يصل إليها كل إنسان، لكنها فى الوقت نفسه بعيدة المنال عن أى إنسان. فإذا قلنا إنها مستحيلة التطبيق لأى إنسان، يكون المعنى أننا نجهل غرض عظة المسيح. ولكنا إن قلنا إنها فى متناول أى

---

(١) Tolostoy, *A Confession, The Gospel in Prief and What i believe,* (1883-1884: Tr. By Aylmer Maude, Oxford University press, 1940).

إنسان، فهذا معناه أننا نجعل خطية الإنسان. غير أنه يمكن الوصول إلى مقاييس «الموعظة على الجبل» للذين يختبرون الولادة الثانية، التى كلَّم المسيح نيقوديموس عنها (يو ٣)، وهى الشرط الذى بدونه لا يقدر أحد أن يرى أو يدخل ملكوت الله، فالبر المذكور فى الموعظة على الجبل هو بر داخلى. وبالرغم من أن هذا البر يعبِّر عنه نفسه فى كلمات وأعمال وعلاقات، إلا أنه بر داخلى فى القلب. والأمر الجوهرى هو ما يفكر به الإنسان وما يثبِّت عليه قلبه (مت ٥:٢٨ و٦:٢١). وهنا نرى أيضاً مشكلة، فالإنسان بالطبيعة «شرير» (مت ٧:١١)، ومن الداخل من قلوب الناس، تخرج الأفكار الشريرة (مر ٧:٢١-٣١)، ومن فضلة القلب يتكلم الفم، كما أن الثمرة تحدد نوعية الشجرة سواء صالحة أو رديئة، فلا يوجد إلا حل واحد: «اجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيداً» (مت ٧:١٦-٢٠ و١٢:٣٣-٣٧). إن الولادة الجديدة أمر حتمى.

ومن خلال إيماننا بحتمية الميلاد الثانى، نستطيع أن نحفظ أنفسنا ونحن نقرأ «الموعظة على الجبل» من التفاؤل الأحمق أو من اليأس القاتل. لقد قدم المسيح « الموعظة » لتلاميذه الذى صاروا مواطني ملكوت الله، وصاروا أبناء فى عائلة الله (مت ٥:١٦، ٤٨ و٦:٩، ٣٢، ٣٣، و٧:١١). والمقاييس السامية التى وصفها الرب لا تناسب إلا هؤلاء، ونحن لا نستطيع أن نصل إلى هذا المركز السامى (أن نكون أولاد الله) من خلال محاولتنا الوصول إلى مقاييس المسيح السامية، لكن ببلوغنا هذه المقاييس، أو على الأقل بالاقتراب منها؛ نقدم دليلاً على نعمة الله المجانية التى تهب لنا نصرنا كأبناء لله.



الباب الأول

صفات المسيحي: التطويبات

[أصحاح ٥ : ٣ ـ ١٢]

«طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السموات. طوبى للحزانى لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء، لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر، لأنهم يُشبعون. طوبى للرحماء، لأنهم يُرحمون. طوبى للأنقياء القلب، لأنهم يعاينون الله، طوبى لصانعى السلام، لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم إذا عيروكم وطردكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة، من أجلى، كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم».

لا شك أن أى شخص سمع عن المسيح وعرف أى شئ عن تعليمه يعرف عن التطويبات التى بدأ بها موعظته على الجبل، فبساطة كلماتها وغِنى معناها شدَّ انتباه أجيال كثيرة من المؤمنين وغير المؤمنين. وكلما أردنا أن نكتشف أكثر معانى هذه الكلمات، زاد شعورنا أننا أمام كنز عميق لا نستطيع أن نسير غوره، فهى غِنى لا يُستقصى، لا نستطيع أن نصل إلى عمقه «فنحن فى جو السماء (هنا) على الأرض»[١].

وقبل أن نستعد للتأمل فى كل تطويبة على حدة، هناك ثلاثة أسئلة عامة بخصوص التطويبات:

- من هم الأشخاص الموصوفون هنا؟
- ما هى صفات المطوبيين؟
- ما هى البركات التى وُعدوا بها؟

أ- ما هم الأشخاص الموصوفون هنا؟

تضع التطويبات أمامنا صفات المؤمنين المتزنة والمتعددة، فهى لا تصف ثمانية أنواع مختلفة من المؤمنين، يتَّصف بعضهم بالوداعة، وآخرون بالرحمة، وغيرهم بتحمُّل الاضطهادات. لكنها تصف مجموعة واحدة من الناس تتَّصف بمسكنة الروح والوداعة،

(١) مرجع سابق، Bruce P.95

اوالرحمة، ونقاء لقلب، والجوع والعطش إلى البر، وصنع السلام، وقبول الاضطهاد.

وهذه هى ليست مجموعة مختارة من نخبة روحية متميزة من جمهور المؤمنين، بل على العكس، فهذه التطويبات تمثل فكر المسيح الخاص لما ينبغى أن يكون عليه كل مؤمن.. فكل هذه الصفات تميِّز كل واحد من أتباع المسيح.. وكما أن ثمر الروح يحوى تسع صفات متكاملة ومتلازمة، تحدَّث عنها الرسول بولس (غل ٥:٢٢ ، ٢٣)، ينبغى أن تظهر وتنمو فى كل مؤمن؛ هكذا فإن هذا التطويبات الثماني تصف تصوُّر المسيح لكل مواطن فى ملكوت الله. وهذا يختلف تماماً عن عطايا أو مواهب الروح القدس المختلفة التى يعطيها الله لكل عضو فى جسد المسيح؛ كل واحد بحسب ما قسَّمه الروح له ليهيئهم للمشاركة فى الخدمات المتعددة. وهذا الروح نفسه يعمل فينا جميعاً، لإظهار هذه التطويبات فى حياتنا. وكل مؤمن مسئول أن يتوق إلى توافر ونمو هذه الصفات فيه.

ب- ما هي صفات المطوبين؟

من المعروف أن هناك على الأقل فرقاً لفظياً بين التطويبات فى إنجيل متى، وتلك التى فى إنجيل لوقا (لو ٦:٢٠-٢٦)، يكتب: «طوباكم أيها المساكين»، لكن متى يكتب «طوبى للمساكين بالروح». لوقا يكتب: «طوباكم أيها الجياع الآن»، لكن متى يكتب «طوبى للجياع والعطاش إلى البر». ولهذا قال البعض إن لوقا قدم ما قاله المسيح فعلاً فى موعظته على الجبل، لأن للمسيح نظرة اجتماعية، رأى فيها الفقراء والجياع فى حالة من البؤس، فوعدهم بالغنى فى ملكوت الله. إلا أن متى تناول هذه الأمور المادية البحتة من جانب روحى، لم يكن المسيح يقصده.

وهذا التفسير خطأ، إلا إذا كنا على استعداد أن نقول أن المسيح يناقض نفسه، أو أن أصحاب هذا التفسير تعوزهم الحكمة والفهم حتى أنهم يصوِّرون المسيح بمثل هذه الصورة. فإذا رجعنا إلى (مت ٤) ورأينا المسيح فى البرية يتجرَّب من إبليس، نراه يرفض أن يحوِّل الحجارة إلى خبز، ويرفض فكرة تأسيس ملكوت مادى. وخلال خدمته الجهارية، رفض باستمرار مثل هذه التجربة. فبعد أن أشبع الخمسة آلاف، أراد الناس أن يخطفون ويجعلون ملكاً، لكنه انصرف بعيداً عنهم إلى الجبل وحده (يو ٦:١٥). وعندما سأله بيلاطس عن طموحاته السياسية؛ أجابه بوضوح: «مملكتى ليست من هذا العالم» (يو ١٨:٣٦)، أى أنها مملكة من مصدر مختلف، ولها صفات مختلفة.

وبالطبع ليس معنى هذا أن المسيح كان يتجاهل الفقراء والجياع. فقد تحنن على المحتاجين، وأشبع الجياع، وأوصى أتباعه أن يحذوا حذوه. غير أن بركات مملكته روحية لا مادية.

وأن كان المسيح لم يقدم إشباعاً فورياً لاحتياجات الفقراء والجياع، ولم يَعد بهذا في ملكوته، وهو في ذات الوقت يطوِّب الفقراء والجياع، فإن المقصود هنا هو أن الله أحياناً يستخدم الفقر كوسيلة للبركة الروحية، وأحياناً يكون الغنى معطلاً لها. لكن ليس معنى هذا أن الفقر شرط نوال البركة. وتخطئ الكنيسة عندما تستخدم أولى التطويبات إمّا لتغضّ النظر عن الفقر في المجتمع، أو لتدعو إلى الفقر التطوعي، أو إلى رفض امتلاك الممتلكات. **وقد يدعو المسيح البعض لحياة الفقر، لك هذه الدعوة غير واردة في التطويبات، فالفقر والجوع اللذان يشير إليهما المسيح في تطويباته هما بمثابة حالة روحية، فهو يوجّه كلامه «للمساكين بالروح» و«الجياع والعطاش إلى البر»**. ونستطيع أن نستنتج من هذا أن بقية الصفات التي تتحدث عنها التطويبات هي أيضاً صفات روحية. وإن كان صحيحاً أن الكلمة الأرامية التي استخدمها المسيح تعني «فقير ومسكين» - كما وردت في إنجيل لوقا، لكننا نجد في العهد القديم مجموعة من الناس دُعيت «مساكين إلى الله». ولا شك أن متى كان مُحقاً عندما ترجم هذه الكلمة إلى «مساكين بالروح»، لأن «المساكين» لم يكونوا على درجة كبيرة من الفقر كالمتدينين المقهورين المحتاجين المذُلين، لكنهم وضعوا إيمانهم ورجاءهم في الله.

ج- ما هي البركات وعدوا بها؟

ومقابل كل صفة يطلبها المسيح، يأتي الوعد «طوبى»، ومعناه: «سعادة» والكلمة اليونانية هنا (makarios) يمكن ترجمتها إلى «كم هو سعيد!»، كما ترجمتها ترجمة (JBP). ولقد أطلق كثيرون من المفسرين على هذه التطويبات عنوان: «وصفة المسيح للسعادة الإنسانية». ومن أروع ما كُتب في هذا الشأن، ما كتبه «إرنست م. ليجون» Ernest M. Ligon من قسم علم النفس في الكلية المتحدة في سكنكتدي - نيويورك، في كتابه «علم نفس الشخصية المسيحية»[1] الذي كتب مقدمته «هاري إمرسون فوسدك»، وبدأ يكتب تفسيراً للموعظة على الجبل من وجهة نظر الصحة العقلية، فقال: «إن أعظم خطأ يمكن أن يرتكبه الإنسان في تفسير هذه التطويبات هو أنه لا يلاحظ الكلمة الأولى فيها كلها: يا لسعادة!». وهو يرى أن التطويبات هي «نظرية المسيح للسعادة» فهي ليست مجرد ثمانية واجبات أخلاقية، لكنها سلسلة اتجاهات عاطفية جوهرية. ولو تفاعل الإنسان مع الظروف التي من حوله بروح هذه التطويبات، «ستجعله يحيا سعيداً»[1]،

(١) Ernest . Ligon. The Psychology of Christian Personality. (Macmillan 1966), P. 89.

لأنه سيكتشف فيها «دستور الصحة النفسية»[1] ثم يقول «د. ليجون» أيضاً إن الموعظة على الجبل تركز على «قُوى» الإيمان والمحبة: «الإيمان الاختيارى» و«المحبة الأبوية»، ولا يمكن الاستغناء عن هاتين القاعدتين لخلق «شخصية قوية سليمة». لأن هذه التطويبات تقهر هواجس الخوف من خلال الإيمان، وتقهر الغضب المدمر من خلال المحبة، وتقهر الإحساس بالدونية وما يسبِّبه من مشاكل رهيبة.

ولسنا بحاجة لنرفض مثل هذا التفسير، كما لو كان تفسيراً شيطانياً، فليس أفضل من الخالق يعرف كيف نصبح ذوى إنسانية حقيقية. لقدخلقنا هو، ويعرف كيف يستطيع أن نعمل بأفضل أسلوب، وبطاعتنا لقوانينه الأخلاقية نستطيع أن نجد أنفسنا ويُشبع ذواتنا. ويشهد كل المؤمنين باختباراتهم الواقعية أن هناك علاقة وثيقة بين القداسة والسعادة.

إلا أنه من الخطأ أن تُترجم كلمة «طوبى» إلى «سعادة»، لأن السعادة «حالة شعورية شخصية»، بينما يقدم لنا المسيح «حالة موضوعية». فهو لا يوضح فى التطويبات ما قد يشعر به المومنين، مثل «السعادة» لكنه يوضح ما يراه الله فيهم من صفات تجعلهم «سعداء أو مباركين».

فما هى إذاً هذه البركات الموعودة؟

فى النصف الثانى من كل تطويبة نرى بركة. فلهم ملكوت السموات، ولهم ميراث الأرض، وللحزانى العزاء، وللجياع الشبع، وهم يُرحَمون ويعاينون الله، ويُدعون أبناء الله. إن بركاتهم السماوية عظيمة، ومرتبطة معاً. وكما أن الثمانى صفات تصف كل مؤمن (على الأقل فى حالته المثالية)، هكذا البركات الثمانى موهوبة لكل مؤمن.

وإن كنا نرى أن كل بركة موعودة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالصفة المذكورة، إلا أنه من المستحيل أن نرث ملكوت السماوات بدون أن نرث الأرض، أو أن نتعزى بدون أن نشبع، أو أن نرى الله دون أن نُرحم أو نُدعى أبناءه والصفات الثمانى مجتمعة تمثل المسؤولية، والبركات الثمانى تمثل الامتياز. فعندما تكون مواطناً فى مملكة الله تتمتع بقوانين الله.

ولكن... هل نتمتع بهذه البركات فى الحاضر أم فى المستقبل؟

أنا أعتقد أن الاثنين معاً. إلا أن بعض المفسرين فسروا هذه البركات كأنها بركات مستقبلية. وبالطبع، فالجزء الثانى من التطويبة الأخيرة يَعِد المضطهَدين بمكانة عظيمة فى السماء،

(١) المرجع السابق، ص ٢٧

(٢) المرجع السابق، ص ٩١

وهذا سيتحقق فى المستقبل (عدد ١١) . وبالتأكيد أن فى التطويبتين الأولى والثانية بركتين يُعبَّر عنهما فى زمن المضارع «لهم ملكوت السموات» (العددان ٣ ، ١٠) . والتطويبات الست الباقية كان الوعد فيها زمن المستقبل القريب .

ومن الواضح من بقية تعليم المسيح عن ملكوت الله أنه حقيقة حاضرة، يمكن أن نأخذها ونرثه وندخله الآن . وبالمثل نستطيع أن نحصل على الرحمة والتعزية (الآن)، ونستطيع أن نكون من أولاد الله (الآن)، و(فى هذه الحياة) نستطيع أن نشبع جوعنا وأن نروى عطشنا . فقد وعد المسيح أتباعه بهذه البركات (هنا) و(الآن) .

والوعد «لأنهم يعاينون الله» . (وتُترجَم أحياناً لأنهم سوف يعاينون الله) قد يبدو إشارة إلى رؤية الرب عياناً فى النهاية (١كو١٣ :١٢ وعب١٢ :١٤ و١يو٣ :٢ ورؤ٢٢ :٤) . ولا شك أن هذا الوعد يصدق على النهاية، لكننا قد رأينا الله فى هذه الحياة فى شخص المسيح (يو١٣ :٩)، وبعبوديتنا الروحية (١يو٣ :٦و٣يو١١) . وقد بدأنا «نرث الأرض» (فى هذه الحياة)، لأنه إن كنا ملكاً للمسيح فكل ما له هو لنا «أم العالم أم الحياة أم الموت أم الأشياء الحاضرة أم المستقبلة . كل شئ لكم . وأما أنتم فللمسيح والمسيح لله» (١كو٣ :٢٢ ، ٢٣) .

ولهذا، فإن وعود الموعظة على الجبل تتم (هنا)، وتتم فى (المستقبل) أيضاً، فنتمتع بباكورة الحصاد (الآن)، وبكمال الحصاد فى (المستقبل) . وكما قال البرفيسور «تاسكر Tasker» «يعبِّر الفعل المضارع عن تأكيد الوعد، وليس فقط إتمامه فى المستقبل . فالحزين سوف يتعزى هنا»[١] .

هذا يأتى بنا إلى سؤال آخر حول «البركات» التى وعد بها المسيح، وهو يثير مشكلة لا يمكن أن نتجنبها .. ألا تعلمنا التطويبات أن الخلاص يتم بواسطة المجهود البشرى والأعمال الصالحة الأمر الذى يتناقض مع جوهر الإنجيل؟ ألم يُقل المسيح إن الرحماء سيُرحمون، وإن أنقياء القلب سيعاينون الله؟ ألا يُفهم من هذا أننا بإظهارالرحمة ننال الرحمة، وبنقاوتنا سنعاين الله؟

لقد أصرَّ بعض المفسرين على هذه الأفكار، وحاولوا أن يُظهروا الموعظة على الجبل كترجمة مسيحية لشريعة العهد القديم والمبادئ اليهودية، ورأوا فى المسيح مجرد معلم يهودى، وقال إنه سنَّ شرائع ووصايا لتُطاع فينال الخلاص كل من يطيعها . وكان «هانز وندش Hans Windish» أكثر من نبَّر على هذا الفكر فى كتابه «معنى الموعظة على الجبل»، وركز فيه على «التفسير التاريخى»، ورفض ما يسمى «بالتفسير البولسى»، لأنه أراد أن يفسر الموعظة على الجبل بطريقة تناقض إنجيل

(١) R. V. G. Tasker, *The Gospel According to St. Mathew, Tyndale New* Testament commentary; IVP, 1961), P. 61.

النعمة الذى وعظ به بولس لذلك يقول: «من وجهة نظر بولس ولوثر وكلفن يكون تعليم الخلاص بحسب ما جاء فى الموعظة على الجبل هرطوقياً تماماً»(١). وهو يعنى أن موعظة الجبل تنادى بالناموس لا بالإنجيل وبالتبرير بالأعمال لا بالإيمان. ثم يقول «وندش»: «هناك فجوة كبيرة تفصل بين المسيح وبولس ولا يوجد مفسر لاهوتى يستطيع أن يبنى جسراً بينهما»(٢). وذهب «وندش» إلى أبعد من هذا بكثير، فقال: «إن تركيز الرب على مجانية الخلاص جعل الكثيرين يعتقدون أنه لا لزوم للأعمال الصالحة، وإن متى تعمَّد أن يسجل الموعظة على الجبل كنوع من التعليم المناقض لخط بولس التعليمى»(٣).

وقاد الخوف من أن موعظة الجبل تعتمد على المجهود البشرى لطاعتها «ج. ن. درابى J. N. Darby» ليقول إن تطبيق تعاليم الموعظة أمر مستقبلى يتم فى «زمن المُلك». وتزعَّم داربى تعليم التدابير، واقتبسه «سكوفيل» ونشره فى ترجمته للكتاب المقدس (عام ١٩٠٩)، وأطلق على موعظة الجبل «الشريعة الألفية» (فى تعليقه على مت ٥:٢). ولو أنه قال إن مبادئ هذه الموعظة لها «تطبيقات أخلاقية جميلة للمؤمنين».

لكن نظرية «وندش» ومخاوف «التدبيريين»، يخلوان من الأساس الثابت، فالتطويبة الأولى تعلن عن الخلاص بالنعم لا بأعمال، لأنها تقدم ملكوت الله «للمساكين بالروح»، أى إلى أناس فى عوز روحى وليس لديهم ما يقدمونه من أعمال صالحة. ويستطيع القارئ أن يدرك مدى غضَب «مارتن لوثر Luther» عندما رفض فكر أهل عصره الذين كانوا ينادون بأن الموعظة على الجبل تعلِّم أن الخلاص بالأعمال، فكتب عشر صفحات فى تفسيره ينتقد فيها هذه الفكرة المريعة الهدامة، عنَّف فيها من دعاهم «المبشرين الحمقى»، الذى «بشروا بأننا ندخل ملكوت السموات ونخلُص بواسطة أعمالنا»(٤) ثم كتب «هؤلاء الكذابون المكروهون قلبوا تعليم الإنجيل، ووصل بهم الأمر أن يهدموا البيت على من فيه. لقد قلبوا الأساسات، وبنوا الخالص على أساس وهمى، وأنزلوا المسيح من على عرشه ليضعوا أعماله مكانهم»(٥)

---

(١) Hans Windish, *The Meaning of the Sermon on the Mountain*, (TR. Eng. Westminster, 1941) P.6.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٩٦.

(٤) M. Luther, The Sermon on the Mount, (TR. By Jaroslav Pelikan; in Vol. 31 of Luther's Works, Concordia 1956) P. 285.

(٥) المرجع السابق ـ ص ٢٨٨.

فكيف نفسر كلمات المسيح فى التطويبات، ونحن ندرك أن كل تركيزه فى هذه الموعظة كان عن البر؟!

الإجابة الصحيحة نجدها لو أدركنا أن هذه الموعظة «ناموس جديد» مثلها مثل ناموس العهد القديم، كان لها غرضان إلهيان تحدَّث عنهما «لوثر».

أولاً، أنها توضح أن الإنسان لا يقدر أن يُرضى الله بمجهوده الشخصى، لأنه لا يستطيع أن يطيع الناموس. وهذا يوجِّهه إلى المسيح ليبرِّره.

ثانيا، إنها توضح للمؤمن الذى تبرر بالإيمان بالمسيح كيفية الحياة التى تُرضى الله. ويمكن تلخيص هذا بالقول: (إن الناموس يرسلنا إلى المسيح لنتبرر، ويرسلنا المسيح إلى الناموس لنتقدس).

ولا شك أن الموعظة على الجبل تركت هذا الأثر على كثيرين، وكلما قرأوها أصيبوا بنوع من الإحباط، لأنهم يجدون فيها مثليات لا يمكن الوصول إليها، فيسألون: «كيف يمكن أن أنمى داخلى براً قلبياً يجعلنى أحوِّل خدى الآخر لضاربى، وأحب أعدائى؟! هذا مستحيل!» ومن هذا المنطلق وصف «لوثر» الموعظة على الجبل بأنها أربعة أضعاف شريعة موسى، لأنها ناموس للبر الداخلى الذى لا يستطيع أن يطيعه أى إنسان. فهى تُديننا، وتقنعنا باحتياجنا إلى غفران المسيح. وهذا جزء من غرض الموعظة. صحيح إن المسيح لم يقل هذا بحصر اللفظ إلا فى التطويبة الأولى - كما سبق وذكرنا، لكن المضمون موجود من خلال الناموس الجديد كما كان فى القديم.

ولقد أوضح «لوثر» الغرض الثانى للموعظة فقال: «لم يقل المسيح أى شئ فى هذه الموعظة عن كيف تصبح مؤمناً، لكنه تحدث عن العمل والثمر الذى لا يمكن أن يأتيه أحد إلا المؤمن، وبواسطة نعمة الله»(١).

وقال القديسان «أغسطينوس» و«يوحنا فم الذهب» إن كل الموعظة على الجبل تستلزم قبول الإنجيل أولاً، واختبار الخلاص والميلاد الثانى وسكنى الروح القدس. فهى تصف المؤمنين المولودين ثانية، أو الذى يجب أن يولدوا من فوق. وهكذا تضع التطويبات أمامنا البركات التى يهبها لنا الله، لا جزاءً لأعمالنا الصالحة، بل كعطية نعمة الله الصالحة للذين يعمل فيهم لخلق هذه الصفات.

وقد أشار البروفيسور «إرميا» Jermias إلى كلام «لوثر» عن (نظرية المثالية المستحيلة)، وقال إنه «المعتقد اللوثرى المستقيم Lutheran orthodoxdy»(٢). ثم قال إن الموعظة استُخدمت

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٩١

(٢) مرجع سابق، Jeremias P. 13

أساساً لتعليم «أصول المسيحية من خلال الحوار»، ولهذا فهى تفترض أن سامعيها كانوا مؤمنين، سبق أن سمعوا الإنجيل وتابوا وامتلأوا بقوته... فالموعظة على الجبل موجَّهة إلى أناسٍ سبق أن نالوا الغفران، ووجدوا اللؤلؤة الكثيرة الثمن، وقبلوا الدعوة لحضور العرس، وبإيمانهمْ بالمسيح أصبحوا خليقة جديدة ينتمون إى مملكة الله الجديدة... ومن هنا المفهوم، نرى أن الموعظة على الجبل ليست ناموساً بل إنجيلاً... إن الفرق بين الاثنين واضح وينبغى أن نتجنب استخدام أقوالاً مثل (الأخلاق المسيحية) ونتكلم بدلاً منها عن «الإيمان المعاش» أو «سلوك الإيمان». لأنه «من الواضح أن عطية الله تسبق وصاياه»[١]

ولقد أوضح البروفسور «أ.م. هنتر A. M. Hunter» هذه الكلمات فى حديثه عن العهد الجديد ككل، فقال: «يقول العهد الجديد إن رسالة الكنيسة الأولى كانت دائماً تحتوى على شقين: الأول لاهوتى، والثاني أخلاقي عملي. الأول: يحوى الإنجيل (الخبر السار) الذى كان يبشر به الرسل، والثانى يحوى الوصايا النابعة من الإنجيل التى كان الرسل يعلِّمون بها كل الذين قبلوا الإنجيل. فالإنجيل يعلن ما فعله الله للإنسان بواسطة المسيح، لكن الوصايا توضح ما يطلبه الله من الذين أصبحوا موضوع عمل نعمته»[٢]. ولقد كان الرسول بولس عادة يقسم رسائله إلى جزءين: الأول تعليمى، والثانى عملى. ثم يقول «أ.م. هنتر»: «لقد كان بولس بهذا الأسلوب يسير فى كتاباته على ذات المنوال الذى سبق أن سار عليه المسيح، فالمسيح لم يعلن فقط أن ملكوت الله جاء من خلاله ومن خلال عمله، لكنه أيضاً أعلن أمام تلاميذه المثاليات الأخلاقية لهذا الملكوت. وهذا هو الأسلوب المثالى الذى استخدم فى الموعظة على الجبل»[٣].

ولنلخص معاً ما سبق وذكرناه عن الأمور الثلاثة المختلفة الخاصة بالتطويبات، فنرى أن الذين يصفهم المسيح هم بصفة عامة تلاميذه، على الأقل في مثالياتهم، وأن الصفات المطلوبة منهم هى صفات روحية، وأن البركات التى وُعدوا بها هى عطية مجانية لا يستحقونها، فهى بركات مجد ملكوت الله، يتذوقون جزءاً منها كلها في هذا العالم، ويكملون الاستمتاع بها في الأبدية، وهى تشمل ميراث السماء والأرض، والراحة، والشبع، والرحمة، ومعاينة الله، والبنوية له.

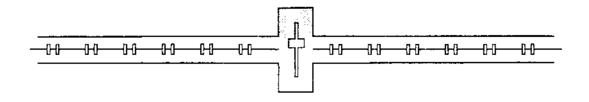
---

(١) مرجع سابق، Jeremias P24,30,32

(٢) A. M. Hunter, Design for life: *an exposition of the Sermon on the Mount* (SGM, 1935, Revised edition 1955) P. 110.

(٣) المرجع السابق، ص ١١٠، ١١١

ونحن نستعد لنتأمل التطويبات بشئ من التفاصيل. نراها لم تأتِ بطريقة عشوائية، بل كما قال القديس «يوحنا فم الذهب» إنها (عقد ذهبى)[١]. وربما كان أبسط تقسيم للتطويبات أن الأربع الأولى منها تصف علاقة المؤمن بالله، والأربع الثانية تحدد علاقاته وواجباته تجاه الآخرين.



(١) John Chrysostom, *Homilies on the Gospel st. Mathew, Part I* (n.d: tr. By George Prevost, Oxford, 1843) pp. 110, 111

١ـ المساكين بالروح
(٥ : ٣)

قلنا إننا نستطيع أن نجد فى العهد القديم خلفية تساعدنا على تفسير التطويبة الأولى، «فالمسكين» هو المحتاج مادياً. وهو لن يجد ملجأ إلا فى الله (صف ٣ :١٢) . وهكذا فللفقر معنى روحى آخر هو الاعتماد باتضَّاع على الله. ويصف المرنم نفسه بأنه «مسكين» فيقول: «هذا المسكين صرخ والرب استمعه ومن كل ضيقاته خلَّصه» (مز ٣٤ :٦) . والمسكين فى العهد القديم هو المقهور العاجز عن إنقاذ نفسه، فيلجأ إلى الله طالباً الخلاص، مدركاً أنه لا يستحقه. ويقول النبي إشعياء عن هذا النوع من المسكنة الروحية: «البائسون والمساكين طالبون ماءً ولا يوجد لسانهم من العطش قد يبس» . فيعدهم الله: «أفتح على الهضاب أنهاراً وفى وسط البقاع ينابيع. أجعل الفقر أجمة ماء والأرض اليابسة مفاجر مياه» (إش ٤١ :١٧ :١٨) . ويُوصف «المساكين» أيضاً بأنهم شعب «منسحق ومتواضع الروح»، وينظر الله لمثل هؤلاء ويرضى أن يسكن معهم، مع أنه «العلى المرتفع ساكن الأبد القدوس اسمه» (إش ٥٧ :١٥ و٦٦ : ١، ٢) .

ولِمثل هؤلاء أعلن المسيح بُشرى الخلاص المفرحة فى مجمع الناصرة: «روح السيد الرب علىَّ لأنه قد مسحنى لأبشر المساكين أرسلنى لأشفى منكسرى القلوب» (إش ٦١ : ١ ولو ٤ :١٨ ومت ١١ :٥) .. ثم أن الغنى يميل إلى أخذ موقف وسط مع الوثنية المحيطة به، بينما يستمر المسكين أميناً لله، فالغنى والعالمية يسيران معاً، والفقر والتقوى يسيران معاً.

فلكى تكون مسكيناً بالروح، يجب أن تقرَّ بعجزك وفقرك وإفلاسك الروحى أمام الله، لأنه كلنا خطاة واقعين تحت غضب الله المقدس، ولا نستحق إلا دينونته، ولا يوجد لدينا شئ نقدمه أو ندافع به عن أنفسنا، أو نشترى به رضى السماء.

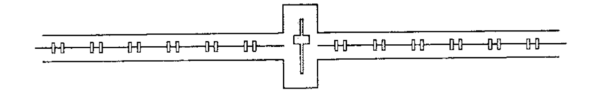
ولن تجد لنفسك قبولاً أمام الله، إلا إن وضعت نفسك مكان العشار الذى ضرب به المسيح المثل، وقُلت وعيناك إلى التراب: «اللهم ارحمنى أنا الخاطئ» . وكما كتب «جون كلفن Calvin» : «المسكين بالروح هو الذى يدرك أنه لا شئ فى ذاته، ويعتمد تماماً على رحمة الله»[١] .

(١) مرجع سابق، Calvin, P. 361

ولمثل هؤلاء فقط، يُعطى ملكوت الله، لأن خلاص الله هبة مجانية لا ينالها أحد إطلاقاً باستحقاقه، بل يقبلها الإنسان بالاتكال والاتضاع الكاملين أمام الله مثل الأطفال. وهكذا ففى بداية الموعظة على الجبل، رفض المسيح كل توقعات اليهود أنهم ينالون الملكوت على أساس عرقى، فالملكوت يُمنح للمساكين - لا للأغنياء، وللضعفاء - لا للجبابرة، وللطفل الصغير المتَّضع الذى يقبله وهو يدرك عجزه - لا للجندى المفتخر بأنه يستطيع أن يناله بقوته. وفى أيام المسيح، لم يدخل الملكوت الفريسيون الذين ظنوا أنهم أغنياء بأعمالهم، حتى أنهم كانوا يشكرون الله على ما وصلوا إليه. ولمد يدخله «الغيّورون» الذين كانوا يحملون بتأسيس ملكوت بالسيف والدم.. لكن دخله العشارون والزناة والمنبوذون من المجتمع، لأنهم أدركوا فقرهم وعجزهم عن أن يقدموا شيئاً، وكان كل ما فى استطاعتهم أن يعملون أن يصرخوا لله طلباً للرحمة، وهم سيسمع صراخهم.

ولعل أفضل مثال ينطبق على هذا التعليم هو الكنيسة الإسمية «كنيسة لاودكية»، التى بعث المسيح لملاكها خطاباً يقول فيه: «أنت تقول إنى غنى وقد استغنيت ولا حاجة لى إلى شئ. ولست تعلم أنك أنت الشقى والبائس وفقير وأعمى وعريان» (رؤ ٣:١٧). هذه الكنيسة المرئية، بالرغم من اعترافها الإسمى بالمسيحية، لم تكن كنيسة حقيقية، بل كانت حسب كلام المسيح كنيسة مكتفية وسطحية، فكانت عريانه وعمياء وفقيرة. لكن الأمر المفزع أنها لم تعترف بهذا، لأنها كانت غنية بالمال لا مسكينة بالروح.

ومازال شرط المسكنة بالروح ضرورياً لقبول ملكوت الله. ومازال الله يصرف الأغنياء فارغين (لو ١:٥٣) وكم عبَّر سبرجين Spergeon: «لكى نرتفع ونحلِّق فى اتجاه الملكوت يجب أن ننخفض ونُغرق ذواتنا».



٢ـ الحـزانـي
(٥ : ٤)

يمكن أن نترجم هذه التطويبة بالقول: «ما أسعد غير السعداء!»، لكي نلفت الأنظار إلى ما يبدو تناقضاً مفزعاً في هذه الآية. فما هي نوعية الأحزان التي نشعر بها، حتى نحصل على أفراح بركات المسيح؟

واضح من القرينة أن المسيح يقدم الوعد بالعزاء في هذه التطويبة، ليس للذين فقدوا عزيزاً لديهم، لكن للذين فقدوا براءتهم، وبرهم، واحترامهم. إنه ليس الحزن الناتج عن الألم، لكنه التوبة.

وهنا نجد الخطوة الثانية للحصول على البركات الروحية. **فالمسكنة بالروح والاعتراف بها شيئ، والحزن والنواح على هذا شيئ آخر، أو بلغة لاهوتية: الاعتراف شيئ والندم وانكسار القلب شيئ آخر.**

لكن علينا أن ندرك أن الحياة المسيحية، طبقاً لفكر المسيح، ليست كلها فرحاً وضحكاً. ويتخيل بعض المؤمنين (خاصة إن كانوا مملوئين من الروح القدس) أنهم يجب أن يلبسوا أقنعة ضاحكة، وأن تكون لهم ابتسامة دائمة، وأن يعيشوا حياة مليئة بالصخب. ولكن هذه الموعظة (طبقاً لما كتبه لوقا البشير) تحوي تحذيراً يقول: «ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون» (لو ٦ :٢٥)، وهذا يدل على أنه يوجد ما يُسمى «البكاء المسيحي»، وقليلون يبكون حقاً.

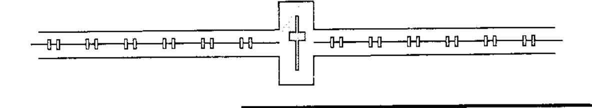
لقد بكى المسيح على خطايا الآخرين، وعلى مصيرهم المرير في الدينونة والموت، كما بكى على المدينة القاسية التي لم تقبله... وهو يدعونا هنا لنبكي كثيراً على خطايا العالم، كما فعل الأتقياء في كل العصور: قال إرميا المعروف بالنبي الباكي: «ياليت رأسي ماء وعينيَّ ينبوع دموع» (إر ٩ :١). وقال المرنم لله: «جداول مياه جرت من عينيَّ لأنهم لم يحفظوا شريعتك» (إر ١١٩ :١٣٦). وسمع النبي حزقيال الأمناء يبكون على الرجاسات المرتكبة في أورشليم (حز ٩ :٤). وكتب بولس عن المعلمين الكذبة الذين كانوا يزعجون الكنيسة في أيامه، يقول: «كثيرون يسيرون ممن كنت أذكرهم لكم مراراً والآن أذكرهم أيضاً باكياً وهم أعداء صليب المسيح» (في ٣ :١٨).

وليس المطلوب أن نبكى على خطايا الآخرين فحسب، بل نبكى على خطايانا. ألم تحزّنا خطايانا من قبل؟! هل بالغ «كرانمر» عندما طلب فى خدمة العشاء الربانى (فى عام ١٦٦٢) أن يردد الشعب معه القول: «نعترف وننتحب على خطايانا وآثامنا الكثيرة» ؟! وهل أخطأ «عزرا» عندما صلى واعترف وهو باكٍ وساقطٌ أمام بيت الله؟ (عز ١٠: ١) . وهل أخطأ بولس عندما ناح وقال: «ويحى أنا الإنسان الشقى! من ينقذى من جسد هذا الموت؟» (رو ٧: ٢٤)، أو عندما كتب للكنيسة المخطئة فى كورنثوس يقول: «أفأنتم منتفخون، وبالحرى لم تنوحوا حتى يُرفع من وسطكم الذى فعل هذا الفعل» (١كو ٥: ٢، ٢كو ١٢: ٢١) .

لا أعتقد أن كل هؤلاء أخطأوا. وإنى أشعر أن المؤمنين الذى ينبِّرون كثيراً على النعمة، يستخفون بالخطية ويستهينون بها، ولا يحزنون عليها حزناً كافياً. وأعتقد أننا يجب أن نختبر أكثر ما نسميه «حزن التقوى» الذى ينشئ توبة لخلاص بلا ندامة (٢كو ٧: ١٠)، كما حزن المُرسَل «دافيد بريناراد» الذى بشَّر الهنود الحمر، وهو صاحب الضمير الحساس، فسجَّل فى مذكراته بتاريخ ١٨ أكتوبر عام ١٧٤٠ : «فى كل خلوة صباحية تذوب روحى فىَّ وأبكى بمرارة على كل ما فعلته من خطايا وآثام» . مثل هذه الدموع مياه مقدسة يحفظها الله فى زقَّ (مز ٥٦: ٨) .

هؤلاء الحزانى الذين ينوحون على خطاياهم، سيتعزّون . لكن العزاء الوحيد الذى سيخرجهم من حزنهم هو غفران الله المجانى لهم، فإن «أعظم عزاء هو إعلان الغفران لكل خاطئ تائب منتخب»[1] .

وقد تكلم أنبياء العهد القديم عن «العزاء» كعمل من أعمال المسيا، فهو المعزى، وهو الذى «يعصب منكسرى القلوب» (إش ٤٠: ١ و٦١: ١) . ولهذا قيل عن سمعان الشيخ إنه كان «ينتظر تعزية إسرائيل» (لو ٢: ٢٥) . ويسكب المسيح زيت نعمته على جروحنا، ويعزى بسلامه ضمائرنا المجروحة الممزقة، إلا أننا سنظل نبكى على خراب الموت والمعاناة الناتج عن الخطية والذى ينتشر فى العالم أجمع. ولا نتوقع عزاء المسيح الكامل، إلا فى حالة المجد الأبدية، حيث لن توجد خطية «ويمسح الله كل دمعة من عيونهم» (رؤ ٧: ١٧) .



(١) R.C. H. Lenski, *The interpretation of st., Mathew's Gospel,* (1943: Augsburg, 1964) p. 187.

٣ـ الودعاء
(٥ : ٥)

الكلمة اليونانية (Praus) التى تُرجمت «وديع» تعنى «متَّضع، وعاقل، ولطيف، ورفيق». وهذه الصفات لا يمكن أن تتحقق بدون ضبط النفس. وهى كلمة تجعلنا نفتكر المسيح الوديع، اللطيف، الهادئ. ولو أن البعض يرفضون أن يصفوا المسيح هكذا لأنه يصوِّر مسيحاً ضعيفاً. ولكنه هو وصف نفسه بأنه وديع ومتواضع القلب (مت ١١ :٢٩)، وتحدث الرسول بولس عن «وداعة المسيح وحلمه» (٢كو ١٠ :١ وزك ٩ :٩). لكن ما هى نوعية هذه الوداعة التى تضمن لصاحبها هذه البركة؟

من المهم أن ندرك أن التطويبات تضع الودعاء بين (الحزانى) و(الجياع والعطاش إلى البر). فالوداعة التى يطلبها المسيح من أتباعه لابد أن تتمشى مع هذا التدرج. وأعتقد أن «د. لويد جونز Dr., Lloyd - Jones» كان محقاً عندما ركز على أن الوداعة تتطلب فكراً متَّضعاً تجاه الآخرين، يحدده تقديرنا لأنفسنا. وقال إنه من السهل أن نكون أمناء مع أنفسنا أمام الله، ونعترف له بخطايانا، وأضاف: «كم يصعب علينا جداً أن نسمح للآخرين أن يقولوا مثل هذا عنا! فكلنا نفضِّل أن ندين أنفسنا على أن يديننا الآخرون»[١].

فإن طبّقنا هذا المبدأ على حياتنا اليومية، فأنا شخصياً سأكون سعيداً لو اعترفت أمام الكنيسة بصورة عامة وقلت عن نفسى إنى أنا «خاطئ تعيس». فهذا الاعتراف لن يسبِّب لى مشاكل كبيرة. لكن لنفترض أن أحد الأشخاص أتى إلىَّ بعد الكنيسة، وقال لى: «أنت خاطئ تعيس!» فربما وددت أن أصفعه على وجهه، لأنى لست مستعداً أن أسمح للآخرين أن يفكروا أو يتكلموا عنى بما اعترفتُ به أنا عن نفسى! وهنا نرى أساس الرياء الذى يحدث فى غياب الوداعة.

وقد لخص «لويد جونز» هذه بطريقة جميلة، عندما قال: «الوداعة أساساً هى نظرة صادقة للنفس تظهر فى فكرنا وسلوكنا تجاه الآخرين. والشخص الوديع هو الذى يتعجب من صورته

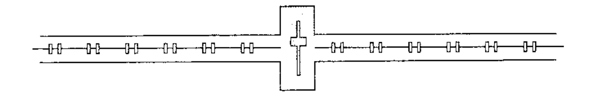
(١) D. Martyn Lloyed - Jones, *Studies in the Sermon on the Mount* (IVP: Vol. I, 1959, Vol. II 1960). P. 65

الجميلة أمام الله والناس ويتعجب من أنهم يعاملونه معاملة فاضلة!».(١) وهذا يجعل الوديع رقيقاً متواضعاً حساساً صبوراً فى كل معاملاته مع الآخرين.

وقد المسيح إن الودعاء سيرثون الأرض. وكنا نتوقع أن العكس سيحدث، لأننا نظن أن الودعاء لن يمتلكوا شيئاً، لأن الكل سيتجاهلونهم ويتسلَّقون على أكتافهم، بل سيسحقونهم بأقدامهم. ففى صراع البقاء، نجد أن القوى الخشن المتغطرس هو الذى يفوز، بينما يعيش الضعيف فى الذل، حتى أن بنى إسرائيل حاربوا ليأخذوا أرض الموعد، مع أن الله كان قد وعدهم بها. لكن المسيح يقول إننا سنمتلك ميراثنا الروحى - لا بالقوة، بل الوداعة، لأن كل شئ لنا إن كنا نحن للمسيح (١كو ٣:٢٢).

هى الثقة التى كانت رجال الله القديسين المتضعين فى العهد القديم، عندما يبدو أمامهم وكأن الأشرار ينتصرون. وهى صورة واضحة فى (مز ٣٧): «لا تغر من الأشرار ولا تحسد عمّال الإثم.. أما الودعاء فيرثون الأرض..لأن المباركين منه يرثون الأرض.. انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض» (مز ٣٧:١ ، ١١ ، ٢٢ ، ٣٤). **ومازال هذا المبدأ مُطبَّقاً في يومنا هذا، فالأشرار يفتخرون بقوتهم وسلطانهم، إلا أنهم في النهاية لا يمتكلون شيئاً. أما الودعاء فقد يُظلَمون ويُقهَرون، لكن لأنهم يدركون أنهم يحيون ويملكون مع المسيح، يستطيعون أن يتمتعوا بالأرض ويمتلكوها، فهى للمسيح. وذات يوم سيرثون «سماوات جديدة وأرضاً جديدة» (مت ١٩ :٢٨ ، ٢بط ٣ :١٣ ، رؤ ٢١ :١).**

إن طريق المسيح يختلف تماماً عن طريق العالم وكل مؤمن حتى وإن كان مثل بولس «لا يملك شيئاً» يستطيع أن يصف نفسه بأنه «يملك كل شئ» (٢كو ٦ :١٠) ولقد صدق «رودلف ستاير Rudolf Stier» عندما قال: «إنكار الذات هو طريق السيادة على العالم»(٢).



(١) المرجع السابق، ص ٦٨ ، ٦٩

(٢) Rudolf Stier, *The words of the Lord Jesus*, I. tr. By William B. Pope, 1855 (T. and T. clark 1874) p. 105

٤-الجياع والعطاش إلى البر
(٥ : ٦)

فى الترنيمة العظيمة التى تغنت بها القديسة العذراء مريم، جمعت ما بين المساكين بالروح والجياع إلى البر، وكلاهما نال الوعد بالبركة: «لأن الله أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين» (لو ١ :٥٣) . وهذا المبدأ العام يأخذ بُعداً خاصاً فى الموعظة على الجبل، فالجياع والعطاش الذين يُشبعهم الله هم «الجياع والعطاش إلى البر» . وهذا الجوع الروحى هو أحد صفات شعب الله الذى تتَّجه طموحاتهم السامية - لا إلى الماديات بل إلى الروحيات. فليس المؤمنون كالوثنين، غارقين فى جمع الثروة، لأنهم يطلبون أولاً ملكوت الله وبره (مت ٦ :٣٣) .

والبر فى كلمة الله له ثلاثة معان: قضائى، وأخلاقى، واجتماعى:

فالبر القضائى، هو ما نراه فى التبرير، أى العلاقة الصحيحة مع الله. ويقول الرسول بولس إن اليهود «سعوا فى طلب البر» لكنهم فشلوا فى الحصول عليه، لأنهم سعوا إليه بطريق خاطئ، فقد أرادوا أن «يثبتوا بر أنفسهم»، و«لم يخضعوا لبر الله» الذى هو المسيح نفسه (رو ٩ :٣٠-١٠ :٤) . وقال بعض المفسرين أن المسيح هنا نفسه (رو ٩ :٣٠-١٠ :٤) . وقال بعض المفسرين إن المسيح هنا كان يتكلم عن البر القضائى. لكن لا أظن أن هذا كان صحيحاً، لأنه كان يوجِّه خطابه إلى أناس ينتمون إليه.

والبر الأخلاقى، فهو الذى يُظهر فى الصفات والسلوك المَرْضيين عند الله. وبعد أن أنهى المسيح التطويبات قارن بين بر المؤمن وبر الفريسيين (عدد ٢٠) فبر الفريسيين بر الشكل الخارجى واتمام الطقوس، أما بر المؤمن فهو البر الداخلى فى القلب والفكر والدوافع. لهذا يجب أن نجوع ونعطش إلى البر.

والبر الإجتماعى، من الخطأ أن نفترض أن كلمة «بر Rightewousness» فى الكتاب المقدس تعنى فقط العلاقة السليمة مع الله، أو البر الأخلاقى الظاهر فى السلوك نحو الآخرين، لأن البر الكتابى أكبر من مجرد علاقة خاصة شخصية، فهو أيضاً بر اجتماعى كما يعلمنا الناموس والأنبياء. إنه أن نطلب تحرير الإنسان من الظلم والقهر، ونعلن حقوق الإنسان، ونطالب بالعدالة فى القضاء، والنزاهة فى العمل، والشرف فى البيت والأسرة. وعلى المؤمن أن يكون فى حالة جوع للبر فى المجتمع الإنسانى، لأن هذا سيُرضى الله البار.

وقد عبَّر «لوثر» عن هذا الرأى بقوته المعهودة، فقال: «لم يوصِك الرب أن تنزوى فى الصحراء، بل أن تخرج منها إن كنت فيها، وتقدِّم يديك ورجليك وكل جسدك، وتخاطر بكل ما تملك، وتقوم بكل ما تستطيع أن تعمله.. إن ما يعوزك هو أن تجوع وتعطش إلى البر، فلا تبحث عن شئ ولا تهتم بشئ إلا بإتمام الحق وحفظه، ورفض كل ما يعطل إتمام هذا الغرض. وإن كنت لا تستطيع أن تجعل العالم يؤمن، فعلى الأقل افعل ما بوسعك»[١].

ولا يوجد سر لنمو الحياة المسيحية، أعظم من الشهية الروحية السليمة النابعة من القلب. ويكرر الكتاب المقدس وعوده للجياع بالشبع، فالله هو الذى «أشبع نفساً مشتهية وملأ نفسه جائعة خبزاً» (مز ١٠٧ :٩). فهل نعرف لماذا نعانى من بطء نمونا الروحى؟! السبب هو أن شهيتنا مريضة، فلا يكفى أن ننوح على خطايا الماضى، لكن ينبغى أيضاً أن نجوع لبر المستقبل.

غير أن جوعنا لن يُشبع فى هذه الحياة ولن يُروى عطشنا تماماً. صحيح أننا ننال شبعاً. لكننا نعود بعده إلى الجوع.. لقد وعد المسيح أن من يشرب من الماء الذى يعطيه لن يعطش إلى الأبد، لكن هذا العطش لا يرتوى إلا باستمرارنا فى الشرب (يو ٤ :٣ ،١٤ و٧ :٣٧). فلنحترس من الذين يدَّعون أنهم قد أدركوا، والذين ينظرون إلى اختبار الماضى بدلاً من أن يركزوا على نمو المستقبل!

وكل الصفات المذكورة فى التطويبات، بما فيها الجوع والعطش صفات دائمة لتلاميذ المسيح. ولن نقدر أن نختبر «لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد»، إلا بعد أن نصل إلى السماء، لأنه حينئذ سيكون المسيح راعينا ويقتادنا إلى ينابيع ماء حية (رؤ ٧ :١٦، ١٧).

بل أكثر من هذا، أن الله وعد بيوم الدينونة الذى فيه سينتصر الحق ويُهزم الشر، وبعد ذلك ستكون هناك «سماوات جديدة وأرض جديدة يسكن فيها البر» (٢بط ٣ :١٣). ونحن ننتظر ونتوق لمثل هذا الإعلان الكامل للحق، ولن تخيب آمالنا.

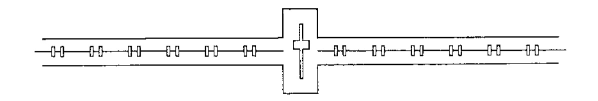
وللتلخيص: نقول إن التطويبات الأربع الأولى توضح لنا طريق التدرج الروحى، فالطريق أشبه بسلم نتسلقة درجاً وراء درج. فنجد البداية فى أن نكون «مساكين بالروح»، نعترف بعجزنا وافلاسنا الروحى المطلق أمام الله. ثم بعد ذلك «(حزن) على (الفقر الروحى)، الذى هو سبب هذه الحالة، لأننا خطاة، وخطيتنا ناتجة من طبيعتنا الفاسدة الساقطة. ونحزن أيضاً على مُلك الخطية والموت وسيادتهما على العالم. ثم الخطوة الثالثة، علينا أن نكون «ودعاء» متواضعين شفوقين على

---

(١) مرجع سابق، Luther, P. 27

الآخرين لنسمح لفقرنا الروحى (الذى نعترف به نائحين)، ليُشكِّل سلوكنا تجاه الآخرين وتجاه الله. ثم الخطوة الرابعة، ينبغى أن تكون لنا صفة «الجوع والعطش إلى البر». فما هى فائدة الاعتراف والبكاء على خطيتنا أمام الله والناس، إن لم نتركها؟! إن الاعتراف بالخطية يقودنا إلى الجوع للبر.

وفى الجزء الثانى من التطويبات (التطويبات الأربع الأخيرة)، تتحوَّل من تأمل موقفنا تجاه الله إلى تأمل موقفنا تجاه الناس، فالرحماء «يُظهرون الرحمة للبشر»، و«صانعوا السلام» يسعون لصلح الإنسان مع أخيه الإنسان. و«المضطهَدون» يضطهدهم البشر. **ويبدو أيضاً أن الإخلاص من خلال «القلب النقى» يتحكم فى موقفنا بل وعلاقاتنا بإخوتنا من البشر.**



٥ ـ الرحماء

(٥ : ٧)

إن «الرحمة» هى إظهار الشفقة للمحتاجين. وقد فرَّق «ريتشارد لينسكى Lenski» بينها وبين النعمة. فكلمة «رحمة» فى اليونانية (eleos) تتعلق دائماً بما نراه من ألم وبؤس وشقاء سبَّبته الخطية. لكن كلمة «نعمة» فى اليونانية (charis) تتعلق دائماً بالخطية والذنب فى حد ذاته. «فالرحمة تقدم معونةً بينما «النعمة» تقدم (تسامحاً). «الرحمة» تشفى وتساعد. لكن النعمة تطهر وتبرئ.[١]

ولم يحدد المسيح نوعية الناس الذين يجب على تلاميذه أن يُظهروا لهم الرحمة ولم يذكر إن كانوا هم المعرَّضين لمخاطر مثل المسافر من أورشليم إلى أريحا، الذى وقع بين لصوص، والذى أظهر السامرى الصالح له الرحمة.. أو إن كانوا هم المرضى والجياع والمطرودين الذين كان هو دائماً يغمرهم برحمته... أو إن كانوا هم المخطئين فى حقنا. فيصرخ «العدل» طالباً (العقاب)، بينما «الرحمة» تطلب (الغفران). لم تكن هناك حاجة أن يشرح المسيح من هم مستحقو الرحمة، فإن إلهنا رحوم، وأبناء الملكوت ينبغى أن يكونوا رحماء مثله.

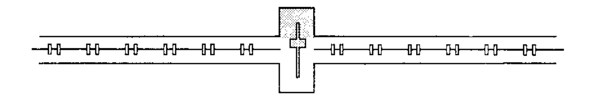
ويعيش مستحقو الرحمة فى عالم غير رحيم. بل كانت الكنيسة غير رحيمة فى أحيان كثيرة. عندما كانت تتشبَّه بالعالم، الذى يفضِّل أن يعزل نفسه عن الألم وعن نكبات الإنسان، ويتلذذ بالانتقام، ولا يجد طعماً للغفران. إلا الذين يزرعون الرحمة يحصدونها، فتقول ترجمة (NEB) هذه الآية: «طوبى للذين يُظهرون رحمة، لأن الرحمة ستُظهر ذاتها لهم». وهذا المبدأ موجود فى القول: «إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى» (مت ٦ :١٤).

وليس معنى هذا أننا نستحق الرحمة لأننا نرحم، أو نستحق الغفران لأننا نغفر، فنحن لا ننال رحمة الله وغفرانه إن لم نتب، ولا نستطيع أن ندَّعى أننا تُبنا عن خطايانا إن لم نكن رحماء تجاه خطايا الآخرين. فلا شئ يحركنا تجاه الغفران ـ إلا عندما نتيقن أنه قد غُفر لنا. ولا شئ يبرهن أننا نلنا الغفران، مثل استعدادنا للمغفرة للآخرين. **فغفراننا للآخرين ونوالنا الغفران أمران متلازمان، كما أن رحمتنا للآخرين ونوالنا الرحمة أمران متلازمان. وهذا ما أوضحه المسح في مَثل العبد الذى لم يرحم (مت ١٨ :٢١-٣٥).**

---

(١) مرجع السابق، Lenski, P. 191

وفى ضوء الموعظة على الجبل، نستطيع أن نرى أن الودعاء هم أيضاً «رحماء». **فلكى نكون ودعاء يجب أن نعترف للآخرين أننا خطاة. ولكى نكون رحماء، علينا أن نترفّق بالآخرين لأنهم هم أيضاً خطاة.**



٦ ـ أنقياء القلب

(٥ : ٨)

واضح أن كلمة «قلب» توضع نوع النقاء الذى كان المسيح يطلبه، كما أن كلمة «بالروح» تعنى نوع الفقر الذى كان يعنيه. و«المساكين بالروح» هم المساكين روحياً ـ لا مادياً. و«أنقياء القلب» هم أصحاب النقاوة القلبية ـ لا الطقسية.

يقول التفسير الشائع أن «نقاء القلب» هو النقاء الداخلى، بمعنى التطهير من الدنس الأخلاقى، بالتباين مع التطهير الطقسى. ويتكرر هذا الفكر فى أماكن كثيرة فى العهد القديم، خصوصاً فى سفر المزامير، فيكتب داود: «من يصعد إلى جبل الرب ومن يقوم فى موضع قدسه الطاهر اليدين والنقى القلب» (مز ٢٤: ٣ ، ٤) . فإن الله يطلب «الحق فى الباطن»، لذلك يصلى «قلباً نقياً اخلق فىَّ يا الله» (مز ٥١: ٦ ، ١٠ ومز ٧٣: ١ وأع ١٥: ٩ ، و١تى ١: ٥) . ولقد أوضح المسيح هذا الموضوع فى مناقشته مع الفريسيين، وهو يتحدث عن اهتمامهم بالتطهير الخارجى الطقسى، فقال «أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون خارج الكأس والقصعة، وأما باطنكم فمملوء اختطافاً وخبثاً» (لو ١١: ٣٩ ، مت ٢٣: ٢٥ـ ٢٨) .

ولقد شرح «مارتن لوثر Lurther» الاختلاف الواضح بين الطهارة الخارجية والطهارة الداخلية من خلال مفهوم دنيوى، فقارن نقاء القلب ليس فقط بالنجاسة الطقسية، بل بالقذارة الخارجية، فقال: «يريد المسيح أن يكون القلب نقياً حتى لو كان صاحبه يقوم بكل الأعمال الوضيعة مثل العمل فى المطبخ وإشعال النار والتلوُّث بالهباب»[١] . ثم قال: «قد يكون عامل عادى، يصنع أحذية أو يعمل حداداً، يلبس ملابس قذرة، ورائحته كريهة ومنظره الخارجى منفر، لكنه فى الداخل بخور نقى أمام الله، لأنه يحفظ كلمة الله فى قلبه ويطيعها»[٢] .

هذا التركيز على «الداخلى والأخلاقى»، سواء قارناه بالخارجى الطقسى أو الخارجى الطبيعى، يتفق مع روح الموعظة على الجبل ككل، ففى تطلب البر القلبى ـ لا مجرد البر الناموسى. ومع ذلك «فنقاء القلب» يظهر فى علاقاتنا الاجتماعية. وقد عرَّف البروفيسور «تاسكر Tusker»

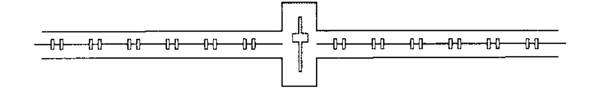
(١) مرجع سابق، Luther, p. 33
(٢) المرجع السابق، ص٣٤

نقاء القلب بقوله: «القلب الموحَّد هو الذى يخلو من تأثير الذات المنقسمة»[١]. وبهذا المعنى يكون «القلب النقى» هو (القلب الموَّحد) الذى يهيئ الطريق للعين الموحدة «البسيطة»، التى تكلم عنها الرب فى (مت ٦ :٢٢).

ولكن نكون أكثر تحديداً، نقول إن الرب يشير هنا أساساً إلى الإخلاص، كما يقول (مز ٢٤ :٤) «الطاهر اليدين والنقى القلب الذى لم يحمل نفسه إلى الباطل ولا حلف كذباً». فالنقى القلب فى علاقته بالله وبالناس يخلو من الكذب، وهو «المُخلص تماماً»، صاحب الحياة الخاصة الشفافة أمام الله، والشفافة العامة أمام الناس. قلبه الداخلى، بما فيه من أفكار ودوافع نقية لا يشوبه الخداع أو الفساد أو السوء أو الرياء أو الخداع. فهذه كلها مكروهة لديه، وهو بلا لوم.

وما أقل من يعيشون هذه الحياة الطاهرة المنفتحة، فنحن كثيراً ما نلبس أقنعة مختلفة وتلعب أدواراً مختلفة طبقاً للظروف. وهذا ليس صدقاً ـ بل هو تمثيل ورياء. وبعضنا ينسج حوله ثوباً من الكذب، فلا نستطيع أن ندرك ما هو حقيقى فيه وما مزيف. والوحيد الذى كان طاهراً تماماً فى قلبه وبلا لوم هو المسيح.

والذى يستطيع أن يعاين الله هو النقى القلب، فيرى الله (الآن) بعين الإيمان، (ثم) يراه فى مجده الأبدى، فالمُخلص هو الذى يمتلك نوراً سطاعاً يلاشى كل خداع الكلام، وبناره يحرق كل الأكاذيب.



(١) مرجع سابق، Tasker P. 62 (قارن مع مز ١٨٦ :١١، ١٢).

٧- صانعو السلام

(٥ : ٩)

إن التسلسل الفكرى بين (نقاء القلب) و(صنع السلام) أمر طبيعى، لأن أحد أسباب الصراع هو المكايد والدسائس. لكن الانفتاح والإخلاص ضروريان للمصالحة الحقيقية والسلام.

وطبقاً لهذه التطويبة، على كل مؤمن أن يكون صانع سلام، سواء فى المجتمع أو في الكنيسة وإن كان المسيح قد قال: لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض. ما جئت لألقى سلاماً بل سيفاً» ، لأنه جاء «ليفرّق الإنسان ضد أبيه والابنة ضد أمها والكنة ضد حماتها» حتى أن «أعداء الإنسان أهل بيته» (مت ١٠ :٣٤-٣٦)، فهو يقصد بذلك أن الصراع نتيجة حتمية لمجيئة، حتى فى بيت الإنسان. وإن كنا نستحق أن نكون له؛ علينا أن نحبه من كل القلب، ونضعه أولاً، قبل الأب والأم والأبناء وكل عزيز لدينا (مت١٠ :٣٧) . ومن الواضح أيضاً، من تعليم المسيح وتعلى الرسل، أنه لا يجب أن نبدأ صراعات أو ندخل فيها، بل على العكس، فقد دُعينا لنزرع السلام: «لكن الله قد دعانا فى السلام» (١كو ٧:١٥)، وعلينا أن نطلبه ونجدَّ فى أثره؛ وعندئذ نعيش فى سلام مع جميع الناس (١بط ٣:١١، رو ١٢:١٨، عب ١٢:١٤) . إن صنع السلام عمل إلهى، لأن السلام مصالحة. والله هو مصدر السلامة والمصالحة. وقد استخدم الرسول بولس ذات الكلمة المستخدمة فى هذه التطويبة، ليشرح لنا ما عمله الله فى المسيح، «أن يصالح به الكل لنفسه، عاملاً الصلح بدم صليبة» (كو ١:٢٠) . والهدف: أن يخلق فى نفسه إنسان واحداً جديداً بدلاً من اثنين (اليهود والأمم) (أف ٢:١٥) . ومن المدهش أن البركة الخاصة التى ارتبطت بصنع السلام كانت «أبناء الله يدعون» ، لأنهم يجدّون فى عمل ما يعمله أبوهم، فيحبون الناس بمثل محبته. وقد أعلن المسيح هذا فى الموعظة بعد ذلك (مت ٥:٤٤ ، ٤٥) . إن الشيطان هو صانع العداوة، لكن الله يحب السلام وكما صنع السلام بابنه الوحيد، يصنعه الآن بأبنائه المؤمنين.

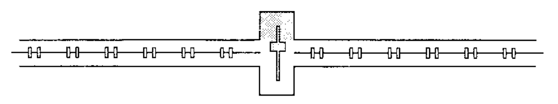
وكلمة «سلام» وكلمة «هدنة» ليستا مترادفتين، لأن سلام الله ليس سلاماً بأى ثمن. وقد صنع الله سلامنا بثمن غال جداً هو دم ابنه الوحيد. والتشبيه مع الفارق الكبير، سنجد نحن أن

صُنع السلام علمية مكلفة. وكان «ديتريتش بونهوفر Bonhoeffer» يردد عبارة «النعمة الرخيصة»[١] وأظن أن هناك أيضاً «سلاماً رخيصاً». فالذى ينادى: «سلام. سلام» عندما لا يكون هناك سلام. يكون نبياً كذاباً، لا مؤمناً كارزاً.

ونستطيع أن نرى أمثلة كثيرة عن السلام من خلال الألم. فعندما نتورط فى مشاجرة، سيكون هناك ألم الاعتذار للشخص الذى أسأنا إليه، أو ألم التوبيخ من الشخص الذى أسأنا إليه، وأحياناً «ألم الضيق الداخلى»، عندما نرفض أن نسامح المذنب إن لم يعتذر لنا. والغفران الرخيص ينتج سلاماً رخيصاً! أما السلام الحقيقى والمغفرة الحقيقية فهما كنزان ثمينان. إن الله يغفر لنا عندما نتوب، ويطالبنا أن نقتدى به: «إن أخطأ إليك أخوك فوِّبخه وإن تاب فأغفر له» (لو ١٧ :٣) . فكيف نستطيع أن نغفر للمسئ عندما لا يتوب ولا يندم؟

وقد لا نكون أطرافاً فى نزاع أو خصام، لكننا نجد أنفسنا فى موضع ينبغى فيه أن نصالح شخصين (أو مجموعتين) متخاصمين ومتباعدين. وهنا سنختبر ألم الاستماع، وألم تجريد أنفسنا من الانحياز لأحدهما، وألم محاولة فهم وجهات النظر المتناقضة، وألم عدم فهمنا، وألم نكران الجميل، أو ألم الفشل.

وهناك مثال آخر لصنع السلام هو عمل الكرازه وتوحيد المؤمنين، أى البحث عن توحيد الكنائس من جانب والإتيان بالخطاة إلى المسيح من جانب آخر. وفى الحالتين قد تجرُّنا المصالحة الحقيقية إلى سلام رخيص. إن وحدة الكنائس مطلب مسيحى لازم، فقد صلى المسيح لأجل وحدة شعبه، كما صلى لحفظهم من الشرير ولتقديسهم فى الحق، ولكنه لم يكلفنا أن نحفظ الوحدة على حساب قداسة التعليم والسلوك. وإن كانت هناك «وحدة رخيصة» ستكون هناك أيضاً «كرازة رخيصة» فنكرز بالإنجيل بدون أن ندفع ثمن التلمذة، ونقبل الإيمان بدون توبة. مثل هذه طرق ملتوية تحوِّل إلى الكرازة إلى خداع، وتجعل الإنجيل رخيصاً، وتدمر قضية المسيح.



(١) Dietrich Bonhoeffer, The cost of Discipleship, (1937; 6th and complete English edition, SGM, 1959) PP. 35ff.

٨- المضطهدون من أجل البر
(٥ : ١٠-١٢)

ألا يبدو غريباً أن المسيح تحوَّل سريعاً من الحديث عن صُنع السلام إلى الحديث عن الاضطهادات، ومن عمل المصالحة إلى اختبار العداوة ؟!

أحياناً تصعب محاولة صنع السلام مع من يرفضون أن يعيشوا معنا فى سلام، ولا تنجح كل محاولات المصالحة، فالبعض قد يبادر بمقاومتنا، وقد يشتموننا ويفترون علينا - لا بسبب خطأ ارتكبناه، لكن «بسبب البر» (عدد ١٠) أو من «أجل المسيح» (عدد ١١)، لأنهم لا يستطيعون أن يتذوَّقوا البر الذى نجوع ونعطش نحن إليه (عدد ٢٦)، ولأنهم يرفضون المسيح الذى نلجأ إليه دائماً.. **إن الاضطهاد ببساطة هو صراع بين قيمتين لن يتصالحا أبداً.**

ولكن، نرى ما هى ردود الأفعال التى توقعها المسيح من تلاميذه إزاء الاضطهاد؟! «افرحوا وتهللوا» (عدد ١٢). نحن لا ننتقم مثل غير المؤمنين، ولا نتجهم مثل الأطفال، ولا نعلق جروحنا ونندب حظنا مثل الكلاب، ولا نتحملها ونسخر منها مثل الرواقيين، ولا نتظاهر بأننا نتمتع بها مثل الذين يحبون تعذيب أنفسهم.. إذاً ماذا نفعل؟

علينا أن نفرح بل ونتهلل، أى نقفز من الفرح (لو ٦: ٢٣). ولكن لماذا؟

أولاً: **لأن «أجركم عظيم في السماوات»** (عدد ١٢). قد نفقد كل شئ فى الأرض، لكن سنرث كل شئ فى السماء، لا كأجرٍ على أعمالنا، «لأن وعد المكافأة مجاناً» على حد تعبير «كالفن».

ثانياً: **إن الاضطهاد يدل على أصالة المؤمن**، فنحن ننتمى إلى سلالة نبيلة.. إلا أن السبب الرئيسى للفرح وسط الاضطهادات هو «من أجلى» (عدد ١١). من أجل ولائنا وإخلاصنا له. من أجل مبادئ الحق والبر التى أرساها. وبالتأكيد تعلَّم الرسل هذا الدرس فنحن نرى مجمع اليهود يهددهم ويجلدهم «أما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع، لأنهم حُسبوا مستأهلين أن يُهانوا من أجل اسمه» (أع ٥: ٤١). **لقد عرفوا، كما ينبغى نحن، أن نعرف أن الألم والجروح هى ميداليات الشرف.**

ومن المهم أن نلاحظ أن الحديث عن الاضطهادات يأتى فى تطويبة مثل بقية التطويبات. بل إننا نرى تطويبتين، ففى العدد العاشر جاءت هذه التطويبة (مثل بقية التطويبات) بضمير

الغائب «طوبى للمطرودين من أجل البر» لكنها جاءت فى (عدد ١١) بضمير المخاطب «طوبى لكم إذا عيَّروكم وطردوكم» . وبما أن كل التطويبات تصف ما ينبغى أن يكون عليه كل مؤمن، نستخلص أن كونك تُطرد، وتُضطهد وتُقال عليك كل كلمة شريرة هى سمة طبيعية من سمات المؤمن، مثلها مثل نقاء القلب والرحمة وصُنع سلام. فكل مؤمن يتوقع الاضطهادات. فالذين يجوعون إلى البر سيعانون لأجل البر الذى يجوعون إليه. وهذا ما قاله المسيح هنا، وقاله الرسولان بولس وبطرس فى مواضع أخرى (يو ١٥ :١٨-٢٥ و١بط ٤ :١٣، ١٤ وأع ١٤ :٢٢، و٢تى ٣ :١٢) وهو موجود فى كل العصور.

ولا نستغرب إن زادت العداوة ضد المسيحيين، لكن يجب أن نستغرب عندما لا يكون هناك اضطهاد. وعلينا أن نتذكر القول الحكيم: «ويل لكم إذا قال فيكم جميعاً الناس حسناً، لأنه هكذا كان آباؤهم يفعلون بالأنبياء الكذبة» (لو ٦ :٢٦). **وإن كانت الشهرة العالمية هى السمة المميزة للأنبياء الكذبة، فالاضطهاد هو السمة المميزة للأنبياء الحقيقيين.**

وقد فهم الاضطهاد قليلون من مؤمنى القرن العشرين، ومنهم ديتريتش بونهوفر، فهو لم يتردد فى إعلان مقاومة المسيحية للنظام النازى، بالرغم من أن هذا أدى إلى سجنه وعذابه وتهديد أسرته بل وموته، فقد أعدم بناءً على أمر مباشر من هنريتش هيملرفى أبريل ١٩٤٥، فى معسكر اعتقال فلوسنبرج، قبل تحرير من كانوا بالمعتقل بأيام. وكان هذا تتويجاً لما آمن وعلَّم به دائماً «الألم هو علامة التلمذة الحقيقية، فالتلميذ ليس أفضل من معلمه. إن اتّباع المسيح معناه أن نتألم، لأنه ينبغى أن نتألم. ولهذا السبب ذكر لوثر الألم ضمن علامات الكنيسة الحقيقية. وفى مؤتمر أوجيسبرج قيل إن الكنيسة هى مجتمع المضطهَدين والشهداء من أجل الإنجيل. إن التلمذة معناها الولاء للمسيح المتألم، فليس غريباً أن المؤمن يُدعى ليتألم، بل إن الألم هو علامة النعمة، بل هو الفرح الحقيقى[1].

ترسم هذه التطويبات أمامنا صورة توضيحية لتلميذ المسيح، فنحن نراه أولاً جاثياً على ركبتيه أمام الله، معترفاً بعوزه الروحى، وحزيناً على حالته. وهذا يجعله وديعاً ورقيقاً فى كل علاقاته. وتجعله الأمانة يسمح للآخرين أن يروه بذات الصورة التى يعترف بها هو عن نفسه أمام الله. لكنه لن يرضى بحالته، لأنه يجوع ويعطش إلى البر، ويريد أن ينمو فى النعمة والصلاح.

لكننا نرى المؤمن بعد ذلك فى الخارج مع الناس والمجتمع. إن علاقة مع الله لم تجعله ينسحب من المجتمع، أو ينعزل عن آلام العالم. بل بالعكس، فهو يضع نفسه فى خضم الألم، ويُظهر الرحمة للذين دمرتهم الخطية. إنه مُخْلص شفّاف فى كل معاملاته، وهو يريد أن يبنى

(١) المرجع السابق، ص ٨٠, ٨١

ويصنع سلاماً. وبالرغم من ذلك لا يجد من يشكره على كل ما فعله، بل بالعكس يجد من يقاومه ويشتمه ويضطهده من أجل البر الذى يجنِّد نفسه له، ومن أجل المسيح الذى كرس حياته له.

هذا هو الشخص الذى يطلبه الرب، والذى يشهد عنه شهادة حسنة، وهو الذى يجد شبعه الحقيقى كإنسان. وفى كل هذا نجد أن قيم ومقاييس المسيح، تقف فى صراع مباشر مع القيم والمقاييس التى يقبلها العالم. فالعالم يعتقد أن السعادة فى الغنى - لا فى الفقر، سواء الفقر الروحى أو المادى. يعتد العالم أن السعادة فى التسيُّب والإباحية - لا فى البكاء على الخطية.. ويظن أن السعادة فى القوة والجبروت - لا فى الوداعة والرقة.. فى الشبع - لا فى الجوع.. فى الذين يهتمون بأعمالهم الخاصة - لا فى الذين يهتمون بالآخرين ويصرفون الوقت فى عمل الخير «ولإظهار الرحمة» و«لصنع السلام».. فى الذين يحققون أغراضهم بوسائل الخداع وبأى ثمن - لا فى أنقياء القلب.. فى الذين يتمتعون بالأمن والشعبية ويعيشون فى بحبوحة - لا فى الذين يُضطهَدون.

وربما لم يوجد أحد كره «عذوبة» الموعظة على الجبل أكثر من الفيلسوف الألمانى فريدرك نيتشه. وبالرغم من أنه كان ابن وحفيد قساوسة لوثريين، إلا أنه رفض المسيحية عندما كان طالباً. وكتابه «ضد المسيح»[1] (The anti-christ) (عنوان تجرأ وسمى به نفسه) هو أعنف ما كُتب من جدل ضد المسيحية، وقد كتبه عام ١٨٨٨، قبل عام من إصابته بالجنون. وفى هذا الكتاب قال إن الخير هو «كل ما يغذى الشعور بالقوة ويسمو بها. إنه إرادة التسلط، بل إنه القوة ذاتها فى الإنسان.. والشر هو كل ما ينتج عن الضعف». وفى إجابته على سؤال أثارة: «ما هو الأكثر ضرراً من الرذيلة؟» قال «إن نتعاطف مع المسيحية الضعيفة المريضة» فقد رأى أن المسيحية ديانة الشفقة لا ديانة القوة، وقال إنه لا يوجد شئ أسوأ فى عالمنا من الشفقة المسيحية واحتقر فكر المسيحيين عن الله، «إله المرضى، الذى يمحو كل ما هو قوى وشجاع و تسلط ومتفوِّق». ثم عاد وقال إن الصورة الوحيدة التى فى العهد الجديد التى أجد نفسى مجبراً على احترامها هى صورة القائد الرومانى العظيم بيلاطس البنطى بالمفارقة مع المسيح المرذرى به «الله على الصليب». «المسيحية أكبر كارثة للإنسانية»[2].

إن سبب هذه السموم التى قالها نيتشه واضح، فالمسيح قدَّم طفلاً صغيراً كمثال يُحتذى، ولم يقدم أبداً «سوبرمان» كما كان نيتشه يريد، فرفض نيتشه كل القيم التى قدمها المسيح وقال: «أنا

(١) طبع أولاً فى ١٨٩٥ (Penguin classics 1968).

(٢) المرجع السابق: ١٥، ١١٦، ١١٨ - ١١٩، ١٢٧ - ١٢٨

أدين المسيحية، فالكنائس المسيحية لم تترك شيئاً لم تصبه بالفساد، وأعطت القيمة لكل ما لا قيمة له.[١] ودعا (فى آخر كتابه) إلى إعادة تقييم كل القيم.

إلا أن المسيح لا يمكن يتهاون بمقاييسه لتتناسب مع كلمات نيتشه أو من يرون رأيه. ففى التطويبات طرح المسيح تحدياً جوهرياً أمام العالم غير المسيحى، وطلب من تلاميذه أن يسيروا وفق هذه القيم المختلفة. وكما قال ثيليك: «كل من يدخل فى نطاق التلمذة للمسيح ينبغى عليه أن يعيد تقييم قيمه بطريقة جذرية».

ولعل هنا ما عبر عنه بونهوفر (والذى تربى فى نفس التقاليد اللوثرية التى تربى فيها نيتشه) وسمّاه «غرائب الحياة المسيحية» وقال: «مع كل تطويبة، كانت الهوة تتسع بين التلاميذ وباقى الشعب. وكانت دعوة المسيح لهم ليختلفوا عن الشعب تتضح أكثر، خصوصاً فى تطويب الحزانى فالمسيح يأمر برفض انسجامنا مع العالم وتكيُّفنا مع مقاييسه. إن هؤلاء الرجال كانوا سينوحون على العالم: على خطيته، وعلى مصيره، وعلى حظه. وبينما العالم يحتفل، نراهم انزووا جانباً، وبينما العالم يغنى بقدوم الربيع، نجدهم ينوحون لأنهم يرون أنه بالرغم من كل المرح الذى على سطح السفينة، لكنها تغرق. فالعالم يحلم بالتقدم والقوة والمستقبل الأفضل، لكن التلاميذ يتألمون على مستقبل العالم، لأنه سيء، ففى النهاية دينونة أخيرة. ولا يمكن للعالم أن يرتقى لمستوى التلاميذ، لذلك يشعرون أنهم غرباء عن العالم، نزلاء غير. مرحَّب بهم فيه. إنهم «مقلقو السلام» فلا عجب أن العالم يرفضهم[٢].

مثل هذه القيم الإنسانية المغايرة هى أساس الدين الكتابى. **إن طرق الله قد قلبت موازين البشر رأساً على عقب، لأن الله رفع المتضعين ووضع المتكبرين، ودعا الأول آخراً والآخر أولاً، وأعطى المجد للعبيد وصرف الأغنياء فارغين، وأعلن الميراث للودعاء. إن أخلاق العالم وأخلاق المسيح على طرفى نقيض. فقد هنّأ المسيح المساكين فى هذا العالم، وأعطى البركة للمطرودين من العالم.**

(١) المرجع السابق، ص ١٨٦
(٢) مرجع سابق Bonhoeffer, pp 63, 86

الباب الثاني

تأثير المسيحي: ملح ونور

[أصحاح ٥ : ١٣ ـ ١٦]

«١٣ . أنتم ملح الأرض. ولكن إن فسد الملح فبماذا يملَّح لا يصلح بعد لشئ إلا لأن يطرح خارجاً ويُداس من الناس. ١٤ أنتم نور العالم. لا يمكن أن تُخفى مدينة موضوعة على جبل. ١٥ ولا يوقدون سراجاً ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة فيضئ لجميع الذين في البيت. ١٦ فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى في السموات» .

إن كانت التطويبات تضع أمامنا الصفات الجوهرية لأتباع المسيح، فإن الملح والنور يصوِّران التأثير الصالح للتطويبات فى العالم وفى قولنا إن المؤمن يستطيع أن يؤثر تأثيراً جيداً فى العالم تواجهنا بعض الأسئلة.

تُرى، ما هو التأثير الممكن الذى يستطيع أن يمارسه هؤلاء المطوَّبون فى هذا العالم القاسى العاتى؟

ما هو التأثير الصالح المستمر الذى يستطيع أن يصنعه الفقراء، والودعاء والحزانى، والرحماء، والذين يحاولون أن يصنعوا سلاماً؟

كيف يصدون أمام فيضان الشر العاتى؟ وما الذى يستطيع أن يحققه أصحاب العواطف المتجهة بكلياتها إلى البر، وكل سلاحهم هو نقاء القلب؟

أليس مثل هؤلاء أضعف من أن يحققوا شيئاً، خاصة وهم أقلية فى هذا العالم؟

من الواضح أن فكر المسيح لم يتطرق إلى مثل هذه الشكوك، بل على العكس، فهو يقول إن العالم سيضطهد الكنيسة (الأعداد ١٠ـ١٢) . وبالرغم من ذلك فإن دعوة الكنيسة هي أن تخدم هذا العالم الذى يضطهدها (الأعداد ١٣ـ١٦) . وقد عبَّر عن هذا «رودلف شتير Rudolf Stier» بقوله: «ليس أمامنا إلا أن نقدم الحب والصدق مقابل الكراهية والكذب»[١] . فهل يُعقل أن يقول المسيح أن نفرأ قليلاً من فلاحى فلسطين. سيمتد تأثيرهم ليكونوا ملحاً لكل الأرض ونوراً لكل العالم؟! من المدهش حقاً أن الله فى تدبيره استخدم من بين الأناجيل الأربعة «إنجيل متى» الذى كُتب لليهود، ليذكر فيه تأثيره الصالح على العالم أجمع من خلال أتباعه.

(١) مرجع سابق؛ Stier. P121

وليحدد المسيح طبيعة تأثيره؛ استخدم تشبيهين من الحياة اليومية، يستخدمهما كل بيت - حتى لو كان فقيراً، وهما: (الملح) و(النور). ولا شك أن المسيح أثناء طفولته كان يرى أمه تستخدم الملح فى الطعام، وتضئ «السراج» فى الليل، فالملح والنور ضروريان لكل بيت. ولقد اقتبس كثير من المفسرين قول «بلينى Pliny[١] إنه لا يوجد شئ أكثر فائدة من الملح والنور، فالحاجة للنور واضحة، أما الملح فله استخدامات كثيرة، فهو يعطى الطعام مذاقاً ويحفظه من الفساد. ويبدو أن الإنسان عرف الملح منذ القدم كجزءٍ أساسى من مكوِّنات طعامه، فيقول أيوب: «هل يؤكل المسيخ بلا ملح؟» (أى ٦ :٦). وقبل ظهور الثلاجات بقرون، كانوا يستخدمون الملح ليحفظ اللحم فى قوامه بغير فساد. وقد وصف «هـ . ف . مرثون» طريقة عمل «البسطرمة» (اللحم المجفف) فى أمريكا الجنوبية. فقال «يقطعون اللحم قطعاً حسب الحجم المراد، ثم يمزجونها بالملح. فإذا تَّمت المعالجة بطريقة سليمة، يمكن أن يظل اللحم صالحاً للطعام لفترة غير محدودة»[٢].

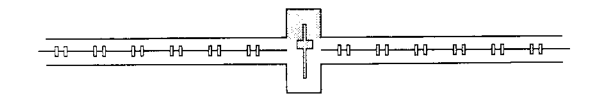
وواضح إذاً من هذين التشبيهين المعروفين أن العالم والكنيسة «مجتمعان منفصلان مختلفان»، ففى جانب نرى «الأرض». وفى الجانب الآخر نرى «أنتم» الذين هم ملح الأرض.. ومن جانب نرى «العالم»، ومن الجانب الآخر نرى «أنتم» الذين هم نور العالم. صحيح أن المجتمعَيْن «هم، وأنتم» تربطهما علاقة، لكنهم تعتمد على تميُّز «أحدهما» عن «الآخر». ومن المهم أن نؤكد على هذا «الآخر» تماماً فى أيامنا هذه، خاصة ونحن نرى بعض اللاهوتيين العصريين يميِّعون هذه الحقيقة، فلا يميزون بين الكنيسة والعالم، ويطلقون على العالم الإنسانى ككل «أبناء الله»!

ويفيد هذان التشبيهان معنى آخر، فالعالم مكان مظلم. قد يكون فيه ضوء خافت، لكنه بلا نور ذاتى. ومن هنا، فهو يحتاج إلى مصدر خارجى للنور ليضئ له. ويتحدث العالم دائماً عن الاستنارة[٣]. لكنه يفتخر بأمور هي فى واقعها ظلام. والعالم ايضاً فى حالة انحلال وفساد مستمر وبلا طعم. فيجب أن يضيف المؤمنون إليه ملحاً؛ لكى يُستساغ طعمه «فمن المستحيل أن تجعل العالم مقبولاً أمام الله»[٤]. ولا يقدر أحد أن يوقف حالة الانحلال والاضمحلال هذه - إلا بالملح الذى يأتى من خارج العالم، فيعمل فيه مفعوله. والكنيسة، من الجانب الآخر، موجود

(١) *Natural history*, p. 31:102
(٢) *The Jerusalem Bible* (Detron, Longman and Todd, 1966. (6.6)
(٣) Hodder, 1948, pp. 292f
(٤) مرجع سابق Lenskip. 199

فى العالم لغرضين: فهى (كملح) توقف - أو على الأقل تعيق - عملية الانحلال الاجتماعى، و(كنور) تستطيع أن تزيل الظلام.

وعندما نتأمل هذين التشبيهين بعمق، نجدهما يسيران فى خط متواز مع بعضهما، ففيهما يؤكد المسيح أولاً «أنتم ملح الأرض. أنتم نور العالم»، ثم يضيف تعقيباً على الشروط التى لا يعمل الملح والنور إلا بها: **فالملح ينبغى أن يحتفظ بملوحته والنور يجب ألا يوضع تحت المكيال. فالملح لا يصلح لشىء إن فقد ملوحته، والنور لا يفيد شيئاً إن أخفيناه.**



١ ـ الملح والأرض
(١٣:٥)

والتأكيد هنا واضح «انتم ملح الأرض»، أو في ترجمة أخرى (NEB): «أنتم ملح للأرض (You are salt to the world)». وهذا معناه أنه إن عاش كل مجتمع من المجتمعين حياته مستقلاً عن الآخر، فيصاب العالم بالتعفن مثل السمك واللحم. لكن الكنيسة تعوق هذا الانحلال.

وقد دبر الله وسائل أخرى فى هذا المجتمع لتعيق انحلاله، فمن خلال نعمته أسس بعض المؤسسات التى بها يمكن أن يلجم الميل الأنانى للإنسان، ويمنع المجتمع من الانجراف إلى العشوائية والفوضى. وأكبر مؤسستين فى هذا المضمار هما: (الدولة)، التى من خلال هيبتها وسلطاتها تستطيع أن تسن القوانين وتنفذها، و(البيت) بما فيه الحياة الزوجية والحياة العائلية ولاشك أن الهاتين المؤسستين تأثير صحى على المجتمع.

لكن الله، فى تدبيره، أراد أن يكون أولاده المفديون المخلصون المتبررون أعظم قوة تكبح جماح المجتمع الشرير. وكما قال «ر.ف.ج. تاسكر»: «إن تلاميذ المسيح هم مزيلو الفساد وهم الـ طهرات الأخلاقية فى عالم أصبحت فيه المقاييس الأخلاقية ضعيفة متغيرة باستمرار، بل وأحياناً غير موجودة[١].

غير أن تأثير الملح تأثير مشروط بشرط، هو أن يحتفظ بملوحته. ونحن اليوم نتعجب من هذه العبارة، لأننا نعلم أن الملح لا يمكن أن يفقد ملوحته، فقد تعلمنا أن ملح الطعام (كلوريد الصوديوم) مادة كيميائية شديدة الثبات، تقاوم تأثيرات كل العوامل الخارجية. إلا أنه من الممكن أن يتلوث ببعض النفايات، فيصبح غير صالح وأحياناً ضاراً؛ لأن الملح الذى يفقد ملوحته لا يمكن حتى استخدامه كسماد.

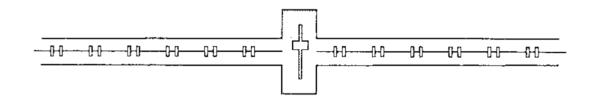
ولقد قال لى «الدكتور دافيد تيرك» إن ما كان يسمى «ملحاً» آنذاك، كان «بودرة بيضاء»، من المحتمل أنها كانت تؤخذ من المناطق المحيطة بالبحر الميت. وكانت تحتوى هذه «البودرة» على (كلوريد الصوديوم) وعلى مواد أخرى كثيرة، لأنه لم يكن متاحاً لديهم فى ذلك الوقت وسائل للتنقية. وربما كانت مادة «كلوريد الصوديوم» فى هذه البودرة أكثر المواد ذوباناً، وبالتالى يسهل أن تضيع عند غسل هذه البودرة، وما يتبقى بعد غسيلها هو أيضاً بودرة بيضاء تشبه

(١) مرجع سابق Tasker, P. 63

الملح، ويُطلق عليها اسم «ملح»، لكنها ليس لها مذاق الملح ولا خواصه، فهي مجرد «تراب في الشارع».

وكذلك أيضاً المؤمنون، حيث قال لهم الرب: «ليكن لكم في أنفسكم ملح» (مر ٩ :٥٠). **وملوحة المؤمن هي صفاته المذكورة في التطويبات، وهي التلمذة المسيحية الملتزمة التي تظهر من خلال الأعمال والأقوال (لو ١٤ :٣٤ ، ٣٥ وكو ٤ :٦) ..** ولكي يكون المسيحي مؤثراً؛ عليه أن يحتفظ بملوحته بمسيحيته (أن يكون مثل المسيح)، كما أن الملح لكي يكون مؤثراً؛ عليه أن يحتفظ بملوحته. وإذا تشبَّه المؤمنون بغير المؤمنين وتلوثوا بقاذورات العالم؛ فإنهم سيفقدون تأثيرهم. فتأثير المؤمن في مجتمعه يتوقف على اختلافه عن العالم - لا على تشبُّهه به.

وقد ركز «د. لويدجونز» على هذا، فقال: «يكمن مجد الإنجيل في (اختلاف) الكنيسة عن العالم، والذي من خلاله ينجذب العالم لها. وكأن العالم قد خلق ليستمع إلى رسالتها، بالرغم من أنه يكرهها للوهلة الأولى»[1]. وإن كنا كمؤمنين نحيا حياة لا تختلف عن حياة غير المؤمنين، فما هي فائدتنا؟ لابد أن نطرح مثل الملح الفاسد «ونداس من الناس». وفي هذا يقول «أ.ب. بروس»: «ياله من انحدار مؤسف! ننتقل فيه من كوننا أداة خلاص للمجتمع لنكون شيئاً تدوسه الأقدام»[2].



(١) مرجع سابق، Lloyd - Jones, P. 41

(٢) مرجع سابق، A.B.Brouce, P. 103

٢ـ نور العالم

(٥ : ١٤ـ١٦)

ولقد قدم المسيح هذا التشبيه الثانى بنفس التأكيد «أنتم نور العالم». وقال بعد ذلك: «أنا هو نور العالم» (يو ٨ :١٢ ، ٩ :٥). فالمؤمن نور؛ لأن المسيح ينيره، فنورنا مستمد من نوره. ونحن نضئ بنور المسيح فى العالم مثل النجوم فى الليل (فى ٢ :١٥). وكم هو عجيب أن يبحث غير المؤمنين عن سر نورنا، ويتساءلوا عن مصدره.

وقد وصف المسيح هذا النور بأنه «أعمالكم الحسنة»، فى قوله: «لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات». **ويبدو أن تعبير «أعمال حسنة» تعبير عام يغطى كل ما يقوله المسيحى ويفعله، لأنه مسيحى، فهى تمثل المظاهر الخارجية المرئية التى تدل على الإيمان المسيحى.**

وحيث أن «النور» كتابية شائعة، وهو يرمز إلى الحق، فإشراق النور المسيحى بلا شك يحوى الشهادة الناطقة، لهذا فالنبوات فى العهد القديم التى وردت عن أن «عبد الرب» سيكون «نوراً للأمم» تمت ـ لا فى شخص المسيح الذى هو نور العالم فحسب، لكن أيضاً فى المؤمنين الذين يحملون شهادته. فالأعمال الحسنة تشمل «الكرازة» التى بها يمكن أن يضئ نورنا ويتمجد أبونا (إش ٤٢ :٦و٤٩ :٦ ولو ٢ :٣٢ وأع ٢٦ :٢٣و١٣ :٤٧).

ولقد كان (لوثر) محقاً عندما ركز على هذا الأمر، لكنى أعتقد أنه جاوز الصواب عندما ذكر أن الأعمال الحسنة هي «الكرازة» فقط، فكتب: «لم يكن فى ذهن (البشير متى) الأعمال العادية التى ينبغى أن يعملها الناس لبعضهم البعض كتعبير عن المحبة.. لكن الفكرة الأساسية التى كان يركز عليها هي عمل المؤمن فى تقديم التعليم الصحيح، والتنبير على الإيمان وكيفية تقويته وحفظة فبهذا نشهد أننا مؤمنون حقيقيون ثم ذهب (لوثر) فى تفسيره إلى التمييز بين لوحى الشريعة الأول والثانى، وقال إن الوصايا العشر تعبر عن مسئوليتنا تجاه الله وتجاه أقربائنا: «فالأعمال التى يتكلم عنها الرب تتعلق بالوصايا الثلاث الأولى العظيمة التى تتعلق بمجد الله واسمه وكلمته»[١].

ومن الجميل، بل ومن الصحيح أن نتذكر أن الإيمان، والاعتراف، وتعليم الكتاب هي «أعمال حسنة» تبرهن على خلاصنا وعمل الروح القدس المغير فينا. لكن لا ينبغ أن توجد الأعمال الحسنة فى هذا الأطار فقط، فهى أعمال محبة كما أنها أعمال إيمان، وهى تعبر ـ

(١) مرجع سابق Luther, P. 66

لا عن أخلاصنا وولائنا لله فحسب، بل عن اهتمامنا بالآخرين أيضاً، فالمعنى الأساسى «للأعمال الحسنة» ينبغى أن يكون عمل الشفقة العملى الملموس. ويقول الرب إنه عندما يراها الناس يمجدون الله، لأن المؤمنين يجسدون أخبار المحبة السارة التى ينادون بها. وبدون هذا التجسيد؛ يفقد إنجيلنا مصداقيته، ولا يتمجد الله. **وكما قيل عن «الملح»، هكذا عن «النور»، فنور العالم يتبعه شرط: «ليضيئ نوركم هكذا قدام الناس». وكما أنه من الممكن أن يفقد الملح ملوحته، هكذا يمكن أن يصبح النور الذى فينا ظلاماً (مت ٦ :٢٣). فعلينا أن نسمح لنور المسيح فينا أن يشع ويضيئ للخارج، فيراه الناس.**

نحن لسنا مثل مدينة قابعة فى السفح، لا يرى الناس نورها، لكننا مثل مدينة قائمة على جبل، يرى الناس نورها وهم على بعد أميال. ثم علينا أيضاً أن نكون مثل «السراج الموقد»، كما كان يوحنا المعمدان «السراج الموقد المنير» (يو ٥:٣٥)، الذى كان يرفع عاليا على المنار فى مكان بارز؛ فيضئ لجميع الذين فى البيت. ولا يخفون السراج تحت مكيال أو سرير؛ فيكون بلا نفع.

وعلينا كتلاميذ للمسيح، أن لا تخفى الحق الذى نعرفه، أو الحق الذى نحياه، أوحقيقه وضعنا، ويجب ألا نتظاهر بخلاف حقيقتنا. لكن ليكن لدينا استعداد لنظهر مسيحيتنا للجميع. تحاول أن تخفى نفسها هي فى الواقع توقف عن المسيرة معه»[1]. فحسب مركزنا فى المسيح، يجب أن نحيا الحياة المسيحية الحقيقية الواضحة للجميع والموصوفة فى التطويبات، فلا نخجل من المسيح، حيث أن الناس سوف يرون أعمالنا الحسنة، ويمجدون الله، فيدركون أنه بنعمة الله نحن ما نحن، ونورنا هو نوره، وأعمالنا الحسنه هي **عمله فينا وبنا. وعندها سيمجدون النور، لا المنارة التى تحمله! سيمجدون أبانا السماوى، لا الأولاد الذين اقتناهم والذين يتشبهون به. وقد لا يستطيع معيرونا أن يمجدوا الله لأجل البر الذى فينا، لكن سيضطهدونا من أجل اسمه.**

(١) مرجع سابق Bonhoeffer, p. 106

٣ ـ الدروس التى نتعلمها من « الملح والنور»

يعلمنا تشبيها الملح والنور اللذين استخدمهما المسيح الكثير عن مسئولياتنا المسيحية فى العالم. وأود أن أقدم ثلاثة دروس بارزة:

أ) هناك فرق جوهرى بين المؤمنين وغير المؤمنين، وبين الكنيسة والعالم

حيث يتحلى بعض غير المؤمنين بقشرة كاذبة من الأخلاق المسيحية، ومن الجانب الآخر لا يمكن أن تفرق بعض المؤمنين من غير المؤمنين، وهم بهذا ينكرون هويتهم المسيحية بسبب سلوكهم غير المسيحى، إلا أن الفرق الجوهرى سيستمر بين الطرفين، فالفرق بين المؤمن وغير المؤمن هو الفرق بين قطعة من الجبنه البيضاء، وقطعة مشابهة لها تماماً من الطباشير!

ولقد قال المسيح إن الفرق بينهما هو الفرق بين النور والظلمة من ناحية، وبين الملح الحافظ من الفساد وبين الانحلال من ناحية أخرى. وعندما نحاول أن نمحو أو حتى نضيق من هذا الفرق؛ فنحن بذلك لا نخدم الله، ولا نخدم أنفسنا، ولا نخدم العالم. وهذا الموضوع هو أساس الموعظة على الجبل، فهى مبنية على افتراض أن المسيحى «شخص مختلف»، وتدعوه، وتضع أمامه تحديا ليكون مختلفاً. إن أعظم مأساة عاشتها الكنيسة وما زالت تعيشها عبر تاريخها الطويل هي المحاولة المستمرة لتتشكل بالأخلاق السائدة، بدلاً من أن تزرع أخلاقاً مسيحية مختلفة.

ب) علينا أن نتقبل المسئولية التي يلقيها علينا هذا التمييز

فى كل تشبه من هذين التشبيهين تجد تأكيداً وشرطاً مرتبطين معاً. ويضع هذان التشبيهان أمامنا مسئولية عظيمة، وتأكيداً يبدأ بجمله يونانية يمكن ترجمتها فى اللغة العربية بالقول: «أنتم وأنتم فقط» ملح الأرض ونور العالم. ولهذا؛ يأتى الشرط بكل منطق حازم قائلاً: «عليك أن لا تخيب ظن العالم الذى دعيت لتخدمه. عيك أن تكون كما يجب أن تكون: (ملحاً)، وتحتفظ بهذا الملوحة، ولا تفقد ملمسك المسيحى. أنت (نور) ، فينبغى أن تجعل نورك مضيئاً ولا تخفيه بأيه طريقة، سواء بالخطية أو بالتهاون أو بالكسل أو بالخوف».

هذه الدعوة تفترض فينا المسئولية المسيحية، بسبب ما صنعه المسيح لنا، وبسبب المكانة التى وضعنا فيها. وهى دعوة خاصة للشباب الذين يشعرون بإحباطات فى عالم اليوم، فإن مشاكل المجتمع الإنسانى صارت عويصة، وهم

يقفون أمامها عاجزين شاعرين بصغرهم وعدم تأثيرهم وضعفهم. وقد سمى «كارل ماركس Marx» أحاسيس الإحباطات هذه بمصطلح «التغريب» (Alienation). فما هي رسالتنا لمثل هؤلاء الناس الذين يشعرون بالغربة، والذين يختنقون من «النظام»، ويضيعون فى غمار التكنولوجيا الحديثة، ويغرقون فى النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى الذى يتحكم فيهم ولا يتحكمون فيه؟!

إنهم يشعرون أنهم ضحايا الوضع المحيط، ولا حول لهم ولا قوة، ولا يستطيعون أن يغيرون. إذا ماذا يعملون؟! لا شك أنه فى تربة هذه الإحباطات تنمو الثورات والعنف الذى يريد أن يطيح بالأنظمة. ومن خلال ذات التربة، قامت ثورة بأكثر نشاط، لكنها ركزت على نشر ثورة الحب والفرح والسلام. وهى ثورة أكثر اكتساحاً من أى ثورة عنف، لأنها تعتمد على مقاييس لا تضمحل، وهى أيضاً تغير الناس كما تغير النظام.

فهل فقدنا ثقتنا فى قوة إنجيل المسيح؟!

إذا لنستمع إلى ((لوثر)) عندما يقول: «بكلمة الله أستطيع أن أكون أكثر تحدياً وفخراً وجسارة من الذين تكمن قوتهم فى السيوف والسلاح»[١].

ولهذا، فلسنا ضعفاء ولا عاجزن على الإطلاق، لأن لنا المسيح وإنجيله ومثالياته وقوته. وفى المسيح نجد كل (الملح) وكل (النور) الذى يحتاجه العالم الفاسد المظلم. لكن علينا أن يكون لنا (الملح) فى ذواتنا، وعلينا أن (نضئ) بنورنا.

ج) علينا أن نتطلع إلي مسؤوليتنا كمسئوولية مزدوجة

قال «ثيليك»: «يربط الملح والنور شئ واحد مشترك، هو أنهما يعطيان وينتشران. وهذا على العكس تماماً من أى تدين يركز على الذات»[٢]. والخدمة التى يقوم بها كل منهما مختلفة، ولو أن تأثير كل منهما يكمل الآخر، فوظيفة (الملح) هي أساساً وظيفة سلبية؛ فهو يمنع الفساد. أما وظيفة (النور) فإيجابية؛ لأنه ينير الظلام.

ولهذا يدعو المسيح تلاميذه ليكونوا ذوى تأثير مزدوج فى المجتمع الدنيوى: «تأثير سلبى»، بأن يوقفوا فساده، و«تأثير إيجابى»، بأن ينشروا النور فى ظلمته. فتوقف انتشار الشر، يختلف عن نشر الحق والجمال والصلاح.

(١) مرجع سابق، Luther, P. 505.
(٢) Helemut Thielicke, Life can begin again: Sermon on the amount, 1956

وإذا وضعنا التشبيهين معاً؛ نستطيع أن نميز العلاقة الصحيحة بين الكرازة والعمل الإجتماعى فى رسالة المسيح الكاملة فى العالم، وهى العلاقة التى أنشأت نوعاً من سوء الفهم بين المؤمنين فى هذه الأيام التى دعينا فيها لنكون ملحاً ونوراً لهذا العالم.

فلنتأمل الدعوة الأولى: (لنكون ملحاً): يرسم أمامنا الرسول بولس، فى نهاية الأصحاح الأول من رسالة رومية، صورة بشعة لما يحدث فى المجتمع الذى يكبت حق الله الواضح فى الطبيعة بسبب حبهم للشر، فالعالم إذا يتدهور، وتنحدر قيمة ومقاييسه دائماً، حتى تصل إلى فساد مطلق؛ فيرفض الإنسان ما يعرفه عن الله. وتكون النتيجة أن الله يسلمهم إلى ذهن مرفوض، وإلى شهوات قلوبهم، حتى تفوح رائحة المجتمع النتنة وتزكم أنف المجتمع المؤمن.

وهنا، يرسل الله المؤمنين إلى العالم ليعيقوا عملة الفساد هذه، وهو يريدنا أن نتغلغل فى العالم، لا أن نوضع فى كيس جميل أو في مخازن! فعملنا هو أن نحتك بالمجتمع من حولنا، كما يحتك الملح باللحم ويحفظه من الفساد. ولكثرة فساد العالم من حولنا، نرفع أيدينا أحياناً، وندين العالم غير المؤمن، بينما كان يجب أن ندين نفوسنا. فهل أستطيع أن ألوم اللحم غير المملح لأنه فسد؟ إنه لا يملك مساعدة نفسه.. لكن السؤال فى هذه الحالة يجب أن يكون: أين الملح؟

لقد كان المسيح يعلم فى مكان بالقرب من بحر الجليل، وعلى بعد أقل من مئة ميل جنوباً كان نهر الأردن يصب فى بحر آخر هو البحر الميت (أو بحر الملح)، لأن مياهه كانت مالحة لدرجة الموت. وعلى الشاطئ الغربى من البحر الميت، عاشت جماعة «مجتمع البحر الميت»، الذين أكتشفت مكتبتهم حديثاً، وكان لاكتشافها - صدفة منذ بضع سنوات - دوى هائل، لأنها كانت تحتوى على رقوق هامة جداً، يملكها مجتمع رهبان «أسينين»، انسحبوا من العالم الفاسد، وأطلقوا على أنفسهم لقب «أبناء النور» - ولو أن نورهم لم يضئ للخارج، فقد تقوقعوا على أنفسهم، فكان ملحهم بلا فائدة مثل ذلك الملح المترسب على الشاطئ القريب منهم. ولعل المسيح كان يفكر فيهم/ عندما تكلم بهذه الكلمات. ويظن «د. دافيد Davies» أن المسيح ربما التفت نحو مكان سكناهم، وهو يلقى هذه الكلمات.

لكن ما الذي يعينه عملياً أن نكون ملح الأرض؟

أولاً: نحن كمسيحيين يجب أن نكون أكثر شجاعة، فندين الشر بصوت عال. ولكن الدينونة أمر سلبى. فلنتذكر أن للملح مفعولاً سلبياً فسنجد أحياناً أن قيم المجتمع ومثله تنحدر، وهذا يقتضى معارضة مسيحية واضحة. ولقد كان هذا الفكر هو الذى سيطر على «لوثر»، عندما ركز على أن البشارة الحقيقية بالإنجيل تعنى الإنذار والتبشير، «فالملح ينبغى أن يكون لاذعاً. وبالرغم من أن العالم ينتقدنا بأسلوب لاذع، لكننا نعلم أن هذا هو الأسلوب الواجب علينا، فقد أوصانا

المسيح أن الملح ينبغى أن يحتفظ بملوحته، فيكون قاطعاً ذا تأثير كاوٍ. وإن كنت تريد أن تكرز بالإنجيل، عليك أن تكون قاطعاً، وتضع الملح على الجروح، وتُظهر الجانب الآخر للإنجيل وهو دينونة الخطية. إن الملح الحقيقى هو التوضيح الصادق للكلمة التى تفضح خطايا العالم، فلا يبقى إلا الإيمان البسيط بالمسيح»(١).

وقد تبنَّى «هليموت ثيليك Helement Thielicke» ذات الموضوع، فقال: «إن الكرازة المسيحية الحقيقية ينبغى أن يصاحبها تبكيت لاذع»، وقال أيضاً: «بينما أنظر إلى المسيحيين من حولى، أعتقد أن طموحهم هو أن يكونوا «عسل العالم»، فيضعون قطع السكر على مرارة الحياة، من خلال تقديمهم فكرة سهلة عن الله المحب. لكن المسيح لم يقل (أنتم عسل العالم) بل (أنتم ملح الأرض). والملح يلذع، والرسالة الطاهرة عن دينونة الله ونعمته لابد أن يكون لها تأثير لاذع»(٢).

وإن كنا ندين ما هو مُزيف وشرير، فيجب أن نمدح ما هو صحيح وصالح، سواء كان فى أقربائنا، أو مدارسنا وجماعاتنا، أو أعمالنا، أو في الدائرة الأوسع فى مجتمعنا، بل حتى فى وسائل الإعلام.

لابد وأن يؤثر الملح المسيحى بأعماله وأقواله. وقد سبق ورأينا أن الله خلق الدولة والأسرة كمؤسستين اجتماعيتين لتحجيم الشر وتشجيع الخير. وعلى المسيحيين مسئولية أن يشجعوا هاتين المؤسستين، لتستمروا فى عملها ولتعملا من منطلق العدل. وكثيراً ما يظن الكارزون أن دورهم الاجتماعى مقصور على مساعدة المجتمع المريض فى نكباته، ولا يعملون شيئاً ليغيروا تركيبات المجتمع التى تسبِّب هذه الأزمات. ولكن، لنتعلم من الطبيب الذى يهتم بعلاج المرضى، كما يهتم بوقايتهم من الأمراض. فعلينا أن نهتم بما يمكن تسميته «الطب الوقائى الاجتماعى و«المقاييس السامية للصحة الأخلاقية».

بل حتى وإن كان الدور الذى سنقوم به صغيراً، فلا يمكن أن نعفى أنفسنا من محاولة خلق كيانات اجتماعية أفضل، ينتشر فيها العدل وسيادة القانون، ويتمتع الشخص العادى بكرامته وحريته، وتنال الأقليات حقوقها المدنية، وتذوب الفوارق الاجتماعية، فهذا جزء من العمل الذى يطالب الرب به شعبه. فكلما كان ضمير المؤمنين حياً، كانوا مثل الملح فى المجتمع، كما قال «فرديدك كاثروود Catherwood»:

(١) مرجع سابق، Luther, P. 55, 56, 59
(٢) مرج سابق، Thielicke, P. 28

«إن محاولة تحسين المجتمع ليست أمراً دنيوياً، لكنها أعمال محبة. فإن غسلت يديك من المجتمع تكون دنيوياً لا مُحباً»[١].

إلا أن الإنسان الساقط يحتاج إلى أكثر من مجرد حوافز، ليتوقف عن فساده. إنه يحتاج إلى تغيير، وإلى حياة جديدة من خلال عمل الإنجيل. وهنا، نجد الإعلان الثانى: «أنتم نور العالم». إن حق الإنجيل هو النور الذى يظهر من خلال الأوانى الخزفية القابلة للكسر، إلا أنه يشع من خلال ضعفنا بنور ظاهر مشرق. وقد دُعينا لننشر الإنجيل، ولنسير فى الإطار الذى يحدده، طاعة للأمر: «عيشوا كما يحق لإنجيل المسيح» (فى ١ :٢٧).

ولا ينبغى أن نعتبر الدعوة لنكون ملح الأرض، والدعوة لنكون نور العالم ـ كدعوتين منفصلتين، كما لا نعتبر مسئوليتنا الاجتماعية والمسئولية الكرازية كمسئوليتين منفصلتين، فنختار إحداهما دون الأخرى. ولا ينبغى أن نهمل أونبالغ فى إحداهما على حساب الأخرى. ولا يمكن أن نعمل أيهما بدلاً من الأخرى، لأن العالم يحتاج لكليهما، فهو «فاسد» يحتاج إلى (ملح)، و«مظلم» يحتاج إلى (نور). والمسيح يدعونا أن نكون الاثنين معاً، ولا شك أن طاعة دعوته مُلزمة.

هناك مؤسسة مسيحية «فى الولايات المتحدة انبثقت من «حركة يسوع» (Movement Jesus) أطلقت على نفسها اسم «يسوع المسيح نور ومركز إشعاع» (Jesus Chris Light and Power House) موجودة فى «ويستوود»، وقد أسسها «هال لينزى» و«بيل كونتس»، وهما من معلمى الكتاب المقدس. و«القوة والإشعاع»، أمران جميلان مرتبطان معاً، حيث نجدهما بالكامل فى شخص المسيح. لكن، تُرى متى شخصٌ يؤسس «مؤسسة يسوع المسيح النور والملح» ؟!

ولقد قامت فى السنوات الأخيرة فى إنجلترا حركات تلقائية بين الشباب سمَّت نفسها «احتفالات النور» (Festival of light). وأنا أشكر الله لأجل البشارة الشجاعة التى يقوم بها شباب هذه الحركات، فهى تعمل على معارضة الفساد الأخلاقى فى المجتمع مع زنا وفحشاء، وفى ذات الوقت، تدعو إلى قانون الله الأخلاقى فى الحياة العامة، من خلال شهادة واضحة عن المسيح. وهذه الحركة يمكن أن تطلق على نفسها اسم «احتفالات الملح والنور».

وفى كل الأحوال، لا ينبغى أن نخجل من دعوتنا لنكون ملحاً ونوراً ـ وإلا فنحن نفرِّق بين ما جمَّعه الله!

(١) Edited by Brian Griffiths (IVP, 1972), p.35

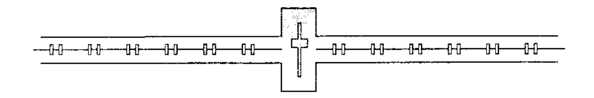
إن الصفات المسيحية التى ذُكرت فى التطويبات، والتأثير المسيحى المُشبَّه بالملح والنور يرتبطان ببعضهما، فتأثيرنا يعتمد على صفاتنا. وتضع التطويبات أمامنا مقاييس دقيقة سامية جداً، ومن المفيد، كخلاصة لهذا الفصل، أن نراجع الفقرتين السابقتين، ونلاحظ دوافع البر التى قدمها لنا المسيح.

أولاً: هذه هي الطريق التى نحصل منها على البركة، فالتطويبات تحدد نوعية الناس الذين يقول المسيح إنهم سعداء مطوَّبون، لأنهم يرضونه وقد وجدوا الشبع فيه. والبركة الحقيقية نجدها فى الصلاح – لا فى شئ آخر.

ثانياً: هذه هي الطريق التى نخدم بها العالم، بأفضل أسلوب، فقد قدم المسيح لأتباعه امتيازاً رائعاً ليكونوا ملح الأرض ونور العالم - إن عاشوا وفقاً للتطويبات.

ثالثاً: هذه هي الطريق التى نمجد بها الله. وفى بداية خدمته الجهارية، قال المسيح لتلاميذه: «فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذى فى السموات». وفى نهاية خدمته، فى العلية، قال قولاً مشابهاً: «بهذا يتمجد أبى. أن تأتوا بثمر كثير فتكونون تلاميذى» (يو ١٥ :٢٨).

فهل نشتهى شهوة عظيمة أن تكون حياتنا حياة صالحة متشبِّهة بالمسيح، وهى حياة الأخلاق المسيحية المختلفة عن أخلاقيات البيئة المحيطة بنا؟ إن هذا سيجلب بركةً لنا، ويكون سبب خلاص للآخرين، وفى النهاية سيتمجد الله.



الباب الثالث

بر المسيحى

[أصحاح ٥ : ١٧ ـ ٤٨]

أولاً: المسيح، والمسيحى، والناموس

(٥ : ١٧ـ٢٠)

«لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلَّم الناس هكذا يُدعى أصغر في ملكوت السماوات. وأما من عمل وعلَّم فهذا يُدعى عظيماً في ملكوت السماوات. فإنى أقول لكم إنكم إن لم يزد برُّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات».

لقد تحدَّث المسيح عن صفات المسيحى، وعن تأثيره فى العالم بفضل ثمر «أعماله الحسنة». ثم بدأ يقدم تعريفاً أعمق لهذه الصفات والأعمال الحسنة، فقال إنها «بر». وكان قد ذكر «البر» مرتين، فقال إن تلاميذه يجوعون إليه (عدد ٦)، ويتألمون من أجله (عدد ١٠). ويتوافق «البر» مع ناموس الله الأخلاقى، ولو أنه يجب أن يزيد على بر الكتبة والفريسيين (عدد ٢٠).

إن «الأعمال الحسنة» هى أعمال طاعة. وفى التطويبات الواردة فى مطلع الموعظة، تحدث المسيح بضمير الغائب «طوبى للمساكين بالروح»، ثم أكمل حديثه بضمير المخاطب «أنتم ملح الأرض». والآن يوجه حديثه مستنداً إلى سلطانه، فيقول لأول مرة: «الحق أقول لكم»(عدد ١٨)، و«فإنى أقول لكم» (عدد ٢٠).

إن هذه الفقرة الكتابية (٥:١٧ـ٢٠) محل دراستنا إنما فى غاية الأهمية؛ لأنها تتحدث عن ماهية البر المسيح، كما تلقى الضوء على العلاقة بين العهدين الجديد والقديم من ناحية، وبين الإنجيل والناموس من ناحية أخرى، وهى تنقسم إلى جزئين: أولهما المسيح والناموس (العددان ١٧ ، ١٨)، وثانيهما المسيحى والناموس (العددان ١٩ ، ٢٠).

١ـ المسيح والناموس (١٧ ، ١٨).

لقد بدأ المسيح حديثه، بأن أخبر تلاميذه أن لا يتخيلوا، ولو للحظة واحدة، أنه جاء لينقض الناموس أو الأنبياء؛ فهو لم يأتِ لينقض أى شئ من العهد القديم (مت ٧ :١٢) . وهذا النفى القاطع منه، يدل على أنه كان يدرك أن البعض بدأ يفكرون أنه جاء لينقض. وبالرغم من أن خدمته الجهارية كانت قد بدأت منذ فترة بسيطة، إلا أن المعاصرين له قد ارتبكوا جداً بخصوص موقفه من العهد القديم؛ فقد نقض السبت، بأن سمح لتلاميذه أن يقطفوا فيه سنابل، وشفى فيه رجلاً يابس اليد (مر ٢ :٢٣ـ٣:٦) . ومنذ بداية خدمته، لابد أن سلطانه قد صدم الشعب، فتساءلوا: ما هذا؟! ماهو هذا التعليم الجديد؟! إنه بسلطان يأمر حتى الأرواح النجسة فتطيعه (مر ١ :٢٧) .

فمن الطبيعى إذاً إن يتساءل الكثيرون عن علاقة سلطانه بسلطان ناموس موسى. كان خضوع الكتبة للناموس واضحاً أمامهم، لأنهم كانوا «معلمى الناموس» المكرسين لشرحه، الخاضعين له والمطالبين بالخضوع له. ولكن هذا الخضوع لم يكن واضحاً فى المسيح، فقد كان يتكلم بسلطانه الشخصى، ويستخدم عبارات وكلمات لم يكن يستخدمها الأنبياء فى القديم أو الكتبة فى عهده؛ **وبهذا أدخل إلى قاموس اللغة كلمات قوية رنانة كقوله: «الحق أقول لكم» ، فهو يتكلم باسمه وبسلطانه**. فماذا عساه يكون سلطانه هذا؟! وهل يعطى لنفسه سلطاناً أعلى من سلطان ناموس موسى المقدس، الذى هو من عند الله؟!

وسواء أفصح سامعوه بهذا، أم لم يفصحوا، فقد أجابهم المسيح بإجابة قاطعة على تساؤلاتهم المسموعة وغير المسموعة، فقال: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء» .

ولازال الناس اليوم يتساءلون (وإن كان بطرق مختلفة) عن العلاقة بين المسيح وموسى، وبين العهدين القديم والجديد. وبما أن المسيح قد حسم هذه القضية بوضوح؛ فعلينا إذاً أن نحذو حذوه.

لقد قال السيد المسيح: «جئتُ» ، فقد أتى إلى العالم فى إرسالية ـ لا لينقض الناموس والأنبياء، ولا ليضعهم جانباً، ولا ليلغيهم، ولا حتى ليصادق على أقوالهم بطريقة باهتة؛ لكنه جاء ليكمِّل الناموس والأنبياء. والفعل «يكمل» [Plerosai] فى اللغة الأصلية يعنى حرفياً «يملأ» . **ويقول**

في ذلك القديس «يوحنا فم الذهب» : «إن قول المسيح ليس معناه العودة للماضى، بل لاستخراج منه وتكميله»[١].

ولكى نستطيع أن ندرك آثار ذلك، يجب أن نتذكر أن «الناموس والأنبياء» (العهد القديم)، يحويان أنواعاً مختلفة من التعليم. وعلاقة المسيح بهذه التعاليم تختلف طبقاً لمحتوى التعليم، لكن كلمة «يكمل» تغطى كل هذه العلاقات على النحو التالى:

أولاً: فى العهد القديم، هناك تعاليم عقائدية فكلمة «التوراة» (وتترجم «ناموس»)، تعنى «تعليمات وإعلانات موحى بها». ويعلمنا العهد القديم عن الله والإنسان والخلاص، وسائر التعاليم العظيمة. لكن هذه الإعلانات الإلهية كانت إعلانات جزئية «أكملها» المسيح فى شخصه، وتعاليمه، وعمله (عب ١:١ ، ٢). ولقد لخص «الأسقف رايل Ryle» هذه الأمور بقوله: «إن العهد القديم هو الإنجيل فى البرعم، لكن العهد الجديد هو الإنجيل فى الزهرة... العهد القديم هو الإنجيل فى ورقة النبات، لكن العهد الجديد هو الإنجيل فى السنبلة الكاملة»[٢].

ثانياً، يحتوي العهد القديم علي نبوات مستقبلية، بالكلام أو بالرموز عن أيام المسيا. وقد «أكمل» المسيح هذه النبوات بتحقيقها فى شخصه، فكانت العبارة الأولى عن خدمته الجهارية: «قد كمل الزمان» (مر ١ :١٥). وأما كلمته المشهورة هنا «جئت»، فهى توضح هذه الحقيقة، وقد قال كثيراً إن الكتاب يشهد له، وكرر «متى القول: «لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل»[٣]. وجاءت القمة فى موته على الصليب، الذى فيه أكمل كل طقوس العهدالقديم من كهنوت وذبائح؛ فتوقفت تلك الطقوس. وعلق «كلفن» على هذا بقوله: «إن استخدام الطقوس هو الذى توقف، أما معانيها فقد أكملت تماماً»[٤]. لقد كانت مجرد «ظل» لما هو قادم، لكن «الحقيقة» ذاتها كانت هي المسيح (كو ٢ :١٧).

(١) مرجع سابق؛ Chrysostom p 229
(٢) J.C.Ryle *Expository thought on the Gospel*, 1856
(٣) (مت ١ :٢٢، ٢ :٢٣، ٣ :٣، ٤ :١٤)، قارن (مت ١١ :١٣) حيث يقول إن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا.. فأشار كلاهما إلى المسيح، وتحققت كل النبوات فيه.
(٤) مرجع سابق؛ Calvin p278

ثالثاً: يحتوي العهد القديم علي ناموس الله الأخلاقى، ولكن الناموس لم يفهموه: ولم يطيعوه. أما المسيح، فأكمله بأن أطاعه. لقد ولد تحت الناموس، و«أكمل كل بر» (غل ٤ :٤، مت ٣ :١٥). ولذلك كتب «بونهوفر»: «لم يكن عند المسيح ما يضيفه إلى وصايا الله إلا أن يحفظها»[١]. لكنه فعل أكثر من مجرد طاعة الناموس، لأنه شرح لتلاميذه مطالب هذه الطاعة، ورفض تفسير الكتبة السطحى للناموس، وقدم وهو بنفسه التفسير الحقيقى. وكان غرضه ـ لا أن يغير الناموس أو يلغيه، بل «ليعلن المعانى التى ينبغى أن نتمسك بها»[٢]. و«أكمل الناموس بأن أعلن مطالب بر الله»[٣]، وهذا ما ركز عليه فى نص (متى ٥)، بأن أعطى أمثلة لذلك ما سنرى.

وعبر العصور المسيحية، لم يستطيع البعض أن يكيفوا أنفسهم مع فكر المسيح عن الناموس فأعاد الهرطوقى الشهير «مارسيون» Marcion (القرن الثانى الميلادى) كتابة العهد الجديد، وحذف منه كل إشارة إلى العهد القديم، وبالطبع حذف منه هذا الجزء[٤] (مت ٥ :١٧ـ٢٠). وكان بعض اتباعه أكثر منه جرأة، فعكسوا وضع الأفعال ليقبلوا المعنى، وكتبوا الآية هكذا: «لم آت لأكمل الناموس والأنبياء، بل لأنقصهم»!! ولازال «لمارسيون» اليوم أتباع يعلمون ما يسمى «الأخلاق الجديدة»، ويقولون إن المسيحية هدمت الناموس بالنسبة للمسيحيين (بالرغم من قول المسيح إنه ما جاء لينقض الناموس أو الأنبياء)، ويقولون إنه ليس هناك ناموس يربط المؤمنين إلا ناموس المحبة، ووصية المحبة هي الوصية الوحيدة الباقية. وسأعود للحديث عن هذا بشئ من التفصيل. ولكن الآن يكفى أن نركز على أن (عدد ١٧) يوضح أن موقف المسيح من العهد القديم ـ ليس نقضه أو وقفه، بل بناءه واستمراره.

وهذا ما علم به الرسول بولس (أع ٢٦ :٢٢، ٢٣)، وعبارته «لأن غاية الناموس هي المسيح» (رو ١٠ :٤) ليس معناها أننا أحرار لنطيع الناموس أو لا نطيعة، بل بالعكس (رو ٨ :٤)، فإن معناها أن قبولنا لله لا يتم من طاعتنا للناموس، بل بإيماننا بالمسيح، وأن الناموس يشهد للأخبار المفرحة عن بر الله (رو ٣ :٢١).

---

(١) مرجع سابق، Bonhoeffer, p 111

(٢) A.H. NcNeile, *The Gospel according to ST Matthew: the Greek text with introduction, notes and indexes.*

(٣) N.B. Stonehous, *The witness of Matthew and Mark to Christ* (Tyndal press 1944) p. 209

(٤) انظر: *against Marcoin*, iv. 7

وبعد أن نبر المسيح على أن هدف مجيئه هو إتمام الناموس، بدأ يذكر سبب هذا ونتيجته. فالسبب هو استمرار ناموس الله إلى أن يكمل (عدد ١٨)، والنتيجة هي طاعة أبناء ملكوت الله للناموس (العددان ١٩ ، ٢٠).

ولقد قال المسيح عن الناموس الذى أتى ليكمله: «الحق أقول لكم. إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد (حتى مجرد الفصلة) أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل (حتى يتم كل شئ). وفى هذه الآية، ذكر «الناموس»، ولم يذكر الأنبياء ٠(كما فى العدد السابق).

وليس معنى هذا أنه أهمل الأنبياء، فكلمة «ناموس» كلمة جامعة تعنى إعلان الله ككل فى العهد القديم حتى يكمل. وهذا الإكمال سيتم عندما تزول السماء والأرض، وذلك فى زمن التجديد وميلاد العالم الجديد (مت ٢٤ :٣٥ ، ١٩ : ٢٨). **وعندما يتوقف التاريخ، لن نحتاج إلى ناموس الله المكتوب، لأن كل ما فيه سيكون قد تم. فالناموس قائم مثل الكون، وإتمام الناموس وميلاد كون جديد سيتمان في وقت واحد، وكلاهما «سيكملان ويتحققان» معاً**. ولا يوجد كلام أكثر وضوحاً من هذا عن رأى المسيح فى العهد القديم (لو ١٦ :١٦ ، ١٧).

٢ـ المسيحي والناموس (١٩ ، ٢٠)

تقدم كلمة «وأما» الاستنتاج الذى قدمه المسيح لتلاميذه عن استمرار الناموس واحترام المسيح له، فهى كلمة توضح العلاقة الجديدة بين ناموس الله وملكوته، ولأن المسيح لم يأت لينقض الناموس بل ليكمله، ولأنه لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يتم كل شئ؛ لهذا فالعظمة فى ملكوت الله تقاس بمقدار طاعتنا للناموس، وتعليمنا الآخرين عن ثبات طبيعته وصاياه، حتى إن كانت هذه الوصايا ليست متساوية ففى العظمة (مت ٢٣ :٢٣)، فلا زالت الوصايا الصغرى هامة لأنها وصايا الله الملك. ومخالفتها تعنى أنها لم تضبط ضمائرنا، وليس لها سلطان على حياتنا؛ فنغضب الله الذى هو مصدرها. إن مخالفة أية «وصية صغرى» بالعمل أو بالتعليم، معناه أنك تحتل مكانة قليلة فى الملكوت. أما العظمة فى الملكوت، فهى للأمناء فى طاعة كل وصايا الناموس والتعليم بها. لذلك، قال «سبرجن Spergeon»: «تعتمد رتب الشرف فى ملكوت المسيح على درجة الطاعة»[١].

(١) C.H Spurgeon, The Gospel of kingdom (Passmore and Alabaster, 1893). p25

ثم انتقل المسيح إلى بعد آخر، فقال إن العظمة فى الملكوت لا تقدر بالبر الذى يطلبه الناموس فقط، فإن دخول الملكوت مستحيل بدون بر يزيد على بر الكتبة والفريسيين، فملكوت الله ملكوت بر. وقد يعترض البعض بأن الكتبة والفريسيين مشهود لهم بالبر، وكانت طاعة ناموس الله وصية للتنفيذ، و(٣٦٥) وصية للنهى، وكانوا يتوقون لحفظها كلها.. فكيف يمكن أن يزيد «بر المسيحى» على «بر الكتبة والفريسيين» ؟ وكيف يمكن لمثل هذا «البر» السامى أن يكون شرطاً لدخول ملكوت الله ؟ أليس فى هذه العبارة تعليم عن أن الخلاص هو بالأعمال الصالحة، وبالتالى فهو يتناقض مع التطويبة الأولى التى تقول إن ملكوت السماوات هو «للمساكين بالروح» الذين لا يمتلكون براً يقدمونه ؟!

لابد أن عبارات المسيح هذه أصابت سامعيه بالدهشة، كما تصيبنا نحن أيضاً. ولا يصعب علينا أن نجد جواباً لمثل هذه الأسئلة، فإن «بر المسيحى» يسمو على «بر الفريسيين» فى نوعيته ـ لا فى كميته. فليس المقصود أن ينجح المسيحيون فى حفظ عدد من الوصايا أكثر من نجاح الفريسيين (كأن يحفظ المؤمن ٢٤٠ وصية، بينما يحفظ الفريسيون ٢٣٠ !) «**فبر المسيحى» أعظم من بر الفريسيين، بمعنى أنه أعمق؛ لأنه من القلب. قد تحدث** العالم عما سماه «سيجموند فرويد» «علم نفس الأعماق» (Depth - psychology)، وكان حديث المسيح هنا عن «أخلاقيات الأعماق». **لقد كان اهتمام الفريسيين بالطاعة الخارجية الشكلية واتباع الناموس حرفياً، ولكن المسيح يطلب أعمق من هذا بكثير جداً. إنه لا يكتفى بمجرد الشكليات، فالبر الذى يرضى الله هو البر الداخلى: بر الفكر وبر الدوافع، لأن الرب ينظر إلى القلب (١صم ١٦ :١٧ ولو ١٦ :١٥)**.

إنه بر القلب الجديد الذى تكلم عنه الأنبياء بروح النبوة، ورأوه كأحد علامات عصر المسيا، فوعد الله هو: «أجعل شريعتى فى داخلهم واكتبها على قلوبهم» (إر ٣١ :٣٣)، ويتم هذا. بقول الرب لحزقيال: «وأجعل روحى داخلكم وأجعلكم تسلكون فى فرائضي» (حز ٣٦ :٢٧). وهنا وعدان: أن يضع الله شريعته فى داخلنا، وكذا وروحه فى داخلنا. ولا ينبغى أن نتخيل أنه عندما يسكن فينا روح الله نستغنى عن الناموس، لأن الروح القدس يكتب الشريعة فى قلوبنا. وهنا علاقة وثيقة بين «الروح» و«الناموس»، و«البر» و«القلب».

لقد ظن الفريسيون أن كمال البر يكون فى مجرد إتمام مظاهر الناموس الخارجية. غير أن طائفة يهودية (هى مذهب الغيورين فى قمران)، كان يقودها شخص يدعى «معلم البر»، كانت أكثر تدقيقاً، فجاء فى الرقوق التى وجدت فى منطقة «البحر الميت» أن مطالب الناموس تطالب بمجهود أكبر، وهى أكثر صرامة مما يفعله الفريسيون. وقد طلب من أتباع مذهبه طاعة

جذرية لكل الناموس.. وإن كان هذا المذهب يدعو إلى «طاعة أكثر وأكثر، فإن المسيح طلب «طاعة أعمق وأعمق»(١). وهنا يأتى البر القلبى الداخلى بهذه الطاعة العميقة؛ الأمر الذى لا يمكن حدوثه إلا للذين جددهم روح الله وسكن فيهم. لهذا، فالدخول إلى ملكوت الله مستحيل بدون «بر أعظم وأعمق» من «بر الفريسيين»، لأن فعل هذا البر دليل على الولادة الثانية، حيث لن يدخل ملكوت الله أحد إن لم يولد ثانية (يو ٣:٣ ، ٥).

ويحتوى باقى (متى ٥) على أمثلة «للبر الأعظم والأعمق»، ويتكون من ست فقرات متوازية تشرح المبدأ الذى يعلنه المسيح فى (أعداد ١٧ـ٢٠) عن استمرارية الناموس الأخلاقى الذى جاء ليكمله لا لينقضه، وعن مسئولية تلاميذه فى طاعة الناموس، بطريقة أكمل من طاعة الكتبة والفريسيين له. وتحتوى كل فقرة من هذه الفقرات على أمرين هما: «سمعتم أنه قيل للقدماء.. وأما أنا فأقول لكم» (مت ٥:٢١ ، ٢٢).

ولكن، ترى ما هما هذان الأمران؟ واضح أن المسيح هو القائل: «أنا»، فعن من يقول: «سمعتم»؟! سمعتم من من؟

المهم أن نبحث هذا السؤال، الآن، قبل أن نتأمل هذه الاختلافات والتباينات الستة فى الفصول الثلاثة القادمة بشئ من التفصيل.

ولقد قال كثير من المفسرين إن المسيح «يختلف» مع الأخلاقيات القديمة، ويعلم أخلاقيات جديدة، فهو يناقض القديم ويرفضه، لذلك بدأ كل فقرة بما معناه: «تعرفون تعليم العهد القديم عن... لكنى سأعلمكم أمراً مختلفاً». ومع أن هذا التفسير شائع، لكنى لن أتردد أن أعلن أنه خاطئ، لا يمكن الدفاع عنه أو تأييده. فلم يكن المسيح يعارض الناموس فى ذاته، لكنه كان يعارض (بعض التحويرات) التى أدخلها الكتبة والفريسيون عليه. ولم يحدث أن المسيح عارض الناموس، لكنه صدق عليه وأيده، ونبر على سلطانه، وقدم التفسير الحقيقى له. وهناك أربعة أدلة على صدق هذا:

أولاً: مادة العبارات المختلفة المتباينة ذاتها:

يبدو من النظرة الأولى فى كل فقرة أن ما قاله المسح مقتبس من ناموس موسى. وتتكون كل الأمثلة الستة، إما من جزء منه أو أنها تحتوى على جزء منه، فمثلاً: «لا تقتل» (عدد ٢١).. «لا

(١) مرجع سابق، Davis, P216

تزن» (عدد ٢٧) ... «من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق» (عدد ٣١) . إلى أن تصل إلى العبارة السادسة والأخيرة: «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك» (عدد٤٣) . فجزؤها الأول مقتبس من ناموس موسى (لا ١٩ :١٨) بدون ذكر «كنفسك» ، أما جزؤها الثانى (تبغض عدوك) فلم يرد أبداً فى الناموس، لا فى سفر لاويين (١٩ :١٨)، ولا فى أى مكان آخر من العهد القديم إذا، فنحن أمام إضافة للناموس وضعها أحد المفسرين . ولكنه شوه بها الناموس.

وعندما ندقق أكثر فى بقية التباينات والاختلافات الخمسة (كما سنفعل فى الفصول التالية)؛ سنجد تحريفات مماثلة أدخلها الكتبة والفريسيون ورفضها المسيح، لكنه لم يرفض الناموس ذاته . ففى وصيته الأولى والثانية لا يقول: «سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل ولا تزن أما أنا فأقول لكم أن هذا ممكن» ، لكنه يقول ما معناه: «أما أنا فأقول أن لا تغضبوا، ولا تفكروا أفكاراً شهوانية» .

ثانياً: استخدم المسيح عبارة فى مقدمة هذه الفقرات، هي «سمعتم أنه قيل للقدماء (العددان ٢١ ، ٢٣)» (الأعداد ٢٧ ، ٣٨ ، ٤٣)، أو باختصار: «قيل» (عدد٣١) . والكلمة المشتركة بينها كلها هي «قيل» وهى كلمة (فى اللغة اليونانية) غير الكلمة التى كان المسيح يستخدمها عن اقتباسه من كلمة الله، فعندما كان يقتبس من العهد القديم كان يستخدم فعلاً مختلفاً (gegraptai) يترجم «مكتوب»، وليس الفعل (   ) الذى معناه «قيل» . وفى هذه المواضع الستة كان المسيح يناقض ـ لا كلمة الله المكتوبة التى كانوا «يقرأونها» ، بل تقاليد الشيوخ الشفاهية التى كان «القدماء يسمعونها» من الكتبة الذين «يقولونها فى المجامع (قارن مت١٢ :٣ ، ٥و١٩ :٤و٢١ :١٦ ، ٤٢و٢٢ :٣١) .

ولقد أكبد البروفسور «دافيد داوب» (صاحب دراسة المعرفة الوثقية بمعلمى الناموس) هذا الأمر، فقال إن الفعل «سمعتم» يعنى معرفة سطحية وحرفية لمعانى كلمة الله. ففى العبارتين: («سمعتم أنه قيل.. أما أنا فأقول») اللتين استخدمهما المسيح فى تقديم الاختلافات والتباينات الستة، نجد فى «سمعتم» أمراً ذا تفسير جامد ضيق الأفق . لكن فى العبارة الثانية (أما أنا فأقول) نجد تطبيقات حية واسعة الأفق. ومن هاتين العبارتين ندرك أن المسيح كان يريد أن يسمو بالناموس – لا أن يهدمه، وأن يقدمه فى معناه الكامل فى العهد الجديد. لقد كشف عمق الناموس ولم يحذفه[1] .

---

(١) مرجع سابق، David Daube P. 55-60

وباختصار، نقول إن المسيح (بسبب تشويه الكتبة والفريسيين للناموس) قدم تعليمه المختلف والمتباين، لكن في ضوء الناموس نفسه. فتكون كلمة «شرح» هي الكلمة المناسبة لما قاله المسيح. فلم يكن المسيح يجادل حول الناموس في حد ذاته، لأنه هو وقادة اليهود كانوا مصادقين تماماً على سلطان الله الإلهى في الناموس. لكنه كان يجادل حول التفسير الصحيح للناموس.

ثالثاً: يجب أن نلاحظ القرينة المباشرة:

سبق ورأينا أنه فى الأعداد السابقة لهذه الاختلافات والتباينات (١٧-٢٠) أكد المسيح موقفه من الناموس والموقف الذى ينبغى أنى يأخذه تلاميذه منه. فمن جانبه هو «يكمل» الناموس، ومن جانبهم ينبغى أن «يطيعوه». ثم قال إنه لن يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس قبل إتمام الكل. وهذا يعنى أننا يجب أن نطيع كل الوصايا - حتى الأصغر منها. فهل كان المسيح يناقض نفسه، فيقول إنه لم يأت لينقض الناموس، وإن أتباعه يجب أن يحذوا حذوه، ثم نجده يفعل العكس؟ فإن كان المسيح يناقض موسى؛ يكون فى الوقت نفسه مناقضاً لنفسه!

كتب «و.ك. ألن Allen»: «لقد بذل المفسرون كل الجهد واستخدموا خيالهم الواسع فى محاولة تفسير هذا الجزء»[٢]. ومع هذا، فقد استخدم «ألن» «خياله الواسع» وافترض أن (عددى ١٨ ، ١٩) «لايوجدان أصلاً فى الموعظة، لكن الكاتب أضافهما». وبرر تفسيره هذا بقوله: «إن الموقف تجاه الناموس فى هذا الجزء لا يتفق مع مضمون بقية الموعظة». ونقول إن هذه النظرة غير الموضوعية، كما أنها لا تحل المعضلة. كل ما نجحت فيه أنها أزالت ما يفترض أنه تناقض فى تعليم المسيح، وعزت كتابة هاتين الآيتين إلى كاتب الإنجيل (متى)، أو إلى بعض مؤمنى الكنيسة الأولى. والتفسير الصحيح هو أن نقبل (الأعداد ١٧-٢٠)، باعتبارها جزءاً حقيقياً أصلياً فى الموعظة، ثم نوضح تطابقها مع الموعظة ككل، ومع بقية تعاليم المسيح المدونة فى كلمة الله. وهذا يأتى بنا إلى الدليل الرابع:

---

(١) W.C. Allen, *A critical and exegetical commentary an the Gospel according to St Matthew* (international critical commentary, 1907: T and T.clark3rd edition, 1912).

رابعاً: كان للمسيح موقف معروف تجاه الناموس،

فى الأصحاح السابق من إنجيل متى، نقرأ أن إبليس جربه فى البرية، بعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة. وفى كل تجربة واجه المسيح إبليس باقتباس مناسب مكتوب فى العهد القديم. ولم يكن يحاج الشيطان أو يجادله، لكنه كان يواجهه بالسلاح الذى واجهه به منذ البداية: «مكتوب» (gegraptai فى اللغة الأصلية). واستمر «الكلمة المتجسد» يخضع للكلمة المكتوبة طوال حياته على الأرض، لا فى سلوكه الشخصى فحسب، لكن فى كلماته ورسالته أيضاً. لقد كان حاسماً فى إتمام ما كتب عنه، ولم ينحرف عن الطريق الذى رسمته الكلمة أمامه. لذلك، فإعلانه أنه جاء، لا ينقض الناموس أو الأنبياء، بل ليكملهما (مت ٥ :١٧)، يتفق تماماً مع موقفه العام الدائم إزاء الكلمة فى كل مكان.

ومن هذه الدلائل الأربعة، ندرك أن المسيح لم يناقض موسى، ولا العهدالجديد قد ناقض القديم، ولا الإنجيل قد ناقض الناموس، بل إن المسيح قدم التفسير الحقيقى للناموس، وناقض تفسير الكتبة الخاطئ، وبالتالى يكون التناقض بين «بر المسيح» و«وبر الفريسيين» (كما جاء فى عهد ٢٠).

إذا ما الذى كان يفعله الكتبة والفريسيون؟ وما هي «الطرق الملتوية»[1] (كما وصفها كلفن) التى زيفوا بها الناموس؟

لقد كانوا يحاولوا أن يقللوا من تحديات الناموس للناس، وأن يشجعوهم على الحياة الأخلاقية السهلة، بأن ينقضوا إحدى الوصايا الصغرى (عدد١٩). لقد وجدوا فى التوراة نيراً ثقيلاً، فأرادوا أن يجعلوا النير هينا والحمل خفيفاً.. ففعلوا ذلك بطرق مختلفة تعتمد على نوعية الوصية، فقالوا إن هناك وصايا الفروض والنواهى، وهناك المحللات والمسموحات.

وقد تحدث المسيح عن أربع «وصايا». ثلاث سلبية «لا تقتل. لا تزن. لا تحنث» (أى لا تحلف كذباً)، والرابعة إيجابية «تحب قريبك». وهذه الوصايا الأربع صريحة من الله، إما بأن «تفعل» أو «لا تفعل». ثم تحدث المسيح عن اثنتين من «المحللات والمسموحات»، أولاهما فى ما يختص بالطلاق، الذى لم يوحى به الله، لكنه سمح به فى ظروف معينة.. وبشروط معينة وثانيتهما فى ما يختص بالجزاء «عين بعين» والذى كان يسمح به فى ساحات القضاء، وكان تنفيذه مقصوراً على ما يحكم به قضاة بنى إسرائيل على المذنبين.. فقد كانت هناك حدود واضحة لاستخدام هذين الأمرين المسموح بهما.

---

(١) مرجع سابق؛ Calvin, P282

والذى فعله الكتبة والفريسيون لتسهيل طاعة الناموس، أنهم حدوا من وصايا الناموس، وضخموا من مسموحات الناموس، فجعلوا متطلبات الناموس أقل مما هو مكتوب، وجعلوا مسموحات الناموس أكثر مما هو مكتوب. فاختلف المسيح معهم، فى أنه أعاد الوضع إلى طبيعتة الأصلية، بأن أصر على قبول كل وصايا ناموس الله وطاعتها طاعة غير محدودة. وأصر على قبول الحدود التى وضعها الله لما هو مسموح، بدون أيه زيادة. ومن المفيد أن نستعرض هذه التناقضات فى عجالة قبل أن ندرسها بالتفصيل.

لقد حدد الكتبة والفريسيون الوصايا الكتابية «لا تقتل» و«لا تزن و لا تسرق» ، إلى ذات الفعل. لكن المسيح ذهب إلى أبعد من مجرد رفض الفعل ومنع الدافع على الفعل، وهو الغضب والاشتهاء.

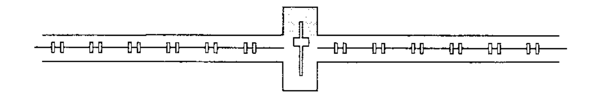
ولقد حصر الكتبة والفريسيون الوصية بعدم الحلف كذباً على القسم الذى يشمل لفظ الجلالة، وحصروا الوصية بمحبة الأقرباء على بعض الأقارب (الذين يشتركون معهم فى الجنس والدين). **لكن المسيح قال إن كل الوعود التى يقطعها الإنسان على نفسه ينبغى أن تحفظ، وإن المحبة يجب أن تشمل كل الناس بدون أى حدود.**

ولم يجد الكتبة والفريسيون وصايا الناموس، لتتفق مع قناعاتهم فحسب، لكنهم ذهبوا إلى أكثر من هذا، فبدأوا يمدون مظلة الأمور التى سمح الله بها مدا بغير حدود، فوسعوا دائرة السماح بالطلاق، وبدلاً من تحديده بخيانة أحد الزوجين، سمحوا به لمجرد رغبة الزوج. ووسعوا دائرة الجزاء لتشمل الانتقام الشخصى، بالإضافة إلى التأديب الذى تحكم به المحاكم. **فأكد المسيح على حدود هذه النصوص في الناموس، وسمى الطلاق خارج حدود هذه النصوص بأنه «زنى» ، وركز على عدم الانتقام الشخصى.**

وهذه النظرة المبدئية السريعة لهذه الاختلافات والتباينات التى قدمها المسيح، إنما تدل على أنه لم يناقض ناموس موسى إطلاقاً، بل على العكس، فإن الذين ناقضوه هم الفريسيون. **أما المسيح فقد فسر المعنى الحقيقى للناموس الأخلاقى، بكل ما يحمله من معانى، قد لا تريح البعض، فوسع دائرة الوصايا التى حدها الكتبة والفريسيون، ووضع حدوداً للمسموحات التى أكثروا حدودها.** فبالنسبة للمسيح، كان ناموس موسى هو ناموس الله، فخضع له، وقال إنه يصلح لكل العصور. ولذلك قال «كلفن» فى حديثه عن

الموعظة على الجبل: «لم يضع المسيح ناموساً جديداً، لكنه كان الشارح الأمين للناموس القديم»[1] ... «لقد حجب الفريسيون الناموس، لكن المسيح أعاد له هيبته وسلطانه»[2].

فكل الذين يقولون إن «الموعظة على الجبل» مجرد «أخلاقيات جديدة»، هم فى الواقع يفعلون ما فعله الفريسيون من قبلهم. ومع أنهم يقفون نفس موقف المسيح ضد الفريسيين، إلا أنهم يقفون من سلطته، وينفكوا من قيوده، فيقولون إنه قد نقض (مع أن المسيح قال بصراحة إنه لم يأت لينقضه)، وينادون بأن الناموس والمحبة متناقضان (الأمر الذى لم يقله المسيح إطلاقاً). **ومع أن المسيح لم يوافق على تفسير الفريسيين للناموس، لكنه لم يعترض أبداً على قبولهم لسلطان الناموس، بل نبر بكلمات قوية جداً على سلطانه، لأنه جزء من كلمة الله المكتوبة، وطالب تلاميذه أن يقبلوا التفسير الصحيح العميق له.**



(١) المراجع السابق؛ ص ٢٩٠
(٢) المرجع السابق؛ الجزء الثامن، ص ٧

ثانيا: تجنب الغضب والشهوة

(٥ : ٢١ـ٣٠)

يتصل المثلان الأولان اللذان قدمهما المسيح شرحاً لموضوع أنه لا ينقض مطالب الناموس بل يعمقها، يتصلان بالوصيتين السادسة والسابعة من الوصايا العشر، وهما «لا تقتل.. لا تزن».

١ـ تجنب الغضب (٢١ـ٢٦)

«قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل، ومن قتل يكون مستوجب الحكم. وأما أنا فأقول لكم إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم. ومن قال لأخيه رقاً، يكون مستوجب المجمع. ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم. فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك. وحينئذ تعال وقدم قربانك. كن مراضياً لخصمك سريعاً ما دمت معه في الطريق لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرطى فتلقى في السجن. الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفى الفلس الأخير».

من الأفضل أن تترجم وصية «لا تقتل» إلى: لا ترتكب القتل» (كما وردت فى ترجمة NEB) لأن الوصية أصلاً لا تعنى تحريم قتل النفس البشرية فى كل الظروف والأحوال، لكنها تحرم قتل النفس بارتكاب جريمة.

ونحن نسأل الذى يجاهدون لمنع «الحكم بالإعدام» على أساس أن نفس الجانى لا نبغى أن تسلب منه: هل نسيتم أن هذا الجانى سلب نفس ضحية ثمينة أيضاً؟ إن سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه، لأن الله خلق الإنسان على صورته (تك ٩ :٦).

كما نسأل الذين يدافعون عن فكرة الصلح غير المشروط: هل نسيتم أن قتل البشر، أو إحداث عاهة أمر لا يُغتفر؟ لقد أعطى الله المجتمع (سواء من خلال سلطات الدولة، أو على مستوى أشمل، من خلال السلطات الدولية) الحق، بل ومسئولية معاقبة فاعلى الشر (رو ١٣ :١).

وقد ذكرنا هذه الأمور هنا، لا لنناقش هذه القضية المعقدة، التى تشمل الموت فى الحروب أو الموت بالحكم بالإعدام، لكن لنقول إنه لا يمكن مناقشة هذه القضية، ونحن نتأمل وصية «لاتقتل».

وقد حاول الكتبة والفريسيون أن يحدوا من تطبيقات الوصية السادسة، لتشمل فعل القتل فقط بمعنى سفك دم الضحية. فإذا امتنع الإنسان عن فعل القتل؛ يكون قد حفظ الوصية. ولعل هذا ما علّمه الناموسيون للشعب. **لكن المسيح خالفهم في الرأى، وعلّم أن التطبيق الصحيح لهذا الأمر يشمل أبعاداً أعمق من مجرد القتل، فهو يشمل الفكر والقول والعمل والغضب والسب، كما يشمل القتل أيضاً.**

وقد جاء ذكر الغضب فى بداية (عدد ٢٢) «كل من يغضب على أخيه باطلاً. وفى أغلب الترجمات اليونانية، نجد أن كلمة «باطلاً» (أى بدون سبب) مُضافة لكلمات المسيح، وغير موجودة فى أفضل النسخ. ويبدو أنها كلمة تفسيرية، فحُذفت من الترجمات الحديثة. لكن لدينا من الأدلة على أن هذه الكلمة التفسيرية تفسر ما قصده المسيح فعلاً. فليس كل الغضب شراً، لأن هناك غضب الله المقدس والنقى. وحتى الإنسان الساقط يغضب أحياناً غضب مفيداً. ومع أنه ساقط، إلا أنه أحياناً يكون بطئ الغضب، سريع الهدوء (أف ٤ :٢٦، ٢٧ و يع ١ :١٩).

وقد عرف «لوثر» من حياته واختباراته معنى الغضب الصحيح، فسمّاه «غضب المحبة»، الذى لا يريد شراً لأحد، لأنه يفيد المخطئ ويعادى الخطأ» . وأما الغضب الذى أشار إليه المسيح، فهو الغضب الخاطئ، غضب الكبرياء والكراهية والحسد والانتقام.

وفى نهاية (عدد ٢٢) ينهى المسيح أن يقول الإنسان لأخيه «رقا» (Raca)، وهى كلمة يونانية معناها «تافه». وينهى عن قول «يا أحمق». ويبدو أن كلمة (رقا) هي الطعن فى ذكاء الإنسان، لأنها تعنى «يا فارغ العقل». وقد ذكر كثيرون من الشرّاح معانى هذه الكلمة، فهناك من قال إنها تعنى «غبى[1] أو «جامد التفكير»[2] أو «بليد الفهم»[3] أو «أبله». وكلمة أحمق (غبى، جاهل، باطل) لا يمكن أن تفيد المعنى الحرفى، لأن المسيح نفسه استخدمها فى وصف الفريسيين، وحتى فى وصف تلاميذه (مت ٢٣ :١٧، لو ٢٤ :٢٥). وفى بعض الأحيان استخدمها الرسل فى توجيه اللوم لقرّائهم (١كو ١٥ :٣٦ وغل ٣ :١ ويع ٢ :٢٠). فعلينا أن نتذكر أن لهذه الكلمة استخداماً دينياً، واستخداماً أخلاقياً، فقد أطلقت فى العهد القدم على الذين ينكرون وجود الله. فينغمسون فى عمل الشر والنجاسة (مز ١٤ :١ـ٤ و٥٣ :١ـ٤). إلا أن بعض المفسرين قالوا إن كلمة «يا أحمق» فى العبرية تعنى «يا عاصى»، «ياهرطوقى»، «يامنبوذ».

---

(١) مرجع سابق؛ Tasker, P 68
(٢) مرجع سابق؛ Hunter, p 50
(٣) مرجع سابق؛ Leneski, P217, 218

وقال «تاسكر»: «إن الإنسان الذي يقول لأخيه: أذهب إلى الجحيم، يكون هو نفسه مستوجب نار جهنم»(١).

وبالرغم من ذلك، فهناك بعض الشكوك حول المعنى الأساسي لهاتين الكلمتين البطالتين، فواضح أنهما كلمتان مستهجنتان، لأنهما شتيمتان، جاءتا في ترجمة (NEB) في صورة أعم: «من أساء إلى أخيه.. ومن سخر بأخيه» وقد ذكر «أ.ب. بروس» الفرق الجوهري بين الكلمتين فقال «(رقا) تُعبِّر عن أستخفاف بالعقل البشري، وكأننا نقول له: أنت غبي. لكن (أحمق) تعبِّر عن الاستخفاف بصفاته وعقله، وكأنك تقول له: أنت عديم الشرف»(٢). وإن كان هذان الأمران (كلمات الغضب، وكلمات الشتيمة) قد لا يؤديان إلى قتل حرفي، ولكنهما في نظر الله بمثابة القتل.

لذلك قال يوحنا الرسول: «كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس» (١يو ٣:١٥). فالغضب والشتيمة أعراض رغبة في التخلص من شخص يقف في طريقك. وأفكارنا ونظراتنا، بل وكلماتنا تعبر عن هذا. فأحياناً نتجرأ ونقول لشخص: «نتمنى أن تموت». ومثل هذه الأمنية الشريرة هي ما ترفضه روح الوصية السادسة، وهي تجعل المذنب معرضاً لكل العقوبات التي يتعرض لها القاتل - لا أمام المحاكم البشرية (لأنه لا توجد محكمة تعاقب الإنسان على الغضب)، لكن أمام الله.

وقد بحث الكثيرون في المعنى الأساسي للأحكام الصادرة على من يقول هاتين الكلمتين، وواضح من كلام المسيح أنه كان يتكلم عن دينونة إلهية. فمعلمو الناموس كانوا يعلِّمون أن المقصود بالوصية السادسة هو القتل بمعنى سفك الدماء، وأن العقوبة الوحيدة لهذه الجريمة هي الإعدام «من قتل يكون مستوجب الحكم» (عدد ٢١). فأضاف المسيح أن أي غضب، بدون سبب، يكون أيضاً مستوجباً الحكم.. وبالرغم من أن كلمة «الحكم» التي استُخدمت في (العددين ٢١، ٢٢) هي ذات الكلمة، لكن في (عدد٢٢) يُقصد بالحكم «حكم الله» - لا حكم البشر، لأنه لا توجد محكمة بشرية تعاقب على الغضب الداخلي. وعلى هذا المنوال، استمر المسيح في حديثه ليقول إن الشتيمة لا تعرِّضنا للمحاكمة أمام المجمع فحسب بل أيضاً تعرضنا لنار جهنم. وفي الحالتين، يقدم المسيح تصوراً أوسع لنوعية العقوبات ولطبيعة الجرائم، فالغضب والشتيمة تعادلان القتل، لكن عقابهما هو دينونة إلهية في نار جهنم.

ويستكمل المسيح حديثه، ويقول: «فإن» (عدد ٢٣)، ويقدم تطبيقاً عملياً للمبادئ التي تكلم

(١) مرجع سابق؛ Tasker, P 69
(٢) مرجع سابق؛ Brouce, P107

عنها، فيضع أمامنا تحدِّياً: إن كان الغضب والشتيمة بمثل هذه الخطورة؛ فعلينا أن نتجنبهما مثل تجنبنا لأى وباء، وعلينا أن نأخذ منهما موقفاً بأقصى سرعة. ولهذا قدَّم مثلين: الأول من خلال شخص يذهب إلى الهيكل ومعه ذبيحة لله (العددان ٢٣ ، ٢٤)، والثانى عن شخص يذهب إلى ساحة القضاء ليقدم دعوى على خصمه (العددان ٢٥ ، ٢٦). وكان هذان المثلان مفهومين فى ذلك الوقت، فقد كان الهيكل موجوداً والذبائح ما زالت تُقدَّم.

ولعلنا نستطيع أن نترجم هذين المثلين بمثلين معاصرين، فنقول: «إن كنت فى الكنيسة، فى وسط العبادة، وفجأة تذكرت أنك سبَّبت لأخيك حزناً، اترك الكنيسة فى الحال واذهب إليه، لا تنتظر حتى تنتهى العبادة. ابحث عن أخيك، واطلب منه الغفران. اذهب أولاً، إليه، ثم تعال إلى الكنيسة. اذهب، أولاً، اصطلح مع أخيك، ثم تعال وقدِّم عبادتك لله».

«وإن كان عليك دين وأخذك الدائن للمحكمة ليسترد دينه، فاصطلح معه سريعاً. حُلَّ مشاكلك خارج ساحة القضاء، حتى إن كنت فى طريقك للمحكمة. ادفع دينك سريعاً، قبل أن تصل إلى المحكمة، لأنك إن دخلت قاعة المحكمة؛ سيكون الوقت متأخراً والفرصة ضاعت. سيرفع خصمك دعواه أمام القاضى، فيحكم عليك القاضى، وستجد نفسك فى السجن. ولن تخرج منه حتى توفى الفلس الأخير».

والمثلان مختلفان أحدهما أخذ من مكان العبادة، والثانى من قاعة المحكمة. الأول يختص بالأخ (عدد ٢٣)، والثانى بالخصم (عدد ٢٥). لكن الظروف في الحالتين متشابهة: هناك شخص أوذى بسببك. والدرس الأساسى منهما واحد: عليك أن تتخذ موقفاً سريعاً. في العبادة، إذا تذكرنا أننا سببنا حزناً لشخص ما، علينا أن نقطع عبادتنا ونسوى أمورنا مع هذا الشخص. وفى طريق ذهابنا للمحكمة، علينا أن نوفى ديوننا.

لكن كم من مرة لم نصغِ لدعوة الله لنا لنتصرف بسرعة! فإن كان القتل جريمة، فإن الغضب الخاطئ والشتيمة لا يقلان شناعة. وهذا ينطبق على كل عمل، أو كلمة، أو نظرة. أو فكر، يؤذى الآخرين. فلتكن لنا الحواس المدربة، لتتجنب مثل هذه الأخطاء. ينبغى أن لا نسمح باستمرار الخصام. لا تتوانَ فى فعل الشئ السليم الذى أوصى به المسيح. لا تسمح للشمس أن تغرب على غيظك، وحالما تدرك أن هناك شرخاً بادر بإصلاحه. اعتذر لمن أسأت إليه، وسدِّد دينك.

هذه تعاليم منطقية، فسرَّ بها المسيح الوصية السادسة «لا تقتل». وإن كنت تريد أن تتجنب ارتكابِ القتل (فى نظر الله)، افعل كا ما فى وسعك بإيجابية، لتعيش فى سلام وحب مع جميع الناس.

٢ـ تجنب الشهوة (٢٧ ـ ٣٠)

«قد سمعتم أنه قيل للقدماء: لا تزن. وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقعلها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله في جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله في جهنم».

لقد انتقل المسيح من شرح الوصية السادسة، ليشرح الوصية السابعة التى تنهى عن الزنى. ومرة أخرى، حاول معلمو الناموس أن يحدوا من دائرة الوصية التى تقول «لا تزن»، مع أن الوصية العاشر، تنهى عن اشتهاء امرأة القريب، لكنهم وجدوا أنه من الأفضل أن يتجاهلوا الوصية العاشر، وقالوا إن كونهم يتجنبون «الزنا الجسدى الفعلى»، فهذا معناه أن أجسادهم (بل وعيونهم) قد حفظت الوصية السابعة. وبهذا، حصروا معنى الخطية الجنسية فى إطار ضيق، وفى ذات الوقت وضعوا الطهار الجنسية فى إطار متَّسع متسبب.

لكن المسيح أتى ليعلِّم تعليماً مخالفاً، فوسَّع تعريف الخطية الجنسية. وفى ذات الوقت، أكد على المعنى الحقيقى للزنا. **وكما أن النهى عن «القتل» يشمل أفكار الغضب وكلمات الشتيمة، هكذا النهى عن «الزنا» يشمل نظرات الشهوة وتخيُّلها. من الممكن أن نقتل بكلماتنا، ومن الممكن أن نزنى بقلوبنا وأفكارنا «من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه» (عدد ٢٨).**

وعلينا أن نوضح نقطتين قبل أن نستمر فى الحديث:

الأولى، لا يوجد هنا، ولو مجرد تلميح من بعيد أو قريب، عن النهى عن العلاقة الجنسية الطبيعية فى إطار الزواج، فهى صالحة وممتعة، لأن الله أعطاها لنا. ونحن نشكر الله لأن سفر «نشيد الأنشاد» موجود بين أسفار الوحى المقدس، فلا نجد فيه الحشمة المتكلفة التى كانت سائدة فى العصر الفيكتورى، لكن نجد فيه فرحاً وسعادة غير محدودين بين الحبيبين: العريس والعروس. وتعليم المسيح، هنا، يشير إلى علاقة جنسيه غير لائقة خارج نطاق الزواج، سواء مارسها شخص متزوج أو غير متزوج. وهنا، نهانا الرب ـ لا أن «ننظر» إلى المرأة، لكن أن «ننظر» إليها بشهوة. وكلنا نعرف الفرق بين النظر والاشتهاء.

أما النقطة الثانية، فهى أن إشارة المسيح تنصبُ على كل أنواع العلاقات غير السليمة. فكلام الرب موجَّه للرجال الذين يشتهون النساء والعكس، وللرجال والنساء المتزوجين وغير المتزوجين على السواء. فالعلاقة غير السليمة «زنا وفسق». وكل من يقول غير هذا، يماثل الفريسيين الذين أدانهم المسيح بشدة. لقد ركز المسيح على أن العلاقة الجنسية الفاسدة، من خلال الممارسة العملية، هي أيضاً فاسدة، من خلال النظر، أو من خلال الفكر.

أما الأمر الأساسى، الذى ينبغى أن ندركه من تعليم المسيح، فهو أن النظرة الشهوانية معناها «زنا» فى القلب، فهناك علاقة وثيقة بين العين والقلب، الأمر الذى جعل المسيح يضع أمامنا فى العددين التاليين بعض الأمور العملية التى تساعدنا لنحيا فى طهارة جنسية.

والفكر هنا هى: إن كانت النظرة الشهوانية تؤدى إلى «زنا» فى القلب، أو بلغة أخرى إن كان «زنا القلب» ناتجاً عن «الزنا العين» (فعين القلب تُثار من عين الجسد)؛ لذلك فالوسيط الوحيد لحل هذه المشكلة من بدايتها هو التعامل مع (العين). ولقد صدق أيوب عندما قال: «عهداً قطعت لعينَّى فكيف اتطلع فى عذراء.. إن حادت خطواتى عن الطريق وذهب قلبى وراء عينىَّ.. إن غوى قلبى على امرأة» (أى ٣١ :١، ٧، ٩). فإن ارتكب أيوب مثل هذه الأمور، سيعترف أنه أخطأ ويستحق دينونة الله. لكن أيوب لم يفعل هذه الأمور، قد ضبط قلبه فانضبطت عيناه.

والتعليم الذى قدمه المسيح، والذى أكده أيوب فى اختباره، هو ما نحتاجه نحن فى هذه الأيام، «فأعمال الخزى» يسبقها شحن الأفكار «بالخزى من عيون» غير منضبطة. والخيال الخصب (مع أنه أحد الملكات التى ميَّز بها الله الإنسان عن الحيوان) هو عطية من الله، وكل فنون العالم وكل إنجازات البشرية السامية نابعة من هذا الخيال الخصب. ومع ذلك، فإن أغلب الذين وقعوا فى خطية «الزنا»، هم الذين سمحوا لخيالهم الخصب أن يشعل شهواتهم داخلهم نتيجة ما رأوه. أما الرجال والنساء الذين تعلموا أن يضبطوا أنفسهم بالنسبة للجنس فهُم الذى تعلموا أن يضبطوا (عيون أجسادهم) و(عيون خيالهم).

ومن المناسب، هنا، أن نشير إلى طريقة ملابس النساء، فمن السخافة أن نطالب بقانون يضبط الموضة، لكنى أعتقد أنه من الحكمة أن أنادى بالتمييز الواعى بين الملابس الجذابة والملابس المغرية. أيتها النساء أنتن تعرفن الفرق، وكذلك تعرفونه أيها الرجال.

هذا يأتى بنا إلى (العددين ٢٩ ، ٣٠): «فإن كانت عينك اليمنى تُعثرك فأقلعها وألقها عنك. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك». والمسيح يركز هذه الكلمات،

وأعادها أكثر غير مرة فى (مت ١٨ :٨ ، ٩)، ولو أنه أضاف الرجل إلى العين واليد. والإشارة هنا، بصورة عامة، إلى تجربة الخطية وغوايتها، وليست خاصة بالغواية الجنسية وحدها. فلهذا المبدأ تطبيقات أوسع. لكن، تُرى ما الذى قصده المسيح بهذه الكلمات فى هذا الجزء بالذات من الموعظة؟!

لو نظرناً إلى النص بطريقة سطحية؛ سنجد فيه وصية مفزعة: أن تقلع عينك أو تقطع رجلك أو يدك التى تعثرك! وقليل من المسيحيين تغلَّبت غيرتهم على حكمتهم، فأخذوا كلام المسيح بطريقة حرفية، وبتروا أجزاءًمن أجسادهم. **ولعل أكبر مثل نعرفه على هذا هو «القديس أوريجانوس الإسكندرى» ، الذى عاش في القرن الثالث الميلادى، وحيث كان زاهداً في الحياة فرفض الممتلكات، وزهد في الطعام والنوم، ووصل به الأمر أنه طبَّق ما ورد في هذا الجزء حرفياً (مت ١٩ :١٢) فخصى نفسه. وبعد ذلك بقليل أصدر مجمع نيقية في عام ٣٢٥م قراراً بتحريم مثل هذه الأمور.**

والوصية بأن تقلع عينك أو تقطع يدك ورجلك، عندما يعثرونك، ليست إلا مثالاً على استخدام المسيح صوراً تشبيهيَّة فى حديثه. **فالذى يقصده المسيح ليس تشويه جزءٍ من الجسد حرفياً، لكنه كان يقصد إدانة الذات بشدة. فطريق القداسة يستلزم ـ لا بتر العضو، لكن إنكار النفس. وطريق اتباع المسيح يستلزم إنكار النفس وحمل الصليب، بمعنى أن نرفض ممارسات الخطية ، نصمم أن نموت عنها أو نميتها(مر ٨ :٣٤ ورو ٨ :١٣ وغل ٥ :٢٤ وكو ٣ :٥) .**

لكن كيف يتم هذا عملياً؟!

دعنى أحلل وأفسر تعليم المسيح «إن أعثرتك عينك»، لأن التجربة تأتيك من الأشياء التى تراها، «**فاقلع عينك» بمعنى أن لا تنظر! اسلك كما لو كنت حقاً قد قلعت عينك وألقيتها عنك، فصرت أعمى لا تستطيع أن ترى الأشياء التى كانت تسبَّب لك العثرة**. وإن تسببت لك «يدك» أو «رجلك» فى أن تخطئ، لأن التجربة فى هذه الحالة جاءتك من يدك (ما تفعله) أومن رجلك (الأماكن التى تذهب إليها)، فأقطعها وألقها عنك، أى «لا تعمل ولا تذهب». اسلك كما لو كنت فعلاً قد قطعت يدك أو رجلك وألقيتهما عنك، فصرت عاجزاً لا تستطيع أن تعمل الأشياء أو تذهب إلى الأماكن التى أعثرتك من قبل. هذا هو معنى «إنكار النفس».

وأنى أتساءل الآن: هل يوجد وقت، أو جيل، يحتاج إلى تعاليم المسيح هذه

أكثر من جيلنا ووقتنا الحاضر؟ فنحن نجد فيه نهر الفساد، وقد وصل إلى حد الطوفان من خلال أفلام الجنس ومجلات الدعارة. وهذه الأمور أو «الإباحية» (Poronography) مكروهة من المؤمنين، بل ومن غير المؤمنين العاقلين. أولاً، لأنها تجرِّد المرأة من إنسانيتها، وتجعلها مجرد أداةَ للجنس. وثانياً، لأنها تقدم للناظر أموراً غير طبيعية عن الجنس. وإن كنا نعانى من مشكلة ضبط ذواتنا جنسياً، ثم حملتنا أقدامنا لنشاهد الأفلام الجنسية، أو تناولت أيدينا هذه المجلات الخليعة، أو لذَّذنا عيوننا بالصور التى تقدمت لنا الأفلام والإعلانات؛ فنحن لا نرتكب خطية كبيرة فقط، بل نحن فى الواقع ندمِّر نفوسنا!

ولست أدعو بقولى هذا إلى وضع قوانين أو قواعد بشرية حول الكتب والمجلات التى يقاطعها المؤمن، أو عن الأفلام والمسرحيات المسموح للمؤمن أن يشاهدها، أو أية متاحف يمكن أن يزورها، لأننا يجب أن ندرك أن هناك اختلافاً بين الناس، فالبعض قد يُثار جنسياً أسهل من البعض الاخر، وهناك ضبط نفس تلقائى يتمتع به البعض ولا يتمتع به البعض الآخر. وقد يرى البعض الصور والأفلام الجنسية بدون أن تؤثر عليهم، بينما تؤثر ذات الأشياء على البعض الآخر بطريقة رهيبة. **فانسياق الإنسان للتجربة يختلف باختلاف طبيعته، ولهذا ليس لنا الحق أن ندين الآخرين، لأن كل إنسان يعرف ذاته وقدراته، ويعرف القدر الذى يسمح به لنفسه.**

لكن الذى نستطيع أن نقوله بحرية (لأن هذا ما قاله المسيح) هو: إن تسبَّبت عينك في الخطية، فلا تنظر.. وإن تسببت رجلك في الخطية، فلا تذهب... وإن تسببت يدك في الخطية، فلا تفعل. فالقاعدة التى وضعها المسيح، ليست عامة، لكنها افتراضية. **وهو لا يطلب من كلا التلاميذ أن يقلعوا عيونهم، أو يبتروا أيديهم، أو أرجلهم. لكن الذين تعثرهم عيونهم، أو أيديهم، أو أرجلهم، يجب أن يتَخذوا موقفاً قوياً. فالبعض يمكن أن يحتفظ بعينه، أو رجله، أو يده، بدون عقاب لأنها لا تعثره. لكن بالطبع عليهم أن يمتنعوا عن بعض المسموح به، لأنهم يحبون الآخرين من أصحاب الضمائر الضعيفة أو الإرادة الواهنة. وهذا مبدأ آخر لم يعلنه المسيح هنا بصراحة.**

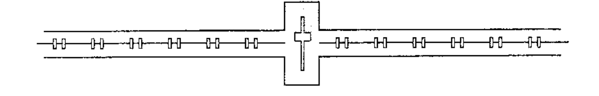
إن الأمر الضرورى بالنسبة للمعرَّضين للتجارب جنسية شديدة، بل للجميع، هو أن نحترس ونحن نقترب من الخطية. وإن كانت الجيوش تهتم بتعيين نقط حراسة تنبهها إلى الخطر عندما يقترب منها، فيجب أن تكون لنا حراسة منضبطة ينذرونا. فهل نحن

من الجهل، حتى نسمح للعدو أن يمتلكنا، لأننا ببساطة لم نضع حرَّاساً ينذروننا عند اقتراب العدو منا؟!

ولطاعة وصية المسيح هذه، يجب أن البعض يستعملون «البتر»، بأن يتخلصوا من بعض الأمور التى وإن كانت غير شريرة فى حد ذاتها، إلا أنها قد تكون أو تصبح مصدراً للتجربة. وباللغة التشبيهية، علينا أحياناً أن نكون «بدون عيون»، و«بدون أيدى»، و«بدون أرجل» بمحض إرادتنا، فلا نقرأ بعض المجلات، ولا نرى بعض الأفلام، ولا نزور بعض المتاحف، ولا نحتفظ ببعض الصداقات. وإن فعلنا هذا، قد يعتقد البعض أننا ضيقو الأفق وجهلة ومتخلفون. وقد يقولون لنا، وهم غير مصدِّقين: ألم تقرأ هذا الكتاب؟! ألم ترَ هذا الفيلم؟! لماذا؟! هل أنت غير مثقف؟! وقد يكونون على صواب. **وقد نضطر أن نكون في حالة «بتر» ثقافى لنحتفظ بطهارة أذهاننا».**

إن السؤال الوحيد هو: هو لأجل الطهارة نحن مستعدون أن نتحمل أى خسارة وأن نحتمل كل الإهانات؟!

لقد كان المسيح واضحاً تماماً فى هذا. فمن الأفضل أن نفقد عضواً، ونعيش بعاهة، بدلاً من أن نحتفظ بجسد كامل يُلقى فى جهنم. وبلغة أخرى: من الأفضل أن نتخلى عن بعض الخبرات التى تقدمها لنا الحياة، لندخل الحياة الحقيقية، ومن الأفضل أن نتخلى عن جزء من ثقافة هذا العالم، بدلاً من أن نقبلها ونجازف بحياتنا الأبدية. ولا شك أن **هذا التعليم يناهض لغة العصر الإباحية، لكنه مؤسس» على مبدأ أن «الأمور الأبدية» أهم من «الأمور الوقتية» وأن «القداسة» أهم «الثقافة»، وأن أى تضحية نضحى بها في هذه الحياة أمر جوهرى، إن كانت ضرورية لدخولنا الحياة الأبدية. وعلينا أن نقرر ببساطة إن كنا نحيا لهذا العالم أم للعالم الباقى... إن كنا نتبع الجموع أم المسيح.**



ثالثاً: الإخلاص فى الزواج. والأمانة فى الكلام

(٥ : ٣١ـ ٣٧)

لقد تحدث المسيح هنا عن التباين الثالث حو الطلاق، فأتى حديثه متتابعاً بطريقة طبيعية لحديثه عن الزنا. ففى بعض الأحوال، يقول المسيح إن الزواج من شخص مطلَّق هو بمثابة زنا. ولهذا، فالتباين الثالث هو دعوة إلى الإخلاص فى الزواج.

ويراودنى نوع من التردد، وأنا أحاول تفسير هذه الآيات، لأن الطلاق قضية معقدة ثارت حولها المناقشات الكثيرة، لكن أكثر من هذا أنه موضوع يلمس مشاعر الناس العميقة. ولا يوجد بؤس أكثر شدة من تعاسة الحياة الزوجية، ولا توجد كارثة أعظم من أن يتحول ماقصده الله بالحب والاستمتاع ليصبح بؤساً، ومرارة، وتنافراً. وإن كنت أؤمن أن طريق الله، فى أغلب الحالات، ليس هو الطلاق، فأرجو أن أكتب هذه الكلمات بحساسية خاصة، خصوصاً وأنا أعلم هناك متألمين من مشاكلهم، ولا أريد أن أضيف إلى ضيقهم ضيقاً. لكن لأنى مقتنع أن تعليم المسيح فى هذا الموضوع، بل وفى كل الموضوعات، تعليم صالح فى ذاته، وللأفراد وللجتمع، لذلك استجمعت شجاعتى وأمسكت بقلمى لأكتب فى هذا الموضوع.

١ـ الإخلاص فى الزواج: (٣١ ـ ٣٢)

> «وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق. وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى. ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى».

من الصعب أن نعتقد أن كل تعاليم المسيح المختصة بالطلاق محصورة فى هاتين الآيتين، ولكن الآيتين تقدمان ملخصاً لتعاليمه التى ذكرها «متى» بطريقة أوسع فى الأصحاح التاسع عشر. ومن المفيد أن نقرأ الأصحاحين معاً، ونحاول أن نفهم الجزء المختصر فى ضوء الجزء الأطول.

فى إنجيل متى (١٩ : ٣ ـ ٩) نقرأ حواراً دار بين المسيح والفريسيين:

«وجاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين له هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب فأجاب وقال لهم أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكراً أنثى وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذى

جمعه الله لا يفرقه إنسان. قالوا له فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فتُطلّق قال لهم إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلّقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هكذا. وأقول لكم إن من طلّق امرأته إلا بسبب الزنى وتزوج بأخرى يزنى. والذى يتزوج بمطلّقة يزنى».

ولقد كان، هناك، فى زمن المسيح، صراع يدور بين مدرستين متنافستين فى موضوع الطلاق، هما مدرسة «هليل» (Hillel) ومدرسة «شمعى» (Shammai)، وقد اتخذت مدرسة «شمعى» موقفاً صارماً، ونادت بأن «عيب شئ» (تث ٢٤ :١) هو اكتشاف عيب ما فى الفتاة مشين ولا يليق، وتقول إن هذا هو السبب الوحيد للطلاق. لكن مدرسة «هليل» على النقيض من مدرسة «شمعى» حيث كان موقفها من الطلاق متسيّباً. ويقدم لنا المؤرخ اليهودى «يوسيفوس» فكرة عن الطلاق الذى كان سائداً فى ذلك الوقت، فيقول إن تطبيق «عيب شئ» فُسرٍّ على أنه أى شئ، فكل من يريد أن يطلق زوجته لأى سبب فليفعل![١]

وقال «هليل» إن «عيب شئ» كسببٍ للطلاق هو أمر «غير لائق»، وفسَّر «غير اللائق» على أوسع نطاق، فشمل أسباباً تافهة جداً، مثل أن يطلق الرجل زوجته لأنها لا تحسن طهى الطعام! أو لأن الطعام قد احترق وهى تجهزه! أو لأنها فقدت جاذبيتها فى نظره، فوقع فى حب امرأة أكثر جمالاً منها! وقالوا إن هذه الأسباب تقع تحت عنوان «غير لائق»؛ وبالتالى فهو مبرر للطلاق. ويبدو أن الفريسيين انجذبوا إلى مدرسة «هليل» المتسيِّبة، وهذا ما يفسر سؤالهم: «هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟» (مت ١٩ :٢٣)، فقد أرادوا أن يعرفوا إلى أى مدرسة ينحاز المسيح، هل ينتمى للمدرسة الصارمة أم المدرسة المتسيبة؟

ولقد أجابهم المسيح بإجابة مكونة من ثلاث أجزاء. ومن المناسب ان نتأمل كل جزء على حدة، وبنفس الترتيب الذى جاءت به. وفى كل جزء منها، سنجد أنه كان يختلف عن الفريسيين:

أ) كان بال الفريسيين مشغولاً بأسس الطلاق، بينما كان بال المسيح مشغولا بالزواج كمؤسسة.

لقد وضع الفريسيون سؤالهم بأسلوب يستميل المسيح لقبول ما أعتبروه أسساً شرعية للطلاق: «لأى سبب يحق للرجل أن يطلق زوجته؟ هل لسبب واحد أم لعدة أسباب، أم لأى سبب؟».

---

(١) Antiquities IV VIII 23

ولم يكن ردُّ المسيح إجابة على سؤالهم، لأنه بدلاً من الإجابة، وجَّه إليهم أسئلة مضادة عما قرأوا فى الشريعة. وبدأ يرجع بهم إلى سفر التكوين، عندما خلق الله الإنسان ذكراً وأنثى (أصحاح ١)، ثم إلى تنظيم الزواج (أصحاح ٢) الذى فيه يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً. وهذا التعريف الكتابى يُبيِّن لنا أن الزواج أمر محدد (الرجل وزوجته)، وهو أمر أبدى (يلتصق بامرأته). وقد اختار المسيح هذين الأمرين ليعلَّق بهما فى (مت ١٩ :٦) أولاً: إنهما ليسا بعد اثنين، بل جسد واحد. وثانياً: إن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان. لذلك، فالزواج فى حكم المسيح تنظيم إلهى، يصنع الله فيه من شخصين شخصاً واحداً بطريقة دائمة، فيتركان أبويهما ليكوِّنا نواة جديدة فى المجتمع «ويصيران جسداً واحداً».

ب) دعا الفريسيون ما أعطاهم إياه موسى بخصوص الطلاق «وصية»، لكن المسيح دعا «الوصية» «تصريحاً من موسى» بسبب قساوة قلب الإنسان.

ولقد كان ردُّ الفريسيين على حديث المسيح عن الزواج، وأن ما جمعه الله لا يفرقه إنسان، أنهم سألوه: «فلماذا أوصى موسى أن يُعطى كتاب طلاق فتُطلق؟» (مت ١٩ :٧).

وكان اقتباس المسيح من تعاليم الفريسيين صحيحاً، فقد قال: «قيل: من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق» (مت ٥ :٣١). وفى الحديث عن الطلاق (سواء فى مت ٥ أو مت ١٩) نجد أن كلام الفريسيين كان ترجمة مزيفة لكلام موسى. وهو ما يعود عليه الفريسيون من تحوير معنى الشريعة الحقيقى، فقد ركزوا كل انتباههم على «كتاب الطلاق» (أى تصريح بالطلاق)، كما لو كان هذا هو الأمر الحيوى فى تصريح موسى. ثم اعتبروا أن «كتاب الطلاق» بل و«الطلاق» هما من «وصايا» موسى!

على أن قراءة متأنية لما جاء فى سفر (التثنية ٢٤ :١ـ٤) توضح أن هناك فرقاً شاسعاً بين تعليم الفريسيين وما جاء فى وصايا الله لموسى، فالفقرة كلها تحتوى على سلسلة من العبارات المشروطة، فدعونا نراجع ما ورد فى كلمة الله: «إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها (فإن) لم تجد نعمة فى عينيه لأنه وجد فيها عيب شئ، و(إن) كتب لها كتاب طلاق وأطلقها من بيته. ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر، (فإن) أبغضها الرجل الأخير وكتب لها كتاب طلاق وأطلقها من بيته، أو (إذا) مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة، لا يقدر زوجها الأول الذى طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة».

ومضمون هذا الجزء هو أن يُمنع زواج شخص من مطلقته. لكن يبدو أن «العيب» الذى

وجده الزوج فى زوجته جعلها «دنسة» فى عينيه حتى أنه طلقَّها. وهو سبب يجعله لا يتزوجها ثانية. وقد يُقصد بهذه الوصية أمر آخر، فهى تحذير لكل رجل أن لا يتسرع فى قرار الطلاق، لأنه بمجرد أن يتخذ هذا القرار لا يستطيع أن يتراجع فيه. وهذه الوصية أحياناً تحمى الزوجة من التسخير والاستغلال. ويكفى أن نلاحظ أن هذا النهى هو الوصية الوحيدة فى هذا الأصحاح. وبالتأكيد، لا توجد وصية للزوج أن يطلق زوجته أو مجرد تشجيع له على هذا. لكن هناك مجرد إشارة لما يجب عمله (إذا) حدث طلاق. وهذا الطلاق المسموح به فى حدود ضيقة جداً.

وعندما سُئل المسيح عن تنظيم الطلاق؛ أرجعه أولاً إلى قساوة قلوب الشعب. وفى هذه الإجابة، أوضح أن هذا التنظيم من عند الله، لكن مضمون الإجابة يدل على أنه ليس وصية إلهية، لكنه سماح إلهى بسبب الضعف الإنسانى. ولهذا السبب، «إذن لكم موسى أن تطلقوا نساءكم» (مت ١٩ :٨). ثم أشار فى الحال إلى غرض الله الأساسى، فقال: «لكن من البدء لم يكن هكذا». فحتى السماح الإلهى لم يتفق مبدئياً مع الوصايا الإلهية.

ج) كانت نظرة الفريسيين للطلاق نظرة متسيبة، لكن نظرة المسيح كانت جادة، فباستثناء حالة واحدة اعتبر المسيح كل زواج بعد الطلاق زنا.

لقد كانت هذه خلاصة حواره مع الفريسيين. وهذا ما قاله فى الموعظة على الجبل، ومن المفيد أن نضع ما قاله لتلاميذه مع ما قاله للفريسيين جنباً إلى جنب:

(مت ٥ :٣٢) «أما فأقول لكم: إن من يطلق امرأته إلا لعلة الزنى يجعلها تزنى ومن يتزوج مطلقة فإنه يزنى».

(مت ١٩ :٩) «وأقول لكم: من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى».

ويبدو عودة الزوج إلى مطلقته كان ممارسة متّبعة. وهذا ما يفسر عبارة «من طلق امرأته لأى سبب (إلا الزنى) يجعلها تزنى». وهذه النتيجة لا تأتى إلا إذا تزوجت ثانية. وفى هذا الوقت لم يكن معروفاً لديهم ما يسمى «الانفصال» الذى يُمارس أحياناً فى عصرنا، وفيه ينفصل الرجل عن زوجته بدون طلاق.

وحيث أن قانون الله بالنسبة للزواج يحتم أن تكون العلاقة دائمة، لأن الله هو الذى يجمع «ما جمعه الله»؛ فلا ينبغى للإنسان أن يفرِّق. ولقد قدم المسيح الاستنتاج الطبيعى بأن تطليق شريك الحياة، أو الارتباط بمطلقة يعنى دخولاً فى علاقة محرمة، هى علاقة زنا، لأن الشخص الذى

قام بتطليق شريكه أمام القانون البشرى، لايزال فى نظر الله مرتبطاً بشريكه الأول.

لكنَّ هناك استثناءٍ واحداً لهذه القاعدة: «إلا لعلة الزنا» (مت ٥:٣٢)، «إلا بسبب الزنا» (مت ٩:١٩)، وقد اختلف المفسرون على ما يسمى «بالقاعدة الاستثنائية» سواء بالنسبة لصدقها أو بالنسبة لمعناها.

أولاً: بالنسبة لصدقها: أقول (ويشاركنى فى هذا كثيرون من المفسرين المعتدلين) إنه ينبغى أن نقبل هذه القاعدة، ليس فقط باعتبارها جزءاً أساسياً من إنجيل متى (فلا توجد مخطوطة تحذفها)، لكن أيضاً باعتبارها جزءاً من كلمات المسيح. أما سبب رفض كثيرين لهذه العبارة، فهو قولهم إنها إضافة من عند «البشير متى»، غير موجودة فى نصَّى «مرقس» و«لوقا» الموازيين لهذا النص الكتابى. ولذلك أطلق «بلامر» على هذا الفكر النظرية العنفية»[١]؛ لأنها تعتبر هذه العبارة إضافة من «متي».

ونرد على أصحاب هذه «النظرية العنيفة»، بقولنا إن غياب هذه «القاعدة الاستثنائية» من بشارتى «مرقس» و«لوقا» لا يعود إلى جهلهما بهما، بل إلى قبولهما لها كحقيقة طبيعية مُسلَّم بها، ففى ناموس موسى كان الموت عقوبة الزنا، ولو أنه يبدو أن عقوبة الموت على هذه الخطية لم تكن مطبَّقة فى أيام المسيح، كما قال «ج. أ.لاد»[٢](تث ٢٢:٢٢ ، ٨:١ـ١١). فلم يكن هناك أى تساؤل أو اعتراض على أن الخيانة الزوجية هي أساس للطلاق. حتى مدرستا «هليل» و«شمعى» المتنافستان كانتا تتفقان على هذا المبدأ، وكان اختلافهما أساساً على تفسير عبارة «وجد فيها عيب شئ» (تث ٢٤:١).

ثانياً: بالنسبة لمعنى عبارة «علة الزنى». فإن الكلمة اليونانية هنا (porneia) تترجم «دعارة» (Fornication) وتشير إلى علاقة جنسية بين غير المتزوجين، وهى تختلف عن الكلمة اليونانية (moicheia) وتترجم «زنى» (Adultery)، وتشير إلى علاقة جنسية محرمة بين المتزوجين. لهذا قال البعض إن هذه «العبارة الاستثنائية» تسمح بالطلاق، إذا اكتُشف بعد الزواج أنه كانت هناك علاقات جنسية قبل ا لزواج. واعتقد البعض أن هذا هو المقصود بعبارة «عيب شئ». إلا أن الكلمة اليونانية ليست دقيقة بالدرجة التى تجعلنا نحدد المعنى فى هذا الإطار فقط، فيُشتقُّ

---

(١) Plummer, P. 82

(٢) قال «ج. أ لاد»: «كان الموت عقوبة الزنا فى العهد القديم. ويقول العهد العهد الجديد إن الزنى يعتبر ميتاً، فيكون شريك الزوجية البرئ حراً من عهود الزوجية، وكأن شريكه قد مات». G.E. Ladd, *The Gospel of the Kingdom*, (Eerdmans, 1959), p. 85

من كلمة (porniea) كلمة «دعارة» وتعنى «الداعرات» بدون تحديد، سواء كانت هي (أو شريكها) متزوجين أو غير متزوجين. واستُخدمت ذات الكلمة فى الترجمة السبعينية، لتصف عدم أمانة إسرائيل، عروس يهوه، مرموزاً لها «بجومر» امرأة النبى هوشع (هو ١: ٢، ٣ و٢: ٢، ٤). فعلينا أن نتفق مع «ر.ف.ج. تاسكر» الذى قال إن كلمة (porneia) كلمة جامعة تشمل الزنى والدعارة وأى علاقة غير طبيعية[1]. وفى ذات الوقت، ليست لدينا الحرية أن نذهب فى تفسيرنا لكلمة «زنى»، لنقول إنها تشمل كل إساءة تبدو وكأن لها مغزى جنسى، فكلمة (porneia) التى ذكرها المسيح كسبب للطلاق تعنى ممارسة جنسية فعلية.

ماذا علم المسيح بعد ذلك؟

قدم لنا «ن.ب. ستونهاوس» تفسيراً للجزء الأول من التباين الذى قدمه المسيح فى موعظته على الجبل، والخاص بالطلاق فقال: «سمعتم» تفسير معلمى الناموس (للتثنية ٢٤: ١)، وحججهم التى بها أباحوا الطلاق للأزواج كما يحلو لهم. كل ما عليهم هو أن يعطوا زوجاتهم تصريح «براءة ذمة»[2]. ثم يقول المسيح: «لكن أقول لكم». إن مثل هذا السلوك غير المسئول من جانب الرجل، سيؤدى به هو وزوجته والشريك الآخر إلى ارتباط، ليس هو زواجاً بل زنى. والحالة الوحيدة التى يتم فيها الطلاق والزواج من شريك آخر (بدون كسر الوصية السابعة)، هي أن تكون رابطة الزواج قد تدمَّرت بسبب خطية جنسية. وفى هذه الحالة (فقط) علَّم المسيح أن الطلاق مسموح به، ووقتها يمكن للطرف البرئ أن يتزوج دون أن يتطلخ بوصمة الزنى. **أما الاتجاه العصرى في الدول الأوربية، لإعطاء الطلاق شرعية بسبب ما يسمونه «انهيار ينمُّ عن عدم التوقير»، أو «موت الزواج»، بدون «الخيانة الزوجية»، فهو مناقض لتعاليم المسيح.**

ولا نستطيع أن نترك هذه النقطة، بدون التعليق على كلمة المسيح أن موسى «من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم»، فنحن نقف أمام التصريح بالطلاق - لكن على مضضٍ، لأنه تصريح أعطى بسبب قساوة قلب الإنسان. فحديث المسيح فى (مت ١٩) جاء مباشرة بعد تأكيده أن خطة الله وغرضه هو دوام الزواج: «ما جمعه الله لا يفرقه إنسان». والقرينة العامة فى الموعظة على الجبل، بل وفى كل الكتاب المقدس، تنادى بإنجيل السلام

(١) مرجع سابق؛ Tasker, P. 184

(٢) مرجع سابق؛ Stone house, P. 203

والمصالحة. ونحن نجد معنى عظيماً فى أن الله المحب كان على استعداد أن يخطب إسرائيل، عروسه الزانية، مرة أخرى (إر ٢ :١، ٣ :١، ٤ :١؛ هو ٢ :١-٢٣)، بل وينادىها: «ارجعى إليَّ يقول الرب». فلا ينبغى أن يبدأ الحوار فى مثل هذه الظروف حول شرعية الطلاق. وانشغال الفكر بأسباب الطلاق هو فكر الفريسيين الذى أدانه المسيح. لقد كان تركيز المسيح، فى حواره مع الفريسيين، على الجانب الإيجابى، أى على ترتيب الله الأزلى للزواج، الذى ينبغى أن يؤسَّس على رابطة قوية ثابتة أبدية، فالذى جمعه الله لا يفرقه إنسان.

ونضيف إلى هذه الدعوة دعوته لتلاميذه وأتباعه أن يحبوا وأن يغفروا وأن يصنعوا السلام فى كل موقف، وفى كل نزاع وخصام. ولهذا، ربط القديس «**يوحنا فم الذهب**» **هذه الفقرة بالتطويبات، فقال فى عظته: «كيف يمكن للوديع الصانع السلام، وللمسكين بالروح، وللرحيم أن يطرد زوجته؟ كيف يمكن للذى يصنع الصلح بين الآخرين يكون هونفسه خصام مع شريكه؟»**[1]. ومن المثال الإلهى، نرى الغرض الإلهى والدعوة الإلهية، فنقول إن الطلاق انحراف مرعب عن فكر الله.

وأنا شخصياً، كراعى كنيسة منذ سنوات، عندما كان يأتى إلى أحد الأشخاص طالباً مناقشة موضوع الطلاق؛ كنت أرفض تماماً. وقطعت على نفسى عهداً بأن لا أكلم أحداً ـ عن الطلاق إلا إذا تكلمت معه (أو معها)، أولاً، عن موضوعين آخرين، هما الزواج والمصالحة. وأحياناً يجعل شرح هذين الموضوعين الحديث فى الطلاق غير ضرورى. فعندما يفهم الشخص، ويقبل فكر الله عن الزواج، ودعوة الله لصنع السلام والمصالحة؛ قد يتغير فكره ولا يتكلم بعد ذلك عن الطلاق. وأنا أؤمن أن هذا مبدأ من أولويات مبادئ الرعاية، وهو يتفق مع تعاليم المسيح[1].

(١) مرجع سابق؛ Chrysostom. P. 360

٢ـ الأمانة فى الكلام (٣٣)

«أيضاً سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوفِ للرب أقسامك».

لئن كان معلمو الناموس يميلون للتسيب فى موقفهم إزاء الطلاق، فقد كانوا أيضاً متسيبين فى تعاليمهم عن القسَم، وهذا مثال آخر على الحيل التى كانوا يحوِّرون بها تعاليم العهد القديم، ليجعلوها أكثر سهولة، حتى يطيقها الشعب ويطيعوها. ويجب أن نفحص ما جاء فى ناموس موسى، ثم نرى كيف حرَّفه الفريسيون، وفى النهاية نتأمل فى التطبيق الحقيقى للناموس والذى ركز على المسيح.

وليست هذه الكلمات اقتباساً دقيقاً من ناموس موسى، لكنها ملخص معقول لبعض تعاليم العهد القديم التى طلبت من الشعب الذى يُقسم أن يفى بقسَمه. والقيم المقصود هنا هو القسم الذى فيه يدعو الشخص الله، ليكون شاهداً على وعوده، وأن يعاقبه إن حنث فيها. وفى كثير من الأحيان، كان موسى يركز على شر القسَم العادى، وعلى ضرورة أداء كل إنسان ما تعهد به أمام الله. ولعلنا نرى فى هذه الآيات ما يثبت ذلك.

الوصية الثالثة: «لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً» (خر ٢٠:٧).

«لا تحلفوا باسمى بالكذب فتدنس اسم إلهك» (لا ١٩:١٢).

«إذا نذر رجل نذراً للرب أو أقسم قسماً.. فلا ينقض كلامه» (عد ٢٠:٣).

«إذا نذرت نذراً للرب إلهك فلا تؤخر وفاءه» (تث ٢٣:٢١).

وحتى مجرد القراءة السطحية لهذا الوصايا؛ توضح أن الله ينهى عن اليمين الزور والحلف الكاذب والحنث بالقسم. لكن الفريسيين حاولوا أن يحدُّوا من مثل هذه الأمور المربكة لهم، فصرفوا أنظار الشعب عن القسم ذاته وضرورة الالتزام به، ويحثوا العبارات التى يُصاغ بها هذا القسم، فادَّعوا أن هناك نوعين من القسم: قسم كاذب وهو دنس وإلحاد، لأنه يدنس اسم الله، وهو يختلف عن نوع آخر من القسم الذى فيه لا يفى الإنسان بوعده. فسدوا قواعد لاستخدام القسم، ووضعوا قائمة بالكلمات التى يمكن أن يقسم بها الإنسان. ثم عادوا وقالوا إن القسم الذى يرتبط

(١) أنظر كتابنا: *Divorce: the Biblical teaching*, (Falcon, 1972)

باسم الله يُلزم صاحبه، لكن قد لا يلتزم الإنسان بقسمه ـ إن كان غير مرتبط باسم الله. وقد عبَّر المسيح عن ازدرائه بهذه المغالطات، ودعا الفريسيين «قادة عميان» (مت ٢٣ :١٦ـ٢٢).

«ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشئ ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم. أيها الجهال العميان أيُّما أعظم الذهب أم الهيكل الذى يقدس الذهب. ومن حلف بالمذبح فليس بشئ ولكن من حلف بالقربان الذى عليه يلتزم. أيها الجهال والعميان أيُّهما أعظم القربان أم المذبح الذى يقدس القربان فإن من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه».

إن تعليم ا لرب فى الموعظة على الجبل يشبه هذه الكلمات إلى حد كبير. والجزء الثانى من هذا التباين، الذى أعلن فيه المسيح تعليمه المضاد لتعاليم معلمى الناموس يقول:

«وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة لا بالسماء لأنها كرسى الله ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء. بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا. ومازاد على ذلك فهو من الشرير» (مت ٥ :٣٤ـ٣٧).

لقد رفض المسيح استخدام ألفاظ معينة في القسَم، كما رفض الفرق الذى وضعه الفريسيون بين القسم باسم الله فالقسم الذى لا يُذكر فيه اسم الله، لأنه أمر من نسج خيالهم. وقال إنه من المستحيل أن نتجنب الإشارة إلى الله، لأن كل العالم هو عالمه. ولا نستطيع أن نستبعد الله من أى شئ في العالم. فإن حلفت «بالسماء» فهى كرسيه، أو بالأرض فهى موطئ قدميه، أو بأورشليم فهى مدينة الله الملك العظيم، أو برأسك، فمع أنها حقاً مِلك لك بمعنى أنها ليست لأحد غيرك، لكنها قبل كل شئ جزء من خليقة الله وتحت سيطرته، فأنت لا تستطيع أن تغيِّر اللون الطبيعى لشعرة من رأسك، سواء كانت سوداء فى شبابك أو بيضاء فى شيخوختك.

وعلى هذا، فإن كانت العبارات التى تُستخدم فى القسم لا تهم، فالانشغال بها ليس من صميم الناموس. ولما كان أى شخص يمكن أن يستخدم أية عبارة ليُقسِم بها، تكون العبارة فى ذاتها غير مهمة، لأن العبارة لا تضيف شيئاً إلى قداسة القسّم. فالقسم مُلزِم بغض النظر عن العبارات التى صِيغ بها أو التى أضيفت إليه. وهكذا، فالمضمون الحقيقى للناموس هو أن نفى بوعودنا، ونكون عند كلماتنا، وعند هذا لا يكون القسم ضرورياً، فلا يجب أن نحلف البتة

(عدد٣٤)، وليكن كلامنا: نعم نعم، ولا لا (عدد ٣٧).

وكما قال الرسول يعقوب: «لكن قبل كل شئ يا إخوتى لا تحلفوا لا بالسماء ولا بالأرض ولا بقسم آخر بل لتكن نعمكم نعم ولاكم لا» (يع ٥:١٢). ويضيف المسيح: «ومازاد على ذلك فهو من الشرير»، سواء كان من قلبنا الشرير وخداعه، أو من إبليس الشرير الى وصفه الرب بأنه «كذاب وأبو الكذاب» (يو ٨:٤٤). وإن كان الطلاق نتيجة قساوة قلب الإنسان؛ فإن القسم نتيجة عدم صدق الإنسان، وكلاهما سمح بهما الناموس ولو أنه لم يُوحِ بهما ولا أشار إلى أن لهما ضرورة (تث ٢٣:٢٢).

غير أن هناك سؤالين قد يتطرقان إلى أذهاننا:

أولاً: أن كان القسَم ممنوعاً، فلماذا أقسم الله بنفسه! لماذا قال لإبراهيم: «بذاتى أقسمت يقول الرب.. أباركك مباركة» (تك ٢٢:١٦، ١٧)؟

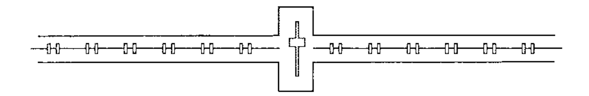
أعتقد أن هذا القسم يهدف إلى زيادة مصداقية الله في عين الإنسان «لأن الله ليس بإنسان فيكذب» (عد ٢٣:١٩ وعب ٥:١٣ـ١٨)، لكى يقوى ويؤكد إيماننا. والأمر الذى جعل الله يتنازل إلى مستوى الإنسان هذا، لا يكمن في عدم مصداقية الله، لكن في عدم إيمان البشر.

ثانياً: إن كان الله قد نهى عن القسم، فهل هذا النهى مطلق؟ هل ينبغى على المؤمن ليكون ثابتاً فى طاعته أن يرفض ترديد القسَم لأى غرض أمام القضاة فى المحكمة مثلاً؟

لقد كان هذا ما اعتقد به المعمدانيون فى القرن السادس عشر، ولا زالت هناك طوائف تطبِّقه حتى الآن. وإن كنا نُعجب برغبتهم أن لا يتهاونوا فى تنفيذ وصية الله، لكننا نتساءل: هل تجاوزوا الحد فى تفسيرهم لهذا الآية؟ فبعد كل هذا دوَّن البشير «متى» أن المسيح نفسه لم يفرض أن يجيب عندما استحلفه رئيس الكهنة» «استحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله» فاعترف المسيح أنه ابن الله، وأنهم سيبصرونه جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء (مت ٢٦:٦٣، ٦٤).

إن ما ركَّز عليه المسيح هو أن الشخص الأمين لا يحتاج أن يلجأ إلى القسم في حياته اليومية، لكن لا يجب أن يرفض أن يحلف إن كان هذا أمام السلطات والمحاكم. وهناك تطبيقات عصرية لكلام المسيح، لأن كلامه يصلح لكل زمن، فالقسَم اعتراف محزن بعدم أمانة البشر. فما هي ضرورة تقديم وعودنا لغيرنا مصحوبة

بعبارات: «أقسم بالعذراء مريم»، و«حياة المسيح»، و«أقسم بالملاك جبرائيل وكل ملائكة السماء»، أو «أقسم بالكتاب المقدس»؟! هل تعرف لماذا؟! لأننا نحاول أن نجعل الناس يثقون فينا، باستخدام عبارات القسم هذه. ومن العجيب أن طائفة الأسينيين اليهود، المعاصرة للمسيح، كانت لها مقاييس سامية فى هذا الأمر، فكتب عنهم المؤرخ «يوسيفوس»: «هم رواد فى إخلاصهم، ورسل سلام. كلماتهم أرسخ وأثبت من أى قسم، وشعارهم: لا تحلفوا البتة. وهم يعتبرون القسم أسوأ من يمين الزور، لأنهم يعتبرون أن الذى لا يوثق فيه بدون قسم بالله هو شخص مذنب وغير أمين»[١]. وكتب «أ. م. هنتز»: «لقد نشأ القسم؛ لأن الإنسان غالباً كذاب»[٢]. وما انطبق على القسم ينطبق على سائر المبالغات والإطراء الزائد، واستخدام أوصاف مبالغ فيها للأشخاص. ففى وصفنا للأمور، غالباً، لا نكتفى بمجرد القول «قضينا وقتاً ممتعاً»، لكن يُوصف هذا الوقت بأنه كان «رائعاً»، «خيالياً»، «خرافياً»، أو بمثل كلمات المبالغة هذه. لكن كلما استخدمنا مثل هذه التعبيرات؛ قلَّلنا من قيمة كلامنا ومن قيمة وعودنا. فعلى المؤمن أن يعنى ما يقول، ويدرك أن كلماتنا الصادقة ينبغى أن تفى بالغرض: «نعم»، أو «لا».. وإن كانت كلمات بسيطة تفى بالغرض، فلماذا نُجهد أنفسنا بأن نضيف إليها أقساماً؟!



(١) War, II. VIII. 6

(٢) مرجع سابق؛ Hanter, P.55

رابعاً: عدم الانتقام، والمحبة العملية
(٥ : ٣٨ـ٤٨)

من هذين التباينين نأتى إلى قمة ما قيل فى «الموعظة على الجبل»، وكلاهما يثير الإعجاب كما يثير الرفض، لأنهما يتحدثان عن المحبة الكاملة التى يدعونا المسيح لنُظهرها تجاه الأشرار (عدد ٣٩)، وتجاه أعدائنا (عدد ٤٤). ولا يوجد فى الموعظة تحدٍّ أعظم من هذا، ولا تميُّز للأخلاق المسيحية عن أخلاق العالم أوضح من هذا. وإزاء هذا التحدى نشعر بحاجتنا إلى قوة الروح القدس، فإن أول ثماره هي «المحبة».

١ـ عدم الأخذ بالثأر (٣٨ـ٤٢)

> «سمعتم أنه قيل: عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. من سألك فأعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده».

لقد وردت هذه العبارة التى اقتبسها المسيح هنا من تعاليم الناموسيين، وهى مطابقة لما جاء فى ناموس موسى. وعلينا ونحن نتأملها أن نذكر أن ناموس موسى كان قانوناً مدنياً وأدبياً معاً. ففى سفر الخروج (أصحاح ٢٠) نجد الوصايا العشر التى تمثل خُلاصة الناموس الأخلاقى. لكننا نجد فى سفر خروج (أصحاحات ٢١ـ٢٣) مجموعة شرائع تطبق مبادئ الوصايا العشر على حياة الشعب. فهناك قوانين قضائية مختلفة سُنَّت، للفصل فى حالات الضرر الذى قد يلق بالأشخاص أو الممتلكات.

وقد وردت الكلمات التالية فى سياق بعض أحكام الناموس: «إذا تخاصم رجال.. إن حصلت أذية تعطى نفساً بنفس، وعيناً بعين، وسناً بسن، ويداً بيد، ورجلاً برجل، وكياً بكى، وجرحاً بجرح، ورضاً برض» (خر ٢١:٢٢ـ٢٥؛ لا ٢٤:١٩ ، ٢٠؛ تث ١٩:٢١). وتوضح القرينة، بما لايدع مجالاً للشك، أن هذه الأوامر كانت لقضاة بنى إسرائيل فى (تث ١٩ : ١٧ ، ١٨)؛ لتسن

قانون المعاملة بالمثل الذى هو أساس العين بالعين، ليرسى أسس العدالة ويحدد نوعية العقوبة التى يستحقها فاعل الشر بدون أية زيادة.. **فلهذه الشريعة تأثير مزدوج: إنها تحدد أسس العدالة، وتُحِد من الانتقام، فتمنع فوضى أن يأخذ كل إنسان حقه بيديه وينتقم لنفسه.**

ونحن نجد الشئ نفسه فى الشرائع المطبَّقة حرفياً فى بعض الدول العربية، والتى تحدِّد العقوبات القصوى الممكنة، إلا إذا تنازل الضحية أو ورثته (إن كان الضحية قد مات)، وطلبوا فدية عينية بدل الدم.

ومن المؤكد أنه فى الأيام التى كان المسيح يلقى فيها هذه الموعظة، كانت شريعة العين بالعين قد استُبدلت فى الممارسات اليهودية القانونية بتعويض مادى أو عقوبة مالية. وتَّم هذا الاستبدال قبل أيام المسيح بكثير، ففى الآيات التى وردت مباشرة بعد شريعة العيد بالعين فى سفر الخروج، نجد أنه إذا ضرب إنسان بعده فأتلف عينه أو أسقط إحدى أسنانه، فبدلاً من أن يفقد الضارب عينه أو سِنَّه (الأمر الذى يستحقه، والذى لا يستطيع به أن يعوِّض عبده عنه)، عليه أن يطلق هذا العبد حراً «عوضاً عن عينه أو عوضاً عن سنه» (خر ٢١: ٢٦، ٢٧). وأظن أن هذه العقوبة لم تكن تنفَّذ حرفياً إلا فى حالات ارتكاب جرائم القتل «نفساً بنفس». وكانت تُستبدل بتعويض مادى.

إلا أن الكتبة والفريسيين مدوا مظلة مبدأ «العين بالعين»، والذى يطبقه القضاة، ليشمل العلاقات الشخصية التى لا ينطبق عليها، وحاولوا أن يستخدموه لتبرير الانتقام الفردى، مع أن الناموس يقول صراحة: «لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك» (لا ١٩: ١٨)... وهكذا انقلبت الأمور، واستُخدم المبدأ (الذى أعطى للقاضى - لا الناس) مبرراً لفعل ما أراد الناموس أن ينهى عنه، وهو الانتقام البشرى[١].

وفى تعليق المسيح، لم ينقض مبدأ العين بالعين والسن بالسن، لأنه مبدأ عادل وصادق ذكره فى قوله: «لا تدينوا لكى لا تُدانوا» (مت ٧: ١). وقد أسس كل تعاليمه عن حقيقة الدينونة الإلهية فى اليوم الأخير على ذات المبدأ. والذى أراد المسيح أن يؤكد عليه فى هذا التباين بين تعليمه وتعليم العالم؛ هو أن هذا المبدأ يختص بالمحاكم البشرية وبدينونة الله، لكنه لا ينطبق

(١) John W. Winham, *Christ and the Bible*, (Tyndale Press, 1972) p. 35

على علاقاتنا الشخصية، التى ينبغى أن تُبنى على الحب لا العدل القضائى. فواجبنا تجاه الذين يخطئون إليها لا الانتقام ولا الثأر، بل قبول الظلم بدون انتقام أو طلب تعويض «لاتقاوموا الشر» (مت ٥ :٣٩) . ومعنى «لا تقاوموا» فى اليونانية (anthistemi) واضح تماماً، وهو عدم المعارضة.. إذاً ما الذى منعنا المسيح من أن نقاومه؟

لعل مقارنتنا لاستخدام هذا الفعل فى أماكن مختلفة من العهد الجديد،يساعدنا على فهم معناه، فأول ما يُستخدم فيه هو أن لا نقاوم الله، ولا مشيئته (رو ٩ :١٩)، ولا الحق (٢تى ٣ :٨و٤ :١٥ ولو ٢١ :١٥ وأع ٦ :١٠ و١٣ :٨)، ولا سلطانه (رو ١٣ :٢) . ولكننا مدعوون دائماً لمقاومة إبليس، وهذا ما يطلبه منا الرسول بطرس (١بط ٥ :٩) والرسول بولس (أف ٦ :١٣) والرسول يعقوب (يع ٤ :٧) ، لأنه «الشرير» وفى يده قُوى الشر. فهل يطالبنا المسيح بعدم مقاومة الشر؟

لا نستطيع أن نفسِّر هذه الوصية على أنها دعوة لمهادنة الشيطان أو الخطية. ولكننا نجد مفتاح فهم هذا التعليم فى فهم الكلمة المترجمة «الشر» فى الأصل اليونانى (toponero)، وقد وردت فى صيغة المذكر، فهى دعوة لمقاومة «إنسان الشر» أى «إبليس». فنحن لا نقاوم شخصاً شريراً «الشخص الذى يخطئ فى حقك» (حسب ترجمة NEB) . ولا يذكر المسيح أن مثل هذا الشخص شرير، ولا يطلب منا أن نتظاهر بأنه شخص غير شرير أو أن نتغاضى عن سلوكه الشرير. لكن الذى طلبه منا هو أن لا ننتقم. وكما جاء فى (ترجمة GNB) «لاتنتقم من الشخص الذى يخطئ إليك».

ثم يقدم لنا المسيح أربعة مواقف محددة، نطّبق فيها مبدأ عدم الانتقام، وكلها مواقف من الحياة، نرى فى كل موقف منها شخصاً شريراً:

أوّلهم، يؤذينا بأن يلطمنا على خدنا.

والثانى، يريد أن يحاكمنا.

والثالث، يريد أن يسخرنا لخدمته.

والرابع، يريد أنى يبتزنا أو يأخذ نقودنا.

وكل هذه المواقف، فيما عدا الثالث الذى قد لا ينطبق على عصرنا الحاضر، لأن الفعل المترجم «سخرك» من أصل فارسى (angareusei)، واستخدمه المؤرخ «يوسيفوس» للإشارة إلى عمل المواقف الأربعة، يقول المسيح إن واجبنا المسيح أن لا ننتقم ـ حتى لو ضاعف الشخص «الشرير» الضرر الواقع علينا.

وليسمح لى القارئ أن أقول (بالرغم من أن هذا يسبب لنا ضيقاً) إنه فى أحيان كثيرة لا نستطيع أن نتفادى مثل هذا المطلب، بل قد نطبقه حرفياً. وقد يبدو مضحكاً أن علينا أن نحول خدَّنا الأيسر لمن يضربنا على الأيمن، خصوصاً لو عرفنا أن اللطم على الخد الأيمن يكون بظهر اليد، وهى لطمة تحمل معنى الإهانة الشديدة، أكثر منها الأذى البدنى. وربما كان هذا ما قصده المسيح. فهو لم يقصد إهانة عادية، لكن «إهانة شديدة، خاصة مثل وصف التلاميذ أنهم مُضلّون»[٢].

إلا أن المسيح قد طبَّق هذه المقاييس على نفسه فقد تنبأ العهد القديم أنه يقول: «بذلك ظهرى للضاربين وخدى للناتفين، ووجهى لم أستر عن العار والبصق» (إش ٥٠:٦). وتحققت النبوة وقت محاكمته، فبدأ عسكر اليهود يبصقون عليه ويغطون وجهه ويلكمونه ويقولون له: «تنبأ». وكان الخدام يلطمونه. ثم ضفر عسكر الرومان إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه، وألبسوه أرجواناً، وضربوه على رأسه بقصبة، وهم يسخرون منه قائلين: «السلام لك يا ملك اليهود». ثم بصقوا، عليه وسجدوا له جاثين على ركبهم بسخرية (مر ١٤ :٦٥؛ ١٥ :١٦ـ٢٠). وفى جلاله الأبدى، ضبط نفسه العامرة بالمحبة، واحتفظ بهدوئه، ورفض تماماً أن ينتقم من المسيئين إليه، بل إنه سمح لهم بأن يكملوا مسلسل السخرية إلى أن انتهى.

فدعونا قبل أن نحاول التخلُّص من تحدى المسيح لنا، بقولنا إن تعليمه يطالبنا بمثالية غير عملية، أن نتذكر أن المسيح دعا تلاميذه إلى ما أسماه «بونهوفر»: «مشاركة المسيح فى صليبة مشاركة منظورة»[٣]. وهو ما عبَّر عنه بطرس الرسول بالقول: «لأنكم لهذا دُعيتم، فإن المسيح

---

(١) مرجع سابق؛ Allen, P. 54

(٢) مرجع سابق؛ Jeremais pp. 27 , 28

(٣) مرجع سابق؛ Bonhoeffer, P. 130

أيضاً تألم لأجلنا تاركاً لنا مثالاً لكى تتّبعوا خطواته.. الذى إذ شُتم لم يكن يشتم عوضاً، وإذا تألم لم يكن يهدد، بل كان يسلّم لمن يقضى بعدل» (١بط ٢: ٢١، ٢٣). وقال «سبرجن»: «لنكن مثل السندان عندما يكون الأشرار كالمطارق»(١).

لكن أن نكون سنداناً، فهذا أمر يختلف عن أن نكون ممسحة للأقدام، فتعليم المسيح مثالى، وهو لا يصف إنساناً ضعيفاً واهناً لا يقاوم، فقد تحدى هو نفسه رئيس الكهنة وقت محاكمته (يو ١٨: ١٩ـ٢٣). فأمامنا مسيح قوى، ظهرت قوته فى ضبط نفسه ومحبته للآخرين، حتى رفض تماماً أى يقوم بأى نوع من الانتقام. **فإن كان لنا الضمين الحى، وعزمنا أن لا نحيد عن تعليم المسيح، يجب أن لا نأخذ هذه المواقف الأربعة بحرفية متخشّبة، لأنها قُدمت لنا ـ لا باعتبارها لوائح تفصيلية لمبدأ المحبة، بل باعتبارها تفسيراً لهذا المبدأ.** كما أنها أعطيت، ليرى الآخرون فينا سمو هذا المبدأ. هذه هي المحبة غير الأنانية التى لا يتشفّى صاحبها بالانتقام عندما يجرحه الناس، لكنه يتجه إلى ما يُسعد الآخرين والمجتمع، ويتصرف طبقاً لذلك، فلا يجازى عن شر بشر أو عن شتيمة بشتيمة، لكنه يقابل الشر بالخير، ويكون على استعداد أن يقدم الجسد والملابس والخدمة والمال، من منطلق المحبة.

وكل ما يضع حدوداً للعطاء المسيحى، يضع حداً للمحبة. فعلى سبيل المثال، قاوم الرسول بولس الرسول بطرس مواجهةً، لأن سلوك بطرس كان خطأً، فقد كان ينسحب من تناول الطعام مع الوثنين المتنصرِّين، عندما يرى متنصرِّين من اليهود، وبهذا الانسحاب كان يناقض تعليم الإنجيل، فلم يذعن له بولس ولم يتركه يفعل هذا، بل قاومه وانتهره علانية، معلناً رفضه لهذا العمل (غل ٢: ١١ـ١٤). وأعتقد أننا نؤيد بولس فى تصرفه مع بطرس، لأن هذا التصرف كان تعبيراً عن المحبة لبطرس. فبولس لم يكن عدواً لبطرس، ولم يؤذه عندما انتهره، لأنه من جانب آخر، كان يحب المتنصرين من الوثنيين محبة عميقة، وهى المحبة التى أهانها بطرس، فكأنه أنكر الإنجيل.

إلا أن كلام المسيح، هنا، لا يجب أن يؤخذ كترخيص لطاغية مستهتر، أو لخبيث، أو سفاح ليفعل ما يشاء، لأن المسيح يريد أن يمنع الانتقام ـ لا أن يشجع الظلم أو الرذيلة أو عدم الأمانة، فكيف لأناس جعلوا انتشار ملكوت الله وبره أولويتهم الأولى أن يشاركوا في انتشار الظلم والاستهتار؟

(١) مرجع سابق؛ Spurgeon, P. 30

إن المحبة الحقيقية، والاهتمام بكل من الناس والمجتمع، يساهمان فى منع الشر ونشر الخير. وطاعة وصية المسيح هنا «تعبير عن المحبة ـ لا عن تصرف أحمق»[١]. فهو لا يعلمنا التواكل أو عدم المسئولية التى تشجع الشر، بل يعلمنا الاحتمال الذى ينبذ الانتقام، فالمعنى الحقيقى لوصية «لا تقاوموا» هو «لا تنتقموا». وقد فسَّر البعض وصية «لا تقاوموا الشر»، بأنها دعوة للمسالمة فى كل الظروف، واعتبروها نهياً عن استخدام القوة فى كل الأحوال. وق علَّق لوثر على مثل هذا التفسير، بوصفه «القديس المجنون»، الذى «يسمح للقمل أن يمتص دماءه، دون أن يقتله، مستنداً على هذه الوصية، وهو يفضل أن يتألم ويعانى لأنه لا يريد أن يقاوم الشر[٢].

ولقد قدم الأديب المتميز والمصلح الاجتماعى «ليوتولستوى» (الذى عاش فى القرن التاسع عشر) مثالاً آخر متطرفاً لشرح كلام المسيح، فى كتابه «إيمانى» (عام ١٨٨٤)، فوصف كيف أنه فى أوقات الارتباك الشديد حول معانى الحياة: «جلست وحيداً مع نفسى وكتابى»، وقرأ «الموعظة على الجبل» مرة ومرات، «وفجأة فهمت ما لم أفهمه من قبل». وطبقاً لوجهة نظره، فهو قد فهم «ما لم تفهمه الكنيسة خلال ١٨٠٠ عاماً». وقال: «فهمت ما قاله المسيح خصوصاً فى وصية «لا تقاوموا الشر». لقد كانت هذه الكلمات التى فهمتها بمعناها المباشر بالنسبة لى مفتاحاً لكل شئ[٣].

وفى الفصل الثانى من كتابه، بعنوان «الوصية بعدم المقاومة»، فسر كلمات المسيح على أنها نهى عن كل وسائل العنف بالنسبة للأشخاص والحكومات: «من المستحيل أن نعترف بأن المسيح هو الله، وأن أساس تعليمه هو عدم المقاومة؛ وفى ذات الوقت تنبِّر على الممتلكات ونقيم المحاكم والحكومات والقوة العسكرية» ... «نهى المسيح تماماً عن إقامة كل المؤسسات البشرية والمحاكم، لأنها تقاوم الشر وتقابل الشر بالشر» ... إن ذات المبدأ ينطبق على الشرطة والجيش، فإنه عندما نُطاع وصايا المسيح، «سيصبح كل البشر إخوة يعيشون فى سلام مع بعضهم، ويكون ملكوت الله قد جاء»[٤]. وفى الفصل الأخير من كتابه، حاول أن يدافع عن نفسه ضد اتهامه بالسذاجة، لأن «الأعداء سيأتون، وإن لم تحاربهم سيذبحونك»، فتراجع عن مبدئه الأول (وهو مبدأ خاطئ)، فيس البشر عاقلين محبين، «وحتى الذين نسميهم لصوصاً ومجرمين هم فى واقع الأمر يحبون الخير ويكرهون الشر مثلى تماماً. وعندما يرون سلوك وتعاليم

(١) مرجع سابق؛ Glover, P. 55
(٢) مرجع سابق؛ Luther, p. 110
(٣) مرجع سابق؛ Tolostoy. Pp. 315-319
(٤) المرجع السابق؛ ص ٤٠٦

المسيحيين، وكيف أنهم يكرسون حياتهم لخدمة الآخرين؛ لن يوجد شخص فاقد الشعور حتى يسرق طعاماً أو يقتل الذين يخدمونه[١].

وكان «غاندى» أحد الذين تأثروا كثيراً بكتابات «تولستوى»، وكان قد تعلمَ فى طفولته أن يمتنع عن إيذاء الآخرين، وفى شبابه قرأ أولاً عندما كان فى لندن «الموعظة على الجبل»، فقال: «هى التى جعلت المسيح عزيزاً علىَّ». وعندما ذهب إلى جنوب أفريقيا، قرأ كتاب «تولستوى» «ملكوت الله داخلكم». وبعد عشر سنوات، عاد إلى الهند، وقرر أن يطبق أفكار «تولستوى» عملياً، فلم يطبق «المقاومة السلبية» (لأنه اعتبرها سلبية جداً)، ولم يمارس «العصيان المدنى» (لأنه اعتبره معارضه قوية)، لكنها مارس «قوة الحق»، وهو محاولة كسب معارضية بقوة الصدق، وبأن يجعل نفسه مثالاً أعلى فى «احتمال الألم برضا». لكن مثل هذه النظرة تقترب من الفوضى «تمثل دولة العنف بصورة مركزة، لكن منظمة». لذلك، تخيل «غاندى» الوضع المثالى بأنه الوضع الذى توجد فيه الشرطة، لكن من النادر أن تضطر لاستخدام القوة. فالعقوبات ستنتهى، والسجون ستتحول إلى مدارس، والمحاكم إلى دور صلح[٢].

ومن المستحيل أن لا ننبهر باتضاع «غاندى» وإخلاصه فى هدفه، إلا أن سياسته كانت غير واقعية، فقال إنه سيقاوم الغزو اليابانى (لو جاء) بواسطة فرق السلام، لكن قوله هذا لم يوضع فى محك الاختبار. وأوصى اليهود بأن لا يستخدموا العنف فى مقاومة هتلر، لكنهم لم يعيروا كلامه التفاتاً. وفى يوليو ١٩٤٠، أصدر نداءً لكل بريطانى ليوقف العداوة، وقال: لقد مارست نظريةعدم العنف بدقَة مدة تزيد على خمسين سنة متصلة، وطبّقت هذه النظرية فى كل أمرمن أمور حياتى فى البيت والمؤسسات والاقتصاد والسياسة، ولم أفشل ولو فى حالة واحدة»[٣]. لكن هذه الكلمات لم تجد آذاناً صاغية. وعلّق «جاك إيلول» على كلمات «غاندى» بالقول: «إن العامل الجوهرى فى نجاح «غاندى» كان يكمن فى طبيعة الشعب الهندى، الذى ظل لقرون طويلة يبحث عن القداسة والروحانيات.. شعب يستطيع أن يفهم ويقبل رسالة غاندى. ومن الجانب الآخر نرى البريطانيين الذين يدّعون أنهم دولة مسيحية، لم يستطيعوا أن يتغافلوا دعوة «غاندى» بنبذ العنف. ولو وُجد «غاندى» فى روسيا عام ١٩٢٥، أو في ألمانيا عام ١٩٣٣، لقفبض عليه بعد عدة أيام، دون أن يسمع أحد فيما بعد صوته[٤].

(١) المرجع السابق؛ ص ٥٣٥، ٥٣٦

(٢) معظم هذه الاقتباسات وردت فى كتاب George Woodstock, (1972)

(٣) نشرت وكالة رويتر للأنباء نداء غاندى، واقتُبس فى كتاب F. W. Dillistone, Charles Raven, (Hodder, 1975) pp. 230ff.

(٤) Jacques Ellul, Violence (SCM, 1970) p. 15

ونحن نختلف من وجهة نظر «تولستوى» و«غاندى» ـ لا لأنها غير واقعية، لكن لأنها غير كتابية، فنحن لا نأخذ وصية المسيح «لا تقاوموا الشر»، كأنها نهى مطلق عن استخدام القوة بما فيها قوة الشرطة، إلا إذا كنا على استعداد أن نقول إن الكتاب المقدس يناقض نفسه، وإن الرسل لم يفهموا المسيح. **فالعهد الجديد يعلمنا أن الحكومات مرتبة مع الله لمقاومة فاعلى الشر، أى أنها «تقاوم الشر» بمعنى أنها تقاوم فاعل الشر إلى حد معاقبته على شره، وهى أيضاً تكافئ فعله للصلاح (رو ١٣ :١ـ٤)**. وينبغى أن لا يكون هذا التعليم مبرراً لاستخدام العنف فى بعض الدول ذات نظام الحكم المستنيرة فهذا التعليم بعيد جداً عن العنف. وفى واقع الأمر، كانت الإمبراطورية الرومانية التى سماهما بولس (فى رو١٣) خادم الله لأنها تستخدم سلطته، هي ذاتها التى صوَّرها (رؤيا١٣) أنها حليفة الشيطان، لأنها تستخدم سلطاته. إلا أن هاتين الصورتين لذات الحكومة، تكملان ولا تناقضان بعضهما. فكون الدولة مرتبة من الله؛ لا يعنى أنها فى مأمن من سوء استخدام قوتها لتصبح آلة فى يد الشيطان، فيعلمنا التاريخ أن الدولة، أحياناً، قد اضطهدت الصالحين، وقلبت الحق الكتابى الذى يعلن أن وظيفة أصحاب السلطة هي معاقبة فاعلى الشر. فعندما تمارس الدولة السلطة المعطاة لها من الله لتعاقب فاعل الشر، تكون فى هذه الحالة «خادم الله منتقم للغضب منالذى يفعل الشر» (رو ١٣ : ٤).

ولكن: كيف نطبق هذا المبدأ فى الحروب؟

لا أعتقد أن هناك إجابة سهلة مقبولة تؤيد أو تعارض الحروب، بالرغم من أن كل المؤمنين سيتفقون معاً أن الحروب فى طبيعتها أمر وحشى مرعب. وقد نشر «القديس توما الأكوينى» فكرة ما أسماه «الحرب العادلة» وفيها قال إن مثل هذه الحروب تؤسس على العدال ـ سواء فى أسبابها أو وسائلها أو نتائجها. غير أن هذا الوصف لا ينطبق على الحروب فى عالمنا المعاصر. وأنا لا أقدر أن أرفض الحروب من منطلق «لا تقاوموا الشر» فقد سبق أن أيَّدت وجود الشرطة، بل والسجون بالرغم من وجود هذه الآية. **لذلك، فالمبرر الوحيد للحروب، من وجهة نظر كتابية، هو أن الحروب تسير على النهج الذى تسير عليه الشرطة، لكن بالطبع على مستوى أكبر**. فإن كان عمل الشرطة الجوهرى هو معرفة فاعلى الشر وتقديمهم للعدالة، إلا أن معظم الحروب الحديثه لا تستطيع أن تحقق مثل هذا الهدف بدقَّة، فتحدد فعلة الشر وتعاقبهم. والضمير المسيحى يرفض مثل هذه الحروب التى لا تميِّز، فالحروب النووية تقتل المذنب مع البرئ. وهذا سبب كافٍ لأن ننبذ الحروب بتاتاً.

إن واجبات الدولة تختلف تماماً عن واجبات الأفراد، فموقف الأشخاص إزاء فعلة الشر واضحة فى قول بولس: «لا تجازوا أحداً عن شر بشر.. لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء بل أعطوا مكاناً للغضب (أى لغضب الله) لأنه مكتوب: لى النقمة أنا أجازى يقول الرب.. فإن جاع عدوك فأطعمة، وإن عطش فاسقه، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه (أى تجعله يخجل فيتوب). لا يغلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير» (رو ١٢ :١٧ـ٢١). وإن كان الرسول بولس قد أوصى بعدم الانتقام ـ لا لأن الانتقام خطأ فى حد ذاته، لكن لأنه من حق الله وحده، لا من حق الإنسان، فالرب يقول: «لى النقمة»، وهدفه أن يظهر غضبه أو انتقامه (الآن) من خلال ساحات القضاء، كما كتب بولس فى (رو ١٣)، ثم فى (الأبدية) فى يوم الدينونة.

هناك فرق فى الوظيفة التى عيَّنها الله لنوعين من خدَّامه: الدولة التى تعاقب فاعلى الشر، والمؤمنين الذين لا يجب أن يجازوا الشر بالشر، بل يغلبون الشر بالخير. هذا الفرق خلق توتراً فى كل منهاج، لأن كل مؤمن هو (ولو بدرجات متفاوتة) جزء من الدولة، وهو بالتالى يشارك فى الوظيفتين. فعلى سبيل المثال، إن سطا لص على منزلى ليلاً وأمسكته، لعل من واجبى أن أعطيه شيئاً ليأكل ويشرب، وفى ذات الوقت أتصل بالشرطة لتأتى وتقبض عليه!

قد شرح «لوثر» هذا التوتر بأن وضع فرقاً بين أشخاصنا، وعملنا. وكان هذا تعليمه عن «الملكوتين». وهو تعليم انتقده البعض. لكن «لوثر» استقاه من قول المسيح «أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (مت ٢٢ :٢١)، فرأى فى هذه الآية مملكتين مملكة إلهية روحية (هى ملكوت المسيح)، ومملكة دنيوية زمنية (هى ملكوت العالم). فى المملكة الأولى، التى سماها «ملكوت يد الله اليمنى»، يعيش المؤمنون كأشخاص. لكن فى المملكة الثانية، التى سماها «ملكوت يد الله اليسرى»، يعيش المؤمن كموظف ومواطن مسئول. وعلى المؤمن (سواء كان أباً أو رئيساً فى العمل أو قاضياً أو أميراً) أن لا يخلط بين شخصه ووظيفته»[١].

وإليك جزءاً من تطبيقاته على هذا الفرق فى وصية «لا تقاوموا الشر». فالمؤمن «يعيش كمواطن مسيحى، ويعانى شخصياً من أشياء كثيرة فى العالم. لكنه كمواطن يجب أن يستخدم كل الوسائل التى يمنحها له قانون دولته. فالمؤمن لا يجب أن يقاوم الشر بالشر فى حدود وظيفته (كشخص فى العالم) عليه أن يقاوم الشر. فقواعد «مملكة المسيح» هي احتمال كل شئ، والغفران، ومجازاة الشر بالخير. لكن على الجانب الآخر. فى «مملكة العالم»، لا يجب أن يكون

(١) مرجع سابق؛ Luther, p. 83

هناك احتمال للظلم، بل على العكس من هذا: هناك دفاع ضد الشر بل وعقابه. والأمر يتعلق بوضع الإنسان ووظيفته. فالمسيح لم يقل : «لا ينبغى لأى شخص أن يقاوم الشر» ؛ لأن هذا معناه إلغاء القوانين والسلطات لكنه قال: «أنتم لا ينبغى أن تفعلوا هذا»(١) .

ولقد قُوبل هذا الفرق الواضح الذى افترضه «لوثر» بسوء استخدام، فكتب «هارفى ماك أرثر» : «من الصعب أن لا تشعر وأنت تقرأ تعاليم لوثر هذه أنها أعطت الجانب الدنيوى استقلالية لا حق له فيها»(٢) . فكأنه يقول للمؤمنين: إنه فى الملكوت الدنيوى لستم بحاجة أن تسألوا المسيح عن واجباتكم، لأن هذه هي وظيفة الحاكم. مع أن الكتاب المقدس لم يضع المملكتين على طرفى نقيض، كما لو أن الكنيسة هي دائرة المسيح التى تُدار بالحب، بينما تُدار الحكومات بالعدل. فاللمسيح سلطان عام، ولا توجد أية دائرة خارجة عن إدارته وسلطانه. وأقول إن طريقة الحكومات فى إظهار العدل تحتاج أحياناً إلى نبض الحب، بينمامحبة الكنيسة تحتاج أحياناً إلى تنظيم، بل وتأديب. وقد تحدث المسيح عن الإجراء المؤلم، الذى فيه تضطر الكنيسة أن تقطع شركة شخص مذنب يرفض التوبة.

وأعتقد أن الفرق الذى تحدث عنه «لوثر» بين الشخص والوظيفة، أو بين الأشخاص والحكومات، فرق صحيح، فلا ينبغى على المؤمنين (كأشخاص) أن ينتقموا سواء بالفعل أو بالنيَّة. لكن المؤمن (المسئول) ، سواء فى الدولة أو في الكنيسة، قد يجد نفسه وقد أوكله الله على مسئولية مجبراً على الانتقام من الشر، بل ومعاقبته.

ولتلخيص تعليم هذا التباين نقول: **إن المسيح لم يمنع سيادة العدل، لكنه نهى عن أن ننتقم بأيدينا لأنفسنا. ومبدأ العين بالعين مبدأ تطبقه المحاكم. أما في حياتنا الشخصية فيجب أن نتخلص من كل أنواع الانتقام، سواء بالكلام أو بالأفعال، فنتطهَّر من كل مرارة في نفوسنا، ونضع قضايانا في يد القضاء العادل، كما فعل المسيح (١بط ٢ :٢٣) . لكن لا ينبغى أن نطلب أو حتى نتمنى الانتقام الشخصى، فنقابل الأذية بأذية. لكن لنحتمل، وهكذا نغلب الشر بالخير.**

لكن عدم مقاومة الشر، لا يعنى أن يؤخذ كذريعة نبرر بها ضعف الشخصية، أو التهاون فى بعض الأمور الأخلاقية، أو الفوضى السياسية، أو حتى المسالمة. لكن ما كان يطلبه المسيح من

---

(١) المرجع السابق؛ ص ١١٣ ، ١١٤
(٢) مرجع سابق؛ McArthur, P. 135

أتباعه هو موقف شخصى تجاه فاعلى الشر. والمحرك فى هذا الموقف، هو الرحمة ـ لا العدل.. هذا الموقف يرفض الانتقام تماماً، بل هو على استعداد أن يحتمل آلاماً أكثر، لا لمجرد الرغبة فى احتمال الآلم، لكن لأن أصحاب هذا الموقف قد عقدوا العزم على تحقيق أغراضهم السامية.

ولا أعرف شخصاً اختبر هذا الأمر فى عصرنا الحديث، أكثر من «مارتن لوثر كنج» الذى تعلم من «غاندى» من «تولستوي» ولو أنى أعتقد أن «مارتن كنج» فهم تعاليم المسيح بطريقة أفضل من كليهما. ولا يشك أحد فى الظلم الذى احتمله «مارتن كنج»، حتى قال د. بنيامين فايز» وهو يرثيه يوم وفاته: «إن كان أحد يعرف معنى الألم فهو «لوثر كنج. لقد دُمر منزله. وعاش ثلاثة عشر عاماً تحت التهديد بالقتل، وأتُهم زوراً بالشيوعية وأنه غير مخلص.. طعنه أحد بنى جنسه فى أحد الفنادق، وسُجن أكثر من عشرين مرة، وشعر بالألم العميق لأن أصدقاءه خانوه. إلا أن هذا الإنسان لم يحمل مرارة أو ضغينة فى قلبه تجاه أى شخص، ولم يفكر فى الانتقام من أحد. لقد جال فى هذا العالم من شماله إلى جنوبه ومن شرقه إلى غربه ينادى بنبذ العنف وقوة المحبة الفادية[١].

وقد بنى «مارتن لوثر كنج» إحدى عظاته المؤثرة على (مت ٥:٤٣ـ٤٥) جعل عنوانها «أحبوا أعداءكم»، وكتبها وهو فى سجن بولاية جورجيا الأمريكية، حيث تساءل فيها: كيف ولماذا ينبغى للمؤمنين أن يحبوا، ووصف كيف «أن الكراهية تتكاثر وتنشئ كراهية، وكيف أنها تؤذى الذى يكره». لكن المحبة «هى القوة التى تستطيع أن تحول العدو إلى صديق، لأنها تملك قوة الفداء وقوة الخلق». وقد طبّق فكرته هذه على التمييز العنصرى فى أمريكا، فلأكثر من ثلاثة قرون كان الزنوج الأمريكيون يعانون من القهر والتمييز العنصرى، فقرر لوثر كنج وأصدقاؤه أن «يقابلوا الكراهية بالحب»، فربحوا حريتهم وكسبوا أعداءهم، وصار انتصارهم مضاعفاً[٢].

---

(١) Coretta Scott king, My life With Martin Lurther King Jr, (Hodder & Stoughton, 1970) pp . 365-369

(٢) Strength To Love, (1963, Fontana 1969) pp. 47-55

٢ـ المحبة العامة (٤٣ـ ٤٨)

«سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لتكونوا أبناء أبيكم الذى في السماوات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأى فضل تصنعون أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى في السماوات هو كامل».

لقد رأينا كيف تم تحريف الوصية، فصارت: «تحب قريبك وتبغض عدوك»، وهكذا بُتر جزء من الوصية وأضيف جزء آخر، فتقلصت فى مقاييسها بعد أن حُذف منها «كنفسك»، وهو المقياس الذى يسمو بالمحبة إلى مقاييس سامية. وتقلصت أيضاً فى موضوعها بعد إضافة «تبغض عدوك». وهذا تحريف صارخ لا مبرر له، ومع ذلك فقد دافع معلموا الناموس عنه، باعتباره تفسيراً قانونياً للوصية، واستندوا فى ذلك أن الحديث فى (لاويين ١٩) كان موجَّهاً إلى «كل جماعة بنى إسرائيل»، فيكون موضوع الحيث عن واجبات بنى إسرائيل نحو آبائهم، وجيرانهم من إخوتهم «لا تبغض أخاك فى قلبك.. لا تنتقم ولا تحقد على أبناء شعبك، بل تحب قريبك كنفسك» (لا ١٩ : ١٧ ، ١٨).

ولقد كان من السهل جداً على أصحاب الفتاوى الأدبية (سواء بقصد أم بغير قصد) أن يخففوا مطالب مثل هذه الوصية، فيحرفون الحقائق طبقاً لاهوائهم. ففى حديثهم عن من هو هذا «القريب»، قالوا: «هو أحد أبناء شعبى.. شخص يهودى من أقربائى وأنسبائى وعشيرتى، ينتمى فنفهمها ضمناً أنها تعنى كراهية الأعداء، فالعدو ليس قريباً لى أحبه». لقد فلسفوا سبب هذا التخفيف؛ ليقتنع به من يريد أن يقتنع، لأنه يؤكد على التفريق العنصرى. إلا أن مثل هذا الكلام الذى اعتبره معلمو الناموس منطقياً، كان تجاهلاً لوصايا وردت فى بداية ذات الإصحاح، والتى فيها أوصى الله الشعب أن يتركوا ما يتناثر من الحصاد وبقايا عناقيد الكرم للغريب والمسكين «للمساكين والغريب تتركه»، أى للشخص الذى ليس من بنى إسرائيل. وفى نهاية الأصحاح، يوصيهم الله ألا يظلموا الغريب المقيم فى أرضهم، «كالوطنى منكم يكون لكم الغريب

النازل عندكم، وتحبه كنفسك» (لا ١٩ :٣٤) ، ويقول الرب لموسى: «تكون شريعة واحدة لمولود الأرض وللنزيل النازل بينكم» (خر ١٢ :٤٩) .

غير أنهم أداروا ظهورهم لبعض الوصايا الأخرى التى تنظّم علاقاتهم بأعدائهم، ومنها القول: «إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً ترده إليه. إذا رأيت حمار مبغضك واقعاً تحت حمله وعدلت عن حلّه فلابد أن تحل معه» (خر ٢٣ :٤ ، ٥) . وهناك وصية أخرى تقول: «لا تنظر حمار أخيك أو ثوره واقعاً فى الطريق وتتغافل عنه، بل تقيمه معه لا محالة» (تث ٢٢ :٤) . فمعاملة حيوان الأخ وحيوان العدو سيان. ولا شك أن معلمى الناموس كانوا يدركون جيداً تعاليم سفر الأمثال، التى اقتبس منها بولس شرح معنى المحبة الغالبة ـ لا الشر المنتقم، فقال: «إن جاع عدوك فأطعمه خبزاً، وإن عطش فاسقه ماء» (أم ٢٥ :٢١ ورو١٢ :٢٠) .

ولعل الكتبة والفريسيين قدموا أدلة كتابية لكراهية الأعداء، سواء من الحروب الإسرائيلية ضد الكنعانيين، أو من بعض المزامير التى تلعن الأعداء، مما يدل على أنهم لم يفهموا هذه الحروب والمزامير، فقد عُرف الكنعانيون بأنهم شعب فاسد دينياً وأخلاقياً، وكانت تصرفاتهم ممقوته تدعو إلى التقيؤ، حتى أن الكتاب قال عنهم: «الأرض تتقيأ سكانها» (لا ١٨ :٢٥) ، وقال إن بنى إسرائيل سيلقون مصير الكنعانيين لو أنهم سلكوا مسلكهم (لا ١٨ :٢٨ ، ٢٠ :٢٢) . ووصف «بونهوفر» حروب بنى إسرائيل أنها «الحروب المقدسة الوحيدة فى التاريخ، لأنها كانت حروب الله ضد عالم الوثنية. وليست هذه الحروب هي التى أدانها المسيح، وإلا فإنه يكون قد أدان كل تاريخ معاملات الله مع شعبه. لكن العكس هو الصحيح، فقد صادق المسيح على العهد القديم. لكن من الآن وصاعداً، لن تكون هناك حروب إيمان»[١] .

أما المزامير التى تعبِّر عن كراهية للأعداء، فالمرنم فيها لا يتحدث بصفته الشخصية، لكنه كممثل لشعب الله يعتبر أن الأشرار هم أعداء الله، فيحسبهم أعداءه، لأنه تشبَّع بفكر الله، فكرههم لأنه يحب الله، وهو واثق أن هذه الكراهية هي «بغضة تامة». وفى هذا يسأل أن يختبره الله ويعرف قلبه، ويمتحن أفكاره لكى يرى إن كان فيه طريق باطل (مز ١٣٩ :١٩ـ٢٤)[٢] .

وإن كنا لا نستطيع أن نصل إلى هذا المستوى، فهذا دليل ليس على روحانيتنا

(١) مرجع سابق؛ Bonhoeffer, P. 132

(٢) مرجع سابق؛ Homelies.

ـ بل على نقصها. وبرهان ليس على حبنا السامى للناس ـ بل على حبنا المتدنى لله. إنه دليل على عدم قدرتنا على كراهية الأشرار بالبغضة التى يسميها «بغضة تامة» ـ لا «البغضة الشخصية».

إن الحقيقة هي أن هؤلاء الأشرار ينبغى أن يكونوا موضوع حبنا وموضوع «بغضتنا»، كما أنهم موضوع محبة الله وموضوع بغضته (أى غضبه). فإن كنت تحبهم فستتشوّق إلى توبتهم فيؤمنون ويخلصون. وإن كنت تبغضهم، فأنت تتوق أن يحل بهم غضب الله لأنهم رفضوا التوبة والإيمان بإصرار وعناد. هل صليت مراراً طالباً خلاص الأشرار الذين جدفوا على الله، وظلموا الناس، وعاملوهم مثل الحيوانات؟ وهل استمرت صلواتك لأجلهم؛ حتى ينصب عليهم غضب الله إن هم رفضوا خلاصه؟ لقد فعلت أنا هذا. فمثل هذا تعبير عن إيماننا بالله، وأنه إله الخالص وإله الدينونة معاً، ونحن نريد إتمام إرادته الكاملة.

إذاً فهناك ما يسمى «بغضة تامة»، كما أن هناك «غضباً عادلاً أو صالحاً». لكنها بغضة لأعداء الله ـ ليس لأعدائنا نحن. إنها البغضة التى تخلو من الحق والانتقام. وهى ناتجة عن محبتنا لله وطلب مجده. وتعبِّر عنها صلاة الشهداء الذين قُتلوا لأجل كلمة الله وشهادته (رؤ ٦ : ١٠)، وسيعبِّر عنها فى اليوم الأخير كل جمهور مفديى العلى، عندما يرون غضب الله ينصب على الأشرار، وعندما ينتصر الله بعدله الكامل، يهتفون: «هللويا! الخلاص والمجد والكرامة والقدرة للرب إلهنا، لأن أحكامه حق وعادلة.. أمين هللويا» (رؤ ١٩ : ١، ٣، ٤).

على أن مثل هذه البغضة المقدسة النقية، بغضة الشر والأشرار، غير الملوثة بأى حقد أو ضغينة شخصية، ليست مبرراً لمعلمى الناموس ليغيِّروا وصية الله بمحبة القريب، ليجعلوها وصية بغض الأعداء وكراهيتهم بعداوة شخصية. إن تعبير «تبغض عدوك» مثل «الورم الطفيلى»[1]. أضيف على ناموس الله، ولا علاقة له على الإطلاق بالناموس. فالله لم يعطِ شعبه قاعدتين أخلاقيتين، إحداهما يعاملون بها القريب، والأخرى يعاملون بها العدو.

وقد أدان المسيح إضافة «تبغض عدوك»، فقال: «أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم» (عدد ٤٤)، لأن القريب كما شرح هو فى مَثَل السامرى الصالح فى (لو ١٠ : ٢٩ـ٣٧) ليس بالضرورة أحد بنى جنسنا أو ديننا، بل قد لا يمتُّ لنا بأى صلة، وقد يكون أحد أعدائنا يطاردنا بسكين أو بسلاح.

---

(١) مرجع سابق؛ Spurgeon, P. 31

إن «القريب» فى مفردات لغة الله يشمل (العدو) أيضاً. ولاذى يجعله قريباً هو أنه إنسان محتاج، نعرف احتياجه، ونستطيع أن نسد احتياجه ولو جزئياً.

إذا ما هو واجبنا من نحو أقربائنا، سواء كانوا أصدقاء أم أعداء؟

علينا أن نحبهم وإذا أضفنا كلمات الموعظة. طبقاً لما جاء فى إنجيل لوقا، نقول إن محبتنا لهم تظهر فى: «أحبوا أعداءكم أحسنوا إلى مبغضيكم.. أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا» (لو ٦ :٢٧ ، ٣٥). وفى هذه الأيام، يزدرى العالم بالمحسنين وفاعلى الخير، بل إن محبة الخير للبشر، التى نراها فى أيامنا هذه، لا تمت بصلة لما قصده المسيح فى كلامه هنا. إن الأمر الذى كان يركز عليه هو أن المحبة الحقيقية ليست مجرد عواطف وجدانية، لكنها خدمة عملية مضحية متواضعة، وكما قال الأديب «دستويفسكى»: «المحبة من خلال العمل أعظم بكثير من المحبة من خلال أحلام الليل. إن أعداءنا يبحثون عمّا يضرنا، لكن ينبغى أن نعمل ما هو صالح لهم، فهكذا عاملنا الله، لأنه ونحن أعداء مات المسيح لأجلنا ليصالحنا مع الله (رو ٥ :١٠). وإن كان الرب قدم نفسه لأجل أعدائه؛ ألا ينبغى أن نعطى ذواتنا لأجل أعدائنا؟».

ونستطيع أن نعبر عن حبنا بكلمات نوجهها إلى أعدائنا أو إلى الله من أجلهم عملاً بالوصية: «باركوا لاعنيكم». وإن كان الأعداء يبتهلون لتقع المصائب على رؤوسنا، فينبغى أن يكون رد فعلنا أن نطلب نزول بركات السماء عليهم، معبرين عن هذا بكلامنا الذى لا نتمنى لهم فيه إلا كل شئ صالح. ثم أخيراً نوجّه كلماتنا إلى الله عملاً بالوصية: «صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم» (مت ٥ :٤٤ ولو ٦ :٢٨).

ولقد قال القديس «يوحنا فم الذهب» عن مسئونية الصلاة لأجل الأعداء إنها «أعلى قمم ضبط النفس... وبالنظر إلى التباينين الأخيرين، نستطيع أن نرى سلماً صاعداً مكوّناً من تسع درجات، تنتهى بقمة السلم، وفيه نرى التشفُّع لأجل المسيئين إلينا. والخطوة الأولى في السلم هي عدم البدء بالشر. والثانية هي عدم الانتقام. والثالثة هي الاحتفاظ بالهدوء وعدم الغضب. والرابعة هي أن نقبل أن نتألم بظلم. والخامسة هي أن نخدم الشرير بأكثر مما يسخرنا به. والسادسة هي أن لا نكره فاعلى الشر. لكن سابعاً وثامناً: أن نحبه ونحسن إليه، والخطوة التاسعة أن نصلى لأجله»[1].

(١) مرجع سابق؛ Chrysostom, P. 381

ورأى مفسرون كثيرون فى هذه الصلاة الشفاعية لأجل المسيئين إلينا قمة المحبة المسيحية، فقال «بونهوفر» إنها «الوصية السامية، فمن خلال جو الصلاة نذهب لعدونا ونقف بجانبه، ونتضرع لله من أجله»[١]. **وإن كانت الصلاة لأجل المسيئين إلينا تعبر عن محبتنا لهم؛ فهى أيضاً وسيلة لزيادة هذه المحبة لهم. فمن المستحيل أن تصلى لأجل شخص دون أن تحبه، ومن المستحيل أن تستمر فى الصلاة لأجله بدون أن تكتشف أن محبتك له تنمو وتنضج. فلا يجب علينا أن نؤجل الصلاة لأجل أعدائنا، حتى نشعر بشيء من الحب فى قلوبنا تجاههم.** لكن علينا أن نبدأ بالصلاة لأجلهم، قبل أن نشعر بحبنا لهم. وعندها سنجد محبتنا تنمو وتصبح برعماً، ثم تترعرع وتزهر وتصبح ناضجة. ويبدو أن المسيح كان يصلى من أجل معذبيه، وهم يدقون المسامير فى يديه ورجليه، لأن الفعل «اغفر» فى صلاة المسيح: «يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لو ٢٣: ٣٤) يدل على أنه صلى استمر يصلى لأجل معذبيه طوال فترة الصَّلب. **وإن كانت عذابات الصليب القاسية لم تستطع أن تسكت صلوات المسيح لأجل أعدائه، فما هي نوعية الآلام أو الأضرار التى تبرر سكوتنا عن الصلاة لأجل أعدائنا؟**

إنى أجد نفسى أقتبس من كلام «بونهوفر» فى هذا الفصل أكثر من اقتباسى من غيره، وأعتقد أن السبب أنه بالرغم من أنه كتب تفسيره قبل اندلاع الحرب، إلا أنه استطاع أن يرى ماذا سيرتكبه النازى. ونحن نعلم أن شهادته المسيحية كانت سبباً فى استشهاده. ولذلك، اقتبس من كاتب اسمه «أ.ف.س.فيلمار A. F. C. Villmar» عاش عام ١٨٨٠، وكأنه يتنبأ عن الأيام التى عاشها بونهوفر، فقال: وصية أن نحب أعداءنا وأن نصفح عنهم ونحسن إليهم، أصبحت وصية ملحة فى الحروب التى تواجهنا هذه الأيام.. إن المومنين سيُطاردون من مكان لمكان، وسيُمثَّل بهم، وسيعذَّبون، وسيُقلتون بعد أنواع من العذاب.. نحن نقترب من عصر الاضطهاد الواسع الانتشار. وسيأتى سريعاً الوقت الذى سنصلى فيه صلاة محبة عميقة لأجل أبناء الهلاك الملتفين حولنا، ينظرون إلينا بنظرات الكراهية، هؤلاء الذين ربما رفعوا أيديهم علينا محاولين قتلنا.. إن الكنيسة التى تنتظر الرب حقاً، والتى تميِّز علامات الأزمنة ينبغى أن تعيش حياة مقدسة، وتتسلح بصلاة المحبة هذه».

وبعد أن قال المسيح إن محبتنا لأعدائنا ينبغى أن تظهر فى أعمالنا وأقوالنا بل وصلواتنا

---

(١) مرجع سابق؛ Bonhoeffer, P. 376

أكمل حديثه ليوضح أنه من خلال هذه الأمور، ومن خلال هذه الأمور فقط، نستطيع أن نعلن عن هويتنا أننا فعلاً أبناء الله، لأنه حينئذ تكون محبتنا مثل محبة أبينا السماوى الذى «يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين» (عدد ٤٥).

لاحظوا معى نوعية الناس التى يهبها الله الشمس والمطر، تجدوا أن محبة الله لا تعرف التمييز العنصرى، بل تتَّجه على قدم المساواة للأشرار والصالحين. ولقد سماها اللاهوتيون الذى أتوا بعد «كلفن»: «النعمة العامة الشاملة». إنها ليست «نعمة الخلاص» التى يقبلها الخاطئ فيتوب ويؤمن ويخلص، لكنها النعمة التى تشمل كل الإنسانية بمن فى هذا التائب وغير التائب، والمؤمن وغير المؤمن، على قدوم المساواة. هذه «النعمة العامة» ليست نعمة الله المخلص، ولكنها نعمة الله الخالق. وهى ليست أقل من بركات الشمس والمطر اللذين بدونهما لا ينمو نبات، فلا يجد الإنسان ما يأكله. وهذا هو مقياس المحبة المسيحية. ينبغى أن نحب مثل الله ـ لا مثل الناس. «لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأى أجر لكم؟» أى فضل يرجع إليكم من مثل هذه المحبة؟ «فإن الخطاة أيضاً يفعلون هكذا» (لو ٦ :٣٢).

إن الإنسان الساقط يستطيع أن يحب، فعقيدة الفساد الكامل لا تعنى، ولن تعنى أن الخطية الأصلية جعلت الإنسان عاجزاً عن فعل أى شئ صالح، لكن معناها أن كل شئ صالح يعمله ملطخ لدرجة ما بالشر. ويستطيع الخطاة وغير المؤمنين أن يحبوا، فهناك محبة الآباء ومحبة البنين، ومحبة الزوجين، ومحبة الأصدقاء. كل هذه أمور طبيعية يفعلها الرجال والنساء، حتى وهم خارج الإيمان المسيحى. حتى العشارون (جباة الضرائب المعروفون بالطمع وابتزاز الناس) يحبون الذين يحبونهم. والأمم الوثنيون (المعتبرون كلاباً فى نظر اليهود، الذين كانوا يشمئزون منهم، وإذا رأوهم فى الطريق كانوا يغيرون خط سيرهم!) يسلمون على بعضهم. هذه أمور معروفة لا تقبل الجدل.

لكن كل محبة البشر في سموها وعظمتها ليست محبة خالصة، لأن شوائب الأنانية تشوبها. ونحن كمسيحيين دعيُنا لنحب أعداءنا محبة لا تشوبها أيه أنانية، وهذا مستحيل بدون نعمة غير عادية من الله. فإن كنا نحب الذين يحبوننا فقط، فلسنا أفضل من الأشرار. وإن كنا نسلم على أخواتنا وإخوتنا وعلى المؤمنين فقط، فلسنا أفضل من الوثنين، فهم أيضاً يسلمون على بعضهم. إن السؤال الذى يسأله المسيح: أى فضل تصنعون؟ يعنى: أى شئ فوق العادة تفعلون؟ أى شئ «أكثر أو أفضل» هما جوهر سؤال المسيح. ليس كافياً أن يشبه المؤمن غير المؤمن، فإن دعوتنا هي التفوّق جداً عليهم فى الفضائل، وأن

يزيد برنا عن بر الكتبة والفريسيين (عدد٢٠)، وتزيد محبتنا عن محبة الأمم (عدد ٤٧). ولقد علّق «بونهوفر» بقوله: «الذى يجعل المسيحى مختلفاً عن غيره من الناس أنه فائق للعادة، وغير عادى، وفوق الأمور العادية. إنه (شئ أكثر من هذا وأكثر من كل هذا). فى بادئ الأمر كان المسيحى يشبه الوثنى، لكن الحياة المسيحية بدأت بصفة «الزيادة المتميزة» لأن المسيح رمز المسيحية «فائق للعادة»[(١)].

فما هي هذه «الزيادة والإضافة» التى على المسيحى أن يبيِّنها؟

أجاب «بونهوفر»: «إنها محبته للمسيح الذى ذهب طواعية إلى الصليب، الذى هو مميِّز الديانة المسيحية»[(٢)]. وبونهوفر محقٌ فيما كتبه، إلا أننا لنكون أكثر تحديداً، نقول إن الطريقة الذى وصف بها المسيح هذه «المحبة الفائقة»، تبيّن أنها ليست محبة الناس ـ بل محبة الله: «فكونوا أنتم كاملين (وكلمة أنتم تميز المسيحيين من غير المسيحيين) كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل» (عدد ٤٨). فشعب الله ينبغى أن يشبه الله، وهى فكرة وردت فى سفر اللاويين خمس مرات «إنى أنا الرب ألهكم فتتقدسون.. فتكونون قديسين لأنى أنا قدوس» (لا ١١:٤٤ ، ٤٥ و١٩: ٢ و٢٠: ٧ ، ٢٦. قارن ١بط ١: ١٦).

إلا أن المسيح دعانا ـ لا لنكون «قديسين»، بل لنكون «كاملين». وبنى بعض معلمى مبدأ «القداسة الكاملة» على هذه الآية أحلاماً واسعة عن إمكانية الوصول فى هذه الحياة إلى حالة الكمال المطلق. لكن ضغط كلمات المسيح، لتؤيد فكرهم، يعنى عدم الفهم لباقى تعاليم «الموعظة على الجبل»، فقد جاء فى التطويبات أن الجوع والعطش إلى البر صفتان دائمتان للتلاميذ (مت ٥ :٦)، وجاء فى الصلاة الربانية: «اغفر لنا ذنوبنا» (مت ٦ :١٢). ولما كان الجوع إلى البر وطلب الغفران أمرين دائمين مستمرين؛ فهذا يعنى أن المسيح لا يتوقع من تلاميذه، أن يكونوا كاملين بلا خطية فى هذه الحياة.

وتوضح القرينة أن «الكمال» الذى قصده الرب يتعلق بمحبة الله الكاملة التى ظهرت ـ حتى لهؤلاء الذين لا يبادلونه الحب. ويقول المفسرون إن الكلمة الأرامية التى استخدمها المسيح هنا معناها «غامرة»، والآية الموازية لها فى الموعظة على الجبل طبقاً لإنجيل لوقا «فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضاً رحيم» (لو ٦ :٣٦). فقد دُعينا لنكون كاملين فى المحبة، فنحب ونرحم ـ حتى أعداءنا بمحبة الله الشاملة الغامرة، وأن تكون دعوة المسيح لنا دعوة جديدة ، لا لأنها

(١) المرجع السابق؛ ص ١٣٦

(٢) المرجع السابق؛ ص ١٣٧

دعوة «للكمال» ولا «دعوة للقداسة» فحسب، بل جديدة فى وصفها لله الذى ينبغى أن نتشبَّه به. ففى العهد القديم، قال الله: «إنى أنا الرب الذى أصعدكم من أرض مصر ليكون لكم إلهاً. فتكونون قديسين لأنى أنا قدوس». أما فى العهد الجديد، فلا نرى الله فادى بنى إسرائيل الذى ينبغى أن نتبعه ونطيعه، بل الله أبانا الذى فى السموات (عدد ٤٥)، وهو أبونا السماوى (عدد ٤٨). وتجئ طاعتنا القلبية له توضيحاً لطبيعتنا الجديدة، لأننا أبناء الله بالإيمان بالمسيح، ويبيِّن سلوكنا العائلة التى ننتمى إليها. وسنكون منتمين له إن كنا صانعى سلام (عدد ٩)، وإن كنا محبين مثله (العددان ٤٥ ، ٤٨).

وفى التباينين الأخيرين، نرى تدرُّج الفكر، ففى الأولى نرى وصية سلبية «لاتقاوموا الشر»، لكن فى الثانية نرى وصية إيجابية «أحبوا أعداءكم، وأحسنوا إلى مبغضيكم». فى الأولى، نرى سلبياً عدم مقابلة المثل بالمثل. وفى الثانية، نرى المحبة إيجابياً، كما كتب القديس «أغسطينوس»: «تعلَّم كثيرون أن يحوِّلوا الخدَّ الآخر لمن لطموهم، لكنهم لم يتعلموا أن يحبوا الذين لطموهم»[١].

فعلينا أن نتقدم من مرحلة الاحتمال، إلى مرحلة رفض الانتقام والتصميم على غلبة الشر بالخير. وقد عبر «ألفريد بلامر» عن البدائل فقال: «مجازاة الخير بالشر عمل شيطانى، ومجازاة الخير بالخير عمل إنسانى، أما مجازاة الشر بالخير فهو عمل إلهى»[٢]. وفى هذه الموعظة، وضع المسيح أمامنا البدائل فى مقارنته بين أخلاقيات المجتمع والأخلاقيات المسيحية المختلفة عنه. ففى غير المسيحية يعلِّم الناموس فكرة «المثل بالمثل»، سواء كان مقابلة الشر بالشر أو الخير بالخير: «إذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم» (لو ٦ :٣٣). فمبدأ «المثل بالمثل» هومبدأ العالم، سواء كان فى الانتقام أو المكافأة، فلا تكون هناك مديونية لأحد، وتسود العدالة والمساواة. وشعار المتكبر دائماً: «أنا لا أحتمل أن أكون مديوناً لأحد». وهذه المحاولة لإقامة العدالة فى المجتمع، لا تعطى الناس أفضل ما عندنا.

لكن هذه الأفكار لا تتفق مع ملكوت الله! فالخطاة والعشارون والوثنيون يسلكون بهذه الطريقة، وهى أسمى ما يستطيعون الوصول إليه، لكنها ليست بالسمو الذى يتفق مع ملكوت الله. ويسأل المسيح: «فأى فضل تصنعون؟» (عدد ٤٧). والمثال الذى يضعه أمامنا ـ كبديل لمبادئ العالم، هو مثال أبينا السماوى المحب للأشرار والصالحين. وعلى أولاده أن يكونوا مثله. إن حياة

---

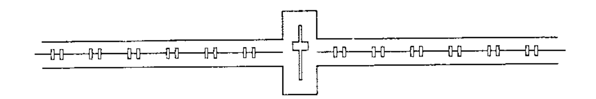
(١) مرجع سابق؛ Augustine, P. 58

(٢) مرجع سابق؛ Plummer, P.89

الإنسانية الساقطة (الخليقة القديمة) تؤسس على «العدالة الصارمة»، فتنتقم من الإساءة وتجازى عن الخير. لكن حياة الإنسانية الجديدة (الخليقة الجديدة) تؤسس على «المحبة الإلهية» التى ترفض الانتقام وتغلب الشر بالخير.

وقد اتهم المسيح الفريسيين بأنهم وضعوا قيدين خطيرين على محبتهم، فقد كانوا يؤمنون (شأن الجميع) بالمحبة. لكنهم قيدوها، بحيث لا تتجه للذين يسيئون إليهم أو للوثنيين من خارج دينهم. ولا زالت روح الفريسية هذه منتشرة، فهى روح الانتقام والعنصرية. فى القيد الأول، قالوا: «أنا أحب الصالحين، لكنى سأنتقم ممن يسئ إلىّ». وفى القيد الثانى، قالوا: «أنا أحب أقربائى وأنسبائى، لكن لا تتوقع منى أن أحب الذين ليسوا من جنسى». وتوقَّع المسيح أن يفعل أتباعه الشئ نفسه، (الأمر المنتظر من أى إنسان)، **لذلك دعانا لننبذ كل هذه القيود، ونلبس المحبة التى تناقض الانتقام والعنصرية، فتكون محبتنا بانية غامرة شاملة، مثل محبة الله.**

ومن النظرة إلى هذه التباينات الستة، يتضح لنا معنى «زيادة» البر الذى أوصى المسيح به أتباعه من المؤمنين. إنه البر العميق الداخلى، بر القلب، حيث يحفر الروح القدس ناموس الله. إنه الثمر الجديد الذى ينتج عن الحياة الجديدة والطبيعة الجديدة. فليس لنا حرية محاولة التخلُّص من مطالب الناموس السامية أو تجنُّبها. لقد تميَّز الفريسيون بتطبيق الناموس، لكن الذى يميز المسيحيين هو الرغبة الصادقة الملحة للبر، بل والعطش والجوع الدائم له. وسواء عبَّرنا عن هذا البر بحياة القداسة أو الأمانة أو المحبة، فتعبيرنا سيظهر نوعية انتمائنا. ودعوتنا المسيحية ليست أن نتشبَّه بالعالم، بل بالآب السماوى، فتصبح أخلاقنا مسيحية مختلفة عن العالم، وواضحة للجميع.



الباب الرابع

تديُّن المسيحي: ليس رياءً بل صدقاً

[أصحاح ٦ : ١ ـ ٦ ، ١٦ ـ ١٨]

بدأ المسيح موعظة على الجبل برسم صفات المسيحى فى التطويبات، ثم شبَّه المؤمن بالملح والنور ليوضّح التأثير الصالح للمسيحى فى المجتمع إن عاش وفق هذه التطويبات. ثم بدأ يتكلم عن أن بر المسيحى ينبغى أن يزيد على بر الكتبة والفريسيين بقبوله ناموس الله الكامل، وبدون أن يتفادى أية وصية أو يضع حدوداً لأى تعليم إلهى. **فالبر المسيحى هو البر غير المحدود الذى وإن كان يظهر فى أعمالنا وأقوالنا، لكنه نابع من قلوبنا وأفكارنا ودوافعنا. إنه البر الذى نصنعه فى الخفاء.**

ويكمل المسيح تعليمه عن «البر» فيبدأ الأصحاح السادس بالتحذير: «احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم (بركم) قدام الناس». وكلمة «صدقة» المستخدمة هي ذات كلمة «بر» التى وردت فى (مت ٥: ٦، ٢٠)، لكن التركيز هنا يختلف، ففى الأصحاح الخامس كانت كلمة «بر» تتعلق بالرحمة والنقاء والأمانة والحب، لكن هنا تتعلق بالصدقة والصلاة والصوم. والآن ينتقل المسيح من الحديث عن البر الأخلاقى للمسيحى إلى بره الدينى. وفى أغلب الترجمات نلاحظ هذا التغير فى الموضوع، ففى (ترجمة RSV) جاءت الآية: «احترسوا من ممارسة تقواكم أمام الناس»، وفى (ترجمة NEB) «احترسوا أن تُظهروا تديُّنكم أمام الناس».

ومن المهم أن ندرك أن البر وفقاً لتعاليم المسيح يأخذ بعدين: بعداً أخلاقياً، وبعُداً دينياً. فالبعض يتكلم ويسلك كما لو أن الواجب الأساسى للمسيحى يقع فى دائرة النشاط الدينى، سواء كان علانية (الذهاب للكنيسة) أو خاصاً. وعلى النقيض من هؤلاء نجد من يرفض التركيز على التقوى ويتكلم عن مسيحية بلا تديُّن، فأصبحت الكنيسة لهؤلاء مثل نادى دنيوى، وصارت الصلاة عندهم مثل حديث ودي مع الجيران. **ولكن المسيح علَّمنا أن البر المسيحى الحقيقى يشمل الأمرين معاً: التقوى والأخلاق، العبادة فى الكنيسة والخدمة فى العالم، محبة الله ومحبة القريب.**

وفى مجالى البر هذين، يضع المسيح أمام أتباعه التحدى ليكونوا مختلفين. ففى (مت ٥) يعلمنا أن برنا ينبغى أن يزيد على بر الفريسيين الذين يطيعون حرفية الناموس، فتكون طاعتنا من القلب، ومحبتنا ينبغى أن تكون أعظم من محبة الأمم، لأنهم يكتفون بمحبة بعضهم. أما محبتنا نحن، فتشمل أعداءنا. وفى الأصحاح السادس، يتحدث عن «بر التديُّن أو التقوى»، فيضع أمامنا مقارنة بين الاثنين: يتكلم أولاً عن ديانة الفريسيين الظاهرية، ويقول: «لا تكن كالمَرائين» (عدد ٥). ثم يتكلم عن الطقوس الآلية للأمم، ويقول: «لا تتشبهوا بهم» (عدد ٨). فعلى المسيحيين أن يكونوا مختلفين عن الفريسيين، وعن الأمم، عن المتدينين، وعن غير المتدينين.

ويتكلم العهد الجديد كثير عن عدم تشبُّه المؤمن بالعالم. ولا يعرف الكثير منا أن المسيح تنبأ عن عالمية الكنيسة (Worldliness of the church) نفسها، ودعا أتباعه لكيلا يتشكلوا أيضاً بالكنيسة الإسمية، وأن يكونوا مجتمعاً مسيحياً حقيقياً متميزاً فى حياته وممارسته عن المؤسسات الدينية، ودعاهم ليكونوا (ecclesiola)أى كنيسة حقيقية صغيرة، وسط الكنيسة الكبيرة (ecclesia). والاختلاف الجوهرى فى التدين وفى الأخلاق هو أن البر المسيحى الحقيقى ليس مجرد مظاهر خارجية، لكنه شئ دفين داخلى فى القلب.

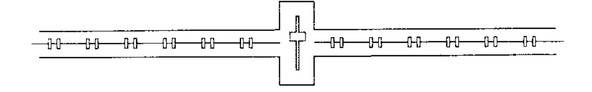
«احترزوا من أن تصنعوا صداقتكم قدام الناس لكى ينظروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى في السماوات» (٦ :١).

يحذرنا المسيح تحذيراً جوهرياً من ممارسة أعمال البر أمام الناس لينظرونا. وللوهلة الأولى تبدو هذه الوصية متناقضة مع وصية سابقة: «فليضئ نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة» (مت ٥:١٦). ويتكلم العددان عن ممارسة الأعمال الصالحة، وفيهما نرى الهدف «لكى يروا» أو «ينظروكم». فى حديثه الأول أوصانا به، لكن فى حديثه الثانى نهانا عنه. فكيف نستطيع أن نحل هذه المعضلة؟ هذا تناقض ظاهرى لا جوهرى، فالمسيح كان يتكلم عن خطيتين مختلفتين. فعندما ينظر الله للإنسان فى جُبنه يقول: «فليضئ نوركم هكذا قدام الناس»، وعندما ينظر إليه فى غروره يقول: «احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس». لذلك، كتب «أ. ب. بروس» فى هذا قائلاً: «علينا أن نُظهر أن أعمالنا صالحة فيضئ نورنا، لكن أعمال تقوانا ينبغى أن تكون سرية حتى لا نُصاب الغرور»[1]. وهناك أمر آخر يجمع هذين العددين، هو «مجد الله». فلماذا ينبغى أن لا نصنع برنا قدام الناس؟ ليتمجَّد الله - لا الإنسان. ولماذا نجعل أعمالنا الحسنة تضئ أمام الناس؟ ليمجِّد الناس أبانا الذى فى السموات.

والأمثلة الثلاثة التى يتقدمها المسيح لنا عن البر «الدينى» هى: الصدقة والصلاة، والصوم. وهى أمور مطلوبة فى كل الديانات، فكان مطلوباً أن يتصدق كل يهودى على الفقراء، وأن يصلى، وأن يصوم، ويدقِّق فى القيام بهذه كلها. وبالتأكيد، كان المسيح يتوقع من تلاميذه أن يفعلوا هذه الأمور، فلم يبدأ حديثه فى كل فقرة بالقول: «إذا صليت، أو إذا صنعت صدقة، أو إذا

صمت»، لكنه بدأ حديثه بالقول: «متى صنعت صدقة، متى صليت، متى صمت» (الأعداد ٢ ، ٥ ، ١٦) . فقد كان يتكلم عن أمور تحدث كل يوم. وهذه الأمور الثلاثة تعبر لدرجة ما عن واجبنا نحو الله، ونحو الآخرين، ونحو أنفسنا، فلكى تعطى صدقة أنت تخدم قريبك، وعلى الأخص الفقير المحتاج. ولكى تصلى أنت تطلب وجه الله وتضع اعتمادك الكلى عليه. ولكى تصوم (أى تمتنع عن الطعام لأسباب روحية) أنت على الأقل تنوى أن تنكر نفسك وتهذب ذاتك. ولم يسأل المسيح إن كان تلاميذه يمارسون هذه الثلاثة، بل افترض أنهم يمارسونها. لكنه علّمهم لماذا وكيف يمارسونها.

والأجزاء الثلاثة الآتية تسير على منوال واحد. وفى تخيُّل فكاهى ساخر بدأ المسيح يرسم صورة لطريق تديُّن المرائى التظاهرى! مثل هذا سينال المكافأة التى يريدها، وهى تصفيق الناس ومدحهم له. لكن على النقيض من هذا، نرى طريق المسيحى الذى يمارس هذه الأمور فى الخفاء، وكل المكافأة التى يريدها أن يباركه الله، الذى هو أبوه السماوى الذى سيرى ما هو خفى.



١. عطاء المسيحي
(٦ : ٢-٤)

> «فمتى صنعت صدقة فلا تصوِّت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع وفي الأزقة لكي يُمجَّدوا من الناس. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرِّف شمالك ما تفعل يمينك لكي تكون صدقتك في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية».

هناك تعاليم كثيرة في العهد القديم تختص بالعطف على الفقراء والكلمة اليونانية (eleemosume) التي تُرجمت «صدقة» تعني (عمل رحمة). وحيث أن إلهنا رحيم، قال المسيح إنه «منعمٌ على غير الشاكرين والأشرار» (لو ٦ :٣٥ ومت ٥ :٤٥ ، ٤٨). فعلى شعبه أن يكونوا رحماء مثله. وواضح أن المسيح توقع أن يكون تلاميذه أسخياء في العطاء. وكما قال «الأسقف رايل» إن كلمة المسيح تدين «البخل الأناني للكثيرين»[(١)].

إلا أن السخاء وحده ليس كافياً. فالمسيح يهتم بالدوافع والأفكار الدفينة في القلب، فأعلن وهو يتناول الوصيتين السادسة والسابعة أن القتل والزنا يمكن أن يُرتكبا في القلب، فالغضب الذي لا مبرر له نوع من القتل القلبي، والنظرة الشهوانية نوع من الزنا القلبي. وفي موضوع العطاء، اهتم بما يدور في داخلنا. والسؤال ليس في (الكم) الذي تقدمه أيدينا، بل في ما يدور في (قلوبنا)، ونحن نعطي. هناك ثلاثة احتمالات: إما أن نطلب مجداً من الناس، أو نحتفظ بهذا الأمر سراً لكن نمدح أنفسنا في داخلنا، أو أن نفعله في الخفاء وكل هدفنا أن نرضي أبانا السماوي فقط.

لقد كانت خطية الفريسيين العظمى أنهم كانوا يتطلعون دائماً إلى مدح الناس، فقال لهم المسيح: «أنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه» (يو ٥ :٤٤). وقال عنهم يوحنا: «لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله» (يو ١٢ :٤٣). وقد أفسد طلبهم لمدح الناس عطاياهم، ولذلك وبَّخ المسيح طريقة تقديم عطاياهم التي حوَّلوها إلى تمثيلية علنية، ورسم صورة للفريسي وهو يضع نقوده في صندوق العطاء في المجمع

(١) مرجع سابق؛ Ryle P. 47

أو الهيكل، أو وهو يذهب ليعطى صدقة للفقير، فكان يسيِّر أمامه حمَلَة الأبواق يبوِّقون، وهم يسيرون بسرعة تُلفت إليهم كل الجموع. لذلك، قال «كلفن»: «لا شك أنهم كانوا يتظاهرون أن أبواقهم تدعو الفقراء ليأخذوا تبرعهم، لكن من الواضح أنهم كانوا يطلبون المدح والتصفيق»[١]. وسواء كان الفريسيون يفعلون هذا حرفياً، أو أن المسيح رسم الموضوع فى صورة كاريكاتورية، فهذا لا يهم، ففى الحالتين كان المسيح يدين شغفهم الطفولى بمدح الناس. وقال «سبرجون»: المرائى هو الذى يقف رافعاً كلتا يديه، يمسك فى يد بوقاً وفى الأخرى جنيهاً»[٢].

والكلمة اليونانية التى استخدمها المسيح ليصف مثل هذا التصرف هى (hupokrites) «مرائى»، معناها أولاً كان «الخطيب أو الممثل». فهى تصوِّر شخصاً يتعامل مع العالم كأنه خشبة مسرح يؤدى دوره عليها، فيهجر هويته الأساسية ويتقمص شخصية أخرى، فلا نرى الشخص ذاته بل شخصاً آخر، لأنه يتنكر فى شخصية أخرى إذ يلبس قناعاً. وفى المسرح لا يخدع الممثل الناس ولا يسبب لهم ضرراً، بل يؤدى دوراً مقبولاً، فالمتفجرون يعرفون أنهم يشاهدون تمثيلاً لا ينخدعون به. لكن المشكلة مع المرائين الدينيين أنهم يخدعون الناس عمداً. «فالمرائى» مثل الممثِّل فى أنه يتظاهر، فلا نرى فيه الشخص الحقيقى، بل المتنكر الذى يرتدى قناعاً، لكن دوره يختلف عن الممثل فى أنه يعطى انطباعاً أن ما يمارسه هو الحقيقة، وهذا غير الواقع، لأنه يؤدى دوراً مسرحياً بقصد الحصول على مدح الناس وتصفيقهم له.

وإن كنا نضحك على فريسيى القرن الأول، إلا أن مسيحيتنا الفريسية لا تختلف عنهم كثيراً، فقد لا نستأجر من يضربون بالبوق أمامنا عندما نعطى للكنيسة أو نشترك فى أعمال الخير، لكن باستخدام نفس تشبيه المسيح، أقول، إننا نمسك بأبواق أنفسنا وننفخ فيها، فعندما نرى أسماءنا تعتلى قائمة فعلَة الخير، ألا يشبع هذا الذات التى فينا، بل وينميها؟ إننا نقع فى ذات خطية الفريسيين، بأن نوجه الأنظار إلى عطايانا ليمدحنا الناس.

ولمثل هؤلاء الذين يبتغون مدح الناس، يقول المسيح إنهم قد استوفوا أجرهم، وكلمة «استوفوا» (epecho) كانت تُستخدم فى التجارة، وتعنى («تسلـمَ الكل وأعطى إيصالاً بذلك) (حسب معجم AG). وكان إيصال الاستلام من ورق البردى. فالمراءون الذى يطلبون مدح الناس

(١) مرجع سابق؛ Tasker, P 69
(٢) مرجع سابق؛ Brouce, P107

يناونه، ويكون هذا كل مكافأتهم، ولن يأخذوا شيئاً آخر، إلا وقوفهم فى اليوم الأخير أمام كرسى الدينونة.

وبعد أن نهى المسيح أتباعه عن أن يعطوا المحتاجين بطريقة الفريسيين المتكبِّرة، تحدَّث عن الطريقة المسيحية فى العطاء فى الخفاء «وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرِّف شمالك ما تفعل يمينك، لكى تكون صدقتك فى الخفاء». واليد اليمنى عادة هى النشطة، ويفترض المسيح أننا سنستخدمها فى تقديم عطايانا، ثم يضيف أن اليد اليسرى لا ينبغى أن ترى ما تفعله اليد اليمنى. ولا أظن أن هناك صعوبة فى فهم المعنى والمغزى، **فلا يكفى أن لا نخبر الآخرين بعطايانا المسيحية، بل علينا أن لا نخبر ذواتنا بهذه العطايا، بمعنى أن لا نفكر فى عطايانا، لأن التركيز على الذات سيقودنا إلى البر الذاتى. وأمام دهاء القلب الشرير، يمكن أن نحفظ عطايانا فى سرية عن الآخرين، لكننا نسمح لها أن تهيمن على تفكيرنا، فنمدح أنفسنا.**

وهل يمكن أن يكون هناك انحراف أكثر من هذا؟ إن العطاء عمل صادق يسد حاجة حقيقية لأشخاص حقيقيين. والكلمة اليونانية المترجمة «صدقة»، تعنى (عمل رحمة). لكن من الممكن أن يتحول عمل الرحمة إلى كبرياء شخصية، عندما نكون دوافعنا الأساسية فى العطاء - لا فائدة الشخص الذى نقدم له العطية، لكن فائدتنا نحن الذين نعطى. وهكذا تصبح محبة الغير غروراً منحرفاً. ولكى نميت خطية الغرور يطلب منا المسيح أن نقدم عطايانا فى الخفاء بعيداً عن أنظار الناس، وبعيداً عن أنظار المعطى.

لذلك كتب «بونهوفر»: «عندما قال المسيح لا تعرِّف شمالك ما تفعل يمينك، كان يعلن موت الإنسان العتيق»[1] ذلك، لأن التركيز على الذات أمر يخص الإنسان العتيق، أما الحياة الجديدة فى المسيح فهى حياة السخاء المطلق. ومن المستحيل أن نطيع هذه الوصية بحرفية مطلقة. وإن كنا نخطط لعطايانا، كما يفعل المسيحيون أصحاب الضمائر اليقظة؛ فنحن مجبَرون أن نعرف كم نقدم، فلا نستطيع أن نغمض عيوننا ونحن نكتب شيكات العطاء. لكن بمجرد أن نقرر مقدار العطية ونقدمها، علينا أن ننسى ما فعلناه، وبهذا نطبِّق تعليم المسيح، فننسى أننا أعطينا ولا نعجب بأنفسنا، ولا نمدح أنفسنا عن مدى سخاء عطايانا. فالعطاءالمسيحى ينبغى أن يتميز بإنكار النفس والتضحية، والنسيان، وعدم مدح الذات.

(١) مرجع سابق؛ Bonhoeffer, P. 144

(لا تعرِّف شمالك ما تفعل يمينك) أمر يعنى أننا عندما نعطى المحتاجين نبغى رضاء الله - لا مدح الناس. لذلك كتب «جون كلفن»: «معنى هذه الوصية أننا لا يجب أن نسمح إلا لله وحده؛ ليكون شاهداً على عطايانا»[1]. ونحن نستطيع أن نحتفظ بسرية عطايانا عن الناس، وبدرجة ما عن أنفسنا، لكننا لا نستطيع أن نحتفظ بسريتها عن الله، فليس مكتوم إلا معلن أمامه، لذلك فأبوك «الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية».

ويرفض البعض تعاليم المسيح هذه، ويقولون إنهم لا يتوقعون ولا يريدون أية مكافأة من أى شخص، ولهذا يجدون فى وعد المسيح هذا تناقضاً. كيف ينهى عن الرغبة فى مدح الأخرين أو مدح الذات، ثم يوصى بأن نطلب المجازاة من الله؟ ويقولون: هذا مجرد تبديل أمر باطل بأمر آخر باطل؟ ألا يجب أن نعطى بهدف العطاء؟ أما طلب مدح الناس أو الذات أو حتى من الله، فهذا معناه أننا نتلف عملية العطاء.

وهذا الادعاء بلا شك ادعاء خاطئ، لأنه يتجاهل طبيعة المكافأة، فعندما يقول بعض الناس إن فكرة المكافأة لا تروق لهم، ندرك أنهم يفكرون فى المكافأة التى تُعطى للتلميذ فى المدرسة، فيأخذ كأساً فضية أو ذهبية أمام الجميع، بينما هم يصفقون له. والفكرة هنا قد تنبع من القول: «يجازيك علانية». وبعض النسخ الأصلية لا توجد فيها كلمة «علانية». إن التباين، هنا، ليس بين سرية العطاء وعلانية المكافأة ، لكن بين الناس الذين لا يرون العطية ولا يكافئونها، وبين الله الذى يرى ويكافئ.

كتب «سى. إس. لويس» مقالة رائعة بعنوان «ثقل المجد»، قال فيها: «لا يجب أن ننزعج من غير المؤمنين عندما يقولون إن وعد المكافأة هذا يجعل الحياة المسيحية حياة تجارية، فهناك أنواع كثيرة من المكافآت: هناك مكافأة لا تمت بصلة للعمل الذى عملته لتنال هذه المكافأة. بل هى تختلف تماماً عن التوقعات التى تصاحب هذه الأعمال. فالمال ليس هوالمكافأة الطبيعية للزواج.. ونحن نطلق على الرجل الذى يتزوج الفتاة لأجل مالها «طماعاً مستغلاً». لكن الزواج هو المكافأة الطبيعية للمحبين الحقيقيين، وتمنّى الزواج بالفتاة التى تحبها لا يعنى أنك مستغل. وعلى هذا المنوال: نقول: «إن الكأس الفضية ليست هى المكافأة المناسبة لطالب المدرسة المجتهد، لكن قد تكون منحة دراسية فى الجامعة هى المكافأة المناسبه له»، ويكمل «لويس» مقالته قائلاً:

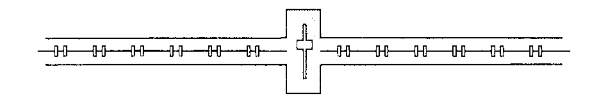
(١) مرجع سابق؛ Calvin, P. 310

«إننا لا ننظر المكافآة الحقيقية مقابل تقديم عطايانا للناس. لكن أن تتمم هذه العطايا أهدافها كاملة[١].

فما هى إذن المكافأة التى يعطيها الآب السماوى للمعطى المختفى؟!

إنها ليست علانية، وليست بالضرورة أمراً مستقبلياً. ولربما المكافأة الوحيدة التى يريديها المعطى المحب عندما يعطى المحتاجين هو أن يرى أن الاحتياج قد تم تسديده، فيشبع الجائع ويكتسى العريان. ويُشفى المريض، ويتحرر المأسور، ويخلُص الخاطئ، وترتوى المحبة التى حرَّكت روح العطاء فى داخله. مثل هذه المحبة، التى هى محبة الله من خلال البشر، تغمر الإنسان بفرح عميق؛ فلا يعود يطلب أى مكافأة أخرى.

وبالإجمال، فإن عطاءنا المسيحى لا ينبغى أن يكون قدام الناس، منتظرين تصفيقهم، ولا ينبغى أن يكون قدام ذواتنا، عندما تمدح يدنا اليسرى سخاء يدنا اليمنى.. لكن أمام الله الذى يرى قلبنا الخفى ويكافئنا. وسنكتشف أنه «مغبوط هو العطاء أكثر من الأخذ» (أع ٢٠ :٣٥).



(١) C. S. Lewis, *They Asked for a Paper* (Bles, 1962) p. 198

٢.صلاة المسيحي

(٦ : ٥ ، ٦)

«ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلّوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصلِ إلى أبيك الذى فى الخفاء فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية».

فى مَثَله الثانى عن «البر الدينى»، وصف المسيح رجلين يصليان، أحدهما مرائى والآخر صادق. وقارن بين دافع صلاة كل منهما ومكافأته. وما قاله المسيح عن المرائين يبدو للوهلة الأولى أنه مدح، فقد قال: «إنهم يحبون أن يصلوا». لكن للأسف فإنهم لا يحبون الصلاة، ولا الله المفترض أنهم يصلون له.. بل هم يحبون ذواته، والوقت الذى يصلون فيه علانية هو مجرد وقت استعراض لذواتهم.

ولا شك أن عادة الصلاة المنتظمة عادة رائعة، وكل يهودى مدقق كان يصلى ثلاث مرات فى اليوم، مثل دانيال (دا ٦ :١٠). ولا خطأ فى أن نصلى واقفين، لأن هذا هو الوضع المعتاد للصلاة بين اليهود. ولا أظن أن الصلاة فى زوايا الشوارع خطأ، إن كان الهدف هو كسر العُزلة الدينية، والاعتراف العلنى بالإيمان خارج الأماكن المقدس. لكن المسيح هاجم الذين يقفون فى المجامع أو زوايا الشوارع رافعين أيديهم للسماء ليراهم الناس. بدافع الكبرياء والافتخار، فكل ما يريدونه هو تصفيق الناس ومدحهم. وتقول (ترجمة NIV) «إنهم قد نالوا مكافأتهم كاملة».

لم تمُت الديانة الفريسية، فالاتهام الموجَّه إلى الفريسيين ينطبق غالباً، علينا نحن الذين نذهب إلى الكنائس، فمن المحتمل أن نذهب لذات الأسباب الخاطئة التى لأجلها ذهب الفريسى إلى المجمع ـ لا لعبادة الله، لكن لننال مدح الناس لتقوانا. ومن المحتمل أن نفتخر بعبادتنا الخاصة بذات الطريقة. والمسيح هنا يدين ضلال كل ممارسات الرياء. **إن تقديم الشكر لله مثل تقديم الصدقة للمحتاج، هى أعمال صادقة فى حد ذاتها. لكن الدافع من وراء هذه الأمور قد يدمرها إذ يحوّلها من خدمة الله والناس ليجعلها نوعاً من**

خدمة الذات، فتصبح العبادة وأعمال المحبة نوعاً من التظاهر. فكيف يمكن أن نتظاهر بأننا نحمد الله، مع أن كل هدفنا هو مدح لناس لنا؟

إذا كيف يصلى المسيحى؟ قال المسيح: «ادخل إلى مخدعك وأغلق بابك». ينبغى أن نغلق الباب ضد الاضطرابات، وضد التشتت، وضد عيون الناس وعيوننا نحن، ونبقى وحدنا مع الله، فنطيع وصية المسيح. «صلِّ إلى أبيك الذى فى الخفاء». إن أبانا هنا ينتظرنا ويرحب بنا. ولا شئ يدمر الصلاة مثل محبة الصلاة فى وجود المتفرجين، ولا شئ يجعل صلاتنا مشبعة مثل إحساسنا أننا وحدنا فى محضر الله، لأنه يرى- لا المظهر الخارجى، بل القلب.. لا الشخص الذى يصلى فحسب، لكن الدافع الذى من أجله يصلى. إن جوهر صلاة المسيحى هو أن يطلب الله. ووراء كل صلاة، نجد هذا الحديث الممتع الذى دونَّه داود فى مزموره: «لك قال قلبى: قلت اطلبوا وجهى، وجهك يارب أطلب» (مز ٢٧ :٨).

نحن نطلبه، لنشكره، ونعترف أنه الله الخالق، السيد، الديان، أبونا السماوى من خلال عمل المسيح مخلصنا. وغرضنا أن نذهب إليه فى الخفاء، لننحنى أمامه فى عبادة متواضعة فى حب وفى ثقة. ثم يكمل المسيح حديثه ويقول: «فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية». ويقول «ر.ف. تاسكر»: «الكلمة اليونانية المترجمة «مخدع»، هى فى الأصل (حجرة) لحفظ المجوهرات والكنوز. فيكون المعنى: هناك كنوز تنتظرنا عندما نصلى[١]».

ولا شك أن مكافآت الصلاة الخفية أكثر من أن نُعد. فعندما نصرخ: «يا أبا الآب»: «الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله»، ويعطينا التأكيد القوى بأبوَّته ومحبته لنا (رو ٥ :٥ و٨ :١٦)؛ فيرفع وجهه علينا ويمنحنا سلاماً (عد ٦ :٢٦)، وينعش أرواحنا، ويشبع جوعنا، ويروى عطشنا فندرك أننا لسنا يتامى لأن الآب قد تبنانا، ولسنا ضالين لأنه غفر لنا، ولسنا غرباء لأننا جئنا إلى بيتنا.

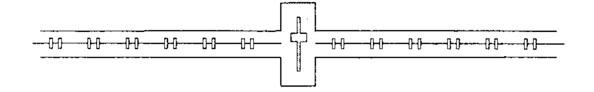
لكن تركيز الرب على سرية الصلاة لا ينبغى أن يدفعنا إلى التطرف، فالتفسير الحرفى لوصية المسيح هنا قد يدفعنا لارتكاب ذات الخطأ الذى وقع فيه الفريسيون الذى حذرنا منه. فإن كانت كل صلواتنا فى السر، فلماذا نذهب إلى الكنيسة، أو نصلى مع العائلة، أو فى اجتماعات الصلاة؟!

والرد هو أن المسيح كان يتحدث هنا عن «الخلوة»، «والصلاة الفردية»، والقول «متى صليت» لا يعنى الصلاة الجماعية بل الفردية. ولم يكن المسيح قد تطرَّق بعد إلى موضوع

---

(١) مرجع سابق؛ Tasker, P 73

الصلاة الجماعية الذى قال فيه: «صلوا أنتم هكذا: يا أبانا الذى فى السموات»، وهى الصلاة التى نادراً ما نصليها وحدنا فى الخفاء. ولئلا ننهمك فى التفكير فى سرية الصلاة، علينا أن نتذكر أن غرض تركيز الرب على سرية الصلاة، علينا أن نتذكر أن غرض تركيز الرب على سرية الصلاة هو أن ينقّى دوافعنا فى الصلاة. وكما أننا فى عطائنا نعبِّر عن محبة صادقة للناس، علينا أن نعبِّر فى صلواتنا عن محبة صادقة لله، ولا ينبغى أن نستخدمها كقناع نخفى تحته محبتنا لذواتنا.



٣.صوم المسيحي
(٦ : ١٦-١٨)

«ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين فإنهم يغيّرون وجوههم لكي يظهروا للناس صائمين. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنتَ فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك».

لقد كان الفريسيون يصومون مرتين في الأسبوع (لو ١٨ :١٢)، يومي الاثنين والخميس. وكان يوحنا المعمدان وتلاميذه يصومون بانتظام، ربما أكثر من يومين. أما تلاميذ المسيح، فلم يكونوا يصومون (مت ٩ :١٤ و لو ٥ :٣٣). فكان المسيح يتوقَّع من اتباعه أن يصوموا، وأعطاهم التعليمات على كيفية الصوم. وهنا، نجد جزءاً من الكتاب المقدس يهمله الناس. وأشكُّ إن كان بعضنا يمارس مسيحيته وكأن هذا الجزء غير موجود في كتابه المقدس! **حيث يركز أغلب المسيحيين على الصلاة اليومية، وعلى العطاء، لكنّ القليلين جداً يركزون على الصوم. والمسيحيون الإنجيليون، على وجه الخصوص، الذين يركزون على التدين الداخلي، تدين القلب والروح، لا يعيرون أهمية لممارسات خارجية جسدية مثل الصوم. ويتساءلون أحياناً: أليس الصوم هو من ممارسات العهد القديم؟!**

لقد أوصت شريعة موسى بصوم يوم الكفارة العظيم، وصام الشعب القديم في أيام معينة من السنة بعد عودتهم من السبي البابلي، ولكن المسيح أبطله! ألم يُسأل المسيح: «لماذا نصوم نحن والفريسيون كثيراً، وأما تلاميذك فلا يصومون؟». أليس الصوم جزءاً من ممارسات الكنيسة التقليدية، أرست قوانينه في العصور الماضية، فحددت أياماً للأعياد وأخرى للصوم؟ ألم يرتبط العشاء الرباني في ذهن المتناولين بالصوم؟

نستطيع أن نجيب على كل هذه الأسئلة بكلمة «نعم». ومن السهل أن نمارس معتقداتنا المبنيَّة على بعض الآيات الكتابية وتاريخ الكنيسة. لكننا ينبغي أن نضع نصب أعيننا بعض الحقائق الأخرى المتزنة، فالمسيح نفسه السيد والمعلم صام أربعين يوماً وأربعين ليلة في البرية. وفي إجابته على الذين سألوه بخصوص الصوم قال: «حين يُرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون»

(مت ٩ :١٥) . وفي «الموعظة على الجبل» حدثنا عن كيفية الصوم . مفترضاً أن هذا الأمر يحدث تلقائياً . وفي سفر الأعمال، وفي رسائل العهد الجديد، هناك إشارات عديدة عن صوم بعض الرسل . **فنحن لا نستطيع أن نرفض الصوم باعتباره أحد ممارسات العهد القديم، قد أبطلها العهد الجديد، أو اعتباره ممارسة الكنيسة التقليدية ترفضه الكنائس الإنجيلية.**

ولكن أولاً: ما هو الصوم؟ **هو ببساطة الامتناع الكلى عن الطعام، ويمكن أن يشمل هذا المعنى الامتناع الكلى أو الجزئى عن الطعام فترة طويلة أو قصيرة.** وإن كنا نسمي الوجبة التى نبدأ بها يومنا الإفطار (وفى اللغة الإنجليزية breakfast بمعنى إنهاء الصوم) على أساس أننا لمن نأكل طول الليل . فبالتالى يكون معنى الصوم الامتناع عن الطعام .

وللصوم، فى كلمة الله، علاقة تامة بإنكار النفس وتهذيب الذات . فالصوم وإذلال النفس أمام الله أمر واحد (مز ٣٥ :١٣ وإش ٥٨ :٣ ، ٥) . وأحياناً يكون الصوم تعبيراً عن التوبة . ويحزن بعض الناس بشدة على خطاياهم وآثامهم، فيبكون ويصومون، كما نقرأ أنه فى أيام نحميا «اجتمع بنو إسرائيل بالصوم وعليهم مسوح وتراب . . ووقفوا واعترفوا بخطاياهم وذنوب ابائهم» (نح ٩ :١ ، ٢) ، وصام أهل نينوى بعد مناداة يونان لهم ولبسوا مسوحاً (يون ٣ :٥) ، ووجّه دانيال وجهه إلى الله السيد طالباً بالصلاة والتضرعات والصوم والمسح والرماد ، واعترف بخطايا شعبه (دا ٩ :٣) . وشاول الطرسوسى، بعد أن ظهر له المسيح، وتغير وتاب «لم يأكل ولم يشرب شيئاً لمدة ثلاثة أيام» (أع ٩ :٩) .

وفى أيامنا هذه عندما يخطئ شعب الله ويشعر بذنوبه ويرجع إلى الله تائباً؛ يعبر عن هذا بالبكاء والنوح والصوم . وفى «المقالة الأنجليكانية Anglican Homily» التى كانت تُنشر بعنوان «الأعمال الحسنة والصوم» ، تحدث الكاتب عن كيفية تطبيق كلمات المسيح: «حين يُرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون (أى التلاميذ)» حيث طبّق الكاتب هذه الآية علينا فى العصر الحاضر من خلال فكرتين: الأولى رأى فيها المسيح (العريس) معنا . وهذا معناه أننا نتمتع بأفراح العرس، عندما نبتهج به وبخلاصه . لكن الفكرة الثانية رأى فيها أن العريس يُرفع عنا، فيتأجل حفل العرس . وطبّق هذا الأمر على أزمنة الهزيمة والظلم، والمحن، والحزن، وقال: «وهنا يكون الوقت مناسباً للأتضاع أمام الله القدير: بالصوم والبكاء، والنوح على خطايانا بقلب منكسر»[١] .

(١) *The second book of Homilies* (157) in *Homilies*

ونحن لا نتَّضع أمم الله، فقط عندما نندم على خطايانا السالفة، لكننا نتضع أمامه أيضاً فى اعتماد قلبى عليه من أجل الرحمة فى المستقبل. وهنا أيضاً يعبِّر الصيام عن اتضاعنا أمام الله.

ويعلِّم الكتب المقدس عن «التوبة والصوم» كثنائى رائع، كما يعلِّم أكثر عن «الصلاة والصوم». وليس معنى هذا أننا نصوم كلما أردنا أن نصليى. لكن فى بعض المواقف التى فيها نطلب الله لأجل بركة خاصة أو إرشاد خاص، علينا أن نذير ظهورنا للطعام ولكل ما يشتتنا لنركز مع الله. وهكذا نرى موسى يصوم، وهو على جبل سيناء؛ عندما جدد الله العهد الذى قطعه مع شعبه (خر ٢٤ :١٨). وعندما رأى يهوشافاط جيش موآب وعمون يقترب منه نادى؛ بصوم فى كل يهوذا (٢أى ٢٠ :١-٤). والملكة أستير عندما جازفت بحياتها ودخلت على الملك دون أن يدعوها؛ طلب من مردخاى أن يجمع اليهود ليصوموا لأجلها، وصامت هى وجواريها (أس ٤ :١٦). وقبل رجوع الشعب من السى قال عزرا: «وناديت هنك بصوم لكى نتذلل أمام إلهنا لنطلب منه طريقاً مستقيماً (عز ٨ :٢١). وأخيراً وليس آخراً- صام المسيح نفسه قبل بداية خدمته الجهارية (مت ٤ :١، ٢). وسارت الكنيسة الأولى على هذا المنوال: فقبل الرحلة التبشيرية الأولى لبولس وبرنابا صامت كنيسة أنطاكية (أع ١٣ :١-٣)، وبولس وبرنابا صاما؛ عندما انتخبا قسوساً للكنائس التى أسسها (أع ١٤ :٢٣). **والأمر واضح إنه فى بعض الأمور الخاصة نحتاج إلى صلوات خاصة، تستلزم صوماً.**

لكن هناك سبباً كتابياً آخر للصوم. فالجوع هو أحد الغرائز الأساسية للإنسان، والطمع والنهم هو أحد الخطايا الأساسية فى الإنسان، ولهذا فضبط النفس يكون بلا معنى، إن لم يشمل ضبط أجسادنا. وهذا مستحيل بدون أن نهذِّب أنفسنا. وقد استخدم الرسول بولس صورة الرياضى كمثل يُحتذى به. وليتنافس الرياضى فى مباراة عليه أن يكون لائقاً جسدياً، فيتدرب باستمرار. وهذا يتطلب منه انضباطاً فى الطعام والنوم والتمارين «وكل من يجاهد يضبط نفسه فى كل شئ». والمسيحى كرياضى، عليه أن يمارس نفس الشئ فيقمع جسده (وفى اللغة الأصلية يسدِّد اللكمات إلى جسده، ويستعبده أى يقهره) (١كو ٩ :٢٤-٢٧). ولكن هذا لا يعنى الانحراف النفسى المُمسى «مازوشية» (Masochtism) الخاص بأن الإنسان المصاب به يجد اللذة فى إيذاء نفسه! ولا هو تصوف كاذب (False Asceticism) مثل لبس الملابس الخشنة أو النوم على سرير من المسامير، ولا هو محاولة لجذب الأنظار مثل ما فعله الفريسى فى الهيكل (لو ١٨ :٢١). ولا شك أن بولس لم يقصد مثل هذه الأفكار، كما ينبغى أن نرفضها نحن، **فإننا**

لا نعاقب أجسادنا، لأنها خليقة الله. لكن علينا أن نهذبها؛ لتطيعنا. والصوم (وهو الامتناع الإرادى عن الطعام) أحد وسائل تنمية فضيلة ضبط النفس فينا.

وهنا سبب آخر للصوم، فأنا أصوم بمحض إرادتى؛ لأقدم ما كان ينبغى أن آكله (أو على الأقل قيمته المادية) للفقراء والمحتاجين. وأستطيع أن أقول إن هناك وصية كتابية بهذا الأمر، إذ يقول أيوب إنه لم يأكل لقمته وحده، بل تقاسمها مع اليتيم والأرملة (أى ٣١:١٦). وعندما دان الله صوم المرائين من سكان أورشليم، دانه لأنهم فى يوم صومهم التمسوا مسرة أنفسهم وسخَّروا الناس ليقوموا بأشغالهم (إش ٥٨: ١ ، ٣). وهذا يعنى أنه لم تكن هناك علاقة بين أعمالهم وصومهم، حيث لم يراعوا الحاجة المادية للعمال الذين عملوا عندهم. لقد كان هناك تديُّن بدون عدل ولا محبة، فقال الله لهم: «أمِثل هذا يكون صوماً أختاره؟.. حلّ قيود الشر، وفك عُقد النير وإطلاق المسحوقين أحراراً.. أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تُدخِل المساكين التائهين إلى بيتك؟» (إش ٥٨: ٦ ، ٧).

وقد ذكر المسيح شيئاً مماثلاً، عندما تكلم عن الرجل الغنى الذى كان يتنعم كل يوم مترفهاً بينما كان الفقير مطروحاً عند بابه مصاباً بالقروح، يشتهى أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغنى (لو ١٦ :١٩ـ٢١).

وليس من الصعب أن نجد تطبيقاً عصرياً لهذه الأمور، ففى القرن السادس عشر فى بريطانيا أصدرت الدولة (لا الكنيسة) قراراً بتحريم أكل اللحم فى أيام معينه من كل أسبوع سمحت فيها بأكل السمك، لتساعد سكان المدن الساحليه الذين يعتمدون فى معيشتهم على صيد السمك؛ ولأن السمك طعام رخيص للفقراء.

وفى أيامنا هذه، نرى على شاشات التليفزيون صوراً لملايين الجياع فى الدول النامية، فنستطيع أن نستغنى عن وجبة أو وجبتين أسبوعياً لصالح الفقراء، فنتجنب زيادة أوزاننا، كما أنه نوع من الصوم يُرضى الله؛ لأنه يعبر عن إحساسنا بالفقراء، وهو نوع من التكافل الاجتماعى معهم.

وسواء كان صومنا لأجل التوبة، أو لأجل الصلاة، أو لأجل تهذيب الذات، أو لأجل المحبة المتكافلة مع الفقراء، فنحن نجد فى هذه الأمور أسباباً كتابية واضحة للصوم. ومهما كان السبب، فقد قال المسيح إن للصوم مكاناً فى حياتنا المسيحية، وإننا يجب أن نمارسه بذات أسلوب تقديم العطاء ورفع الصلاة، فلا نكون كالمرائين، نوجِّه الأنظار نحو أنفسنا.

لقد كان المراؤون يبدون عابسى الوجوه «يغيرون وجوههم». وكلمة «يغيرون» تعنى يجعلونها غير ظاهرة»، والمعنى غير معروف بالضبط، فلعلهم كانوا يهملون نظافتهم الشخصية، أو يغطون أيديهم بالمسوح، أو يلطخون وجوههم بالرماد ليظهر شاحباً حزيناً، فيظن الناس أنهم قديسون لامعون، فيظهر أنهم صائمون، ويدرك كل الناس أنهم يعانون بسبب تديُّنهم، فيعجبون بهم ويمدحونهم! وكأن المسيح يقول: «أما أنت يا تلميذى فمتى صمت فادهن رأسك وصفِّف شعرك واغسل وجهك». وهو الأمر العادى الذى يحدث كل يوم.

ولذلك قال «جون كلفن» إن المسيح لم يكن يريد أن ينسحب تلاميذه من نوع من الرياء إلى نوع آخر منه»[1]. فقد افترض المسيح أن دهن الشعر وغسل الوجه إجراء يومى عادى، وفى يوم الصوم ينبغى أن يكون كل شئ طبيعياً، فلا يعرف أى إنسان أنهم صائمون. ويكرر المسيح: «فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية»، لأن غرض الصوم ليس الإعلان عن أنفسنا، لكن تهذيب أنفسنا، وليس لننال المدح لأنفسنا، بل لنعبِّر عن تواضعنا أمام الله وعن اهتمامنا بالمحتاجين، فإن كانت هذه أهدافنا، فسننال المجازاة.

وبنظرة إلى الوراء لهذه الأعداد، ندرك أن المسيح كان يقارن بين نوعين من التقوى: «التقوى الفريسية»، و«التقوى المسيحية». **«التقوى الفريسية» تقوى مظهرية تحركها الكبرياء وتنال المكافأ من الناس. لكن «التقوى المسيحية» هى تقوى الخفاء، يحركها التواضع ويكافئها الله.**

ولنفهم التباين بين هذين النوعين من التقوى، لنتأمل المعلول (التأثير) والعلّة:

أولاً: المعلول (التأثير)، ديانة المرائين منحرفة ومدمرة. لقد رأينا أن الصلاة والعطاء والصوم فضائل سامية فى حد ذاتها، فنحن نصلى لنطلب الله، ونعطى لنساعد الآخرين، ونصوم لنهذب ذواتنا. لكن الرياء يدمِّر سلامة هذه الممارسات، ويحوِّلها إلى فرصة لإظهار الذات والإعلان عنها.

ثانياً: ما هى العلة؟ إن كنا نستطيع أن نكتشف العلة؛ نستطيع أن نصف علاج ما نهى المسيح عنه. لقد تصدَّقوا، وصاموا، وصلوا أمام الناس، لينظروهم ويمدحوهم. والمرائى لا ينشغل بالناس لكن بذاته، وكما كتب د. «لويد جونز» «السبب الوحيد فى إرضاء الناس من حولنا

(١) مرجع سابق؛ Calvin, P. 331

هو أن نرضى ذواتنا»[١] . ومن هنا، يتضح العلاج: فلنوجِّه أفكارنا نحو الله، ونتوقف عن التفكير فى الذات. وهذا ما كان المسيح يركز عليه.

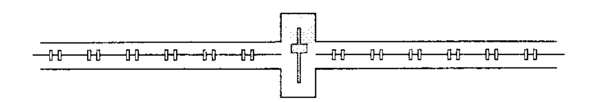
لعلى أستطيع أن أقول إن السرية المطلة أمرمستحيل، فمن المستحيل أن تعمل أو تقول أو تفكر فى أى شئ بدون أن يراك أحد. وحتى لو لم يرك أحد من البشر، فالله يراقبك - لا كرجل شرطة سماوى يتطفَّل عليك ليحسب عليك أخطاءك، لكن كأب سماوى محب ينتهز الفرص ليباركك. فالسؤال هو: أى الناظرين نختار؟ السماوى أو الأرضى؟ الله أم الناس؟

إن المرائى يقوم بعمل الطقوس، ليراه الناس «لكى يظهروا للناس». والفعل «يظهروا» فى الأصل اليونانى (theathenai) يحتمل معنى الوقوف على خشبة مسرح لتأدية دور. **إن ديانتهم عبارة عن فصول علنية فى مسرحية. وعلى المسيحى الحقيقى، أن يدرك أنه أيضاً فى ديانته كأنه يقف على خشبة مسرح، لكن المتفرج الوحيد هو الله.**

ولكن هناك سؤال: لماذا يختلف الدور الذى يقوم به المتعبِّد باختلاف نوعية المتفرجين؟!

والإجابة واضحة: نستطيع أن نخدع المتفرجين؛ فيعجبون بأدوارنا، ويتوهمون أننا صادقون مخلصون فى عطائنا وأصوامنا، بينما الواقع أننا ممثلون. لكن الله لا يُخدَع؛ لأنه ينظر إلى القلب. فقيامنا بعمل؛ ليرانا الناس، يفسد هذا الأمر. لكن إن فعلناه؛ ليرانا الله، نرفعه ونعظمه. علينا إذاً أن نختار المتفرجين بعناية. **إن كنا نفضِّل البشر؛ سنفقد صدق مسيحيتنا. ويحدث الأمر نفسه، لو أصبحنا نحن المتفرجين على أنفسنا.**

وكما كتب «بونهوفر»: «إنه أمر أكثر ضرراً لو تحوَّلت أنا إلى متفرج على صلواتى، لأنى أستطيع أن أتخيل صرة رائعة عن نفسى حتى فى صلاتى الخاصة وفى مخدعى الخاص»[٢]. لذلك، ينبغى أن نختار الله كمتفرج علينا. وكما كان المسيح يراقب الشعب، لينظر كيف يلقى الجمع نحاساً فى الخزانة (مر ١٢: ٤١)؛ هكذا الله يراقبنا عندما نعطى. وعندما نصلى ونصوم فى الخفاء؛ يكون هو فى هذا المكان. إن الله يكره الرياء، لكنه يحب الصدق، وعندما نشعر بحضوره؛ سيكون عطاؤنا وصلواتنا وأصوامنا صادقة.



(١) مرجع سابق؛ Dr. Lloyd - Jones, P. 330

(٢) مرجع سابق؛ Bonhoeffer, P.146

الباب الخامس

صلاة المسيحي: ليست آلية لكنها متأملة

[أصحاح ٦ : ٧ ـ ١٥]

«وحينما تصلّون لا تكرروا الكلام باطلاً كالأمم فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم. فلا تتشبَّهوا بهم لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه. فصلوا أنتم هكذا:

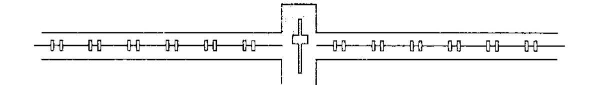
أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك. لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. وأغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا. ولا تُدخلنا فى تجربة لكن نجّنا من الشرير. لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد. آمين.

فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى. وأن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم»

ليس الرياء هو الخطية الوحيدة التى ينبغى أن نتجنبها فى الصلاة، فإن هناك خطية أخرى يجب أن نتجنبها هى «تكرار الكلام باطلاً» أى التكرار الذى لا معنى له، لأنه آلى بدون تفكير ولا تأمل. وخطية الرياء هى خطية الفريسيين، أما التكرار فخطية الأمم (عدد٧).

والرياء هو سوء استخدام غرض الصلاة، بتحويله لتمجيد الذات لا لتمجيد الله. أما التكرار فهو سوء استخدام طبيعة الصلاة، فبدلاً من أن تكون الصلاة وسيلة حقيقية للاقتراب الشخصى إلى الله، تصبح مجرد تلاوة كلمات.

وكعادته فى الموعظة على الجبل، تناول المسيح هذه الأمور من خلال التباين بين صورتين مختلفتين، ليوضح طريقه لنا. فبالنسبة لأمور التقوى بصفة عامة، قارن المسيح بين طريقة الفريسيين (التظاهر والافتخار والأنانية)، والطريقة المسيحية (الخفاء والورع). أما م يختص بالصلاة، فقد قارن بين طريقة الأمم التى فيها ثرثرة لا معنى لها، وطريقة المسيحى التى نرى فيها صلة حميمة بالله مليئة بالمعانى والأهداف. فالله دائماً يدعو أتباعه لهدف أسمى بما لا يُقاس من كل الأهداف المتدينين والعالميين. وقد ركز على أن البر المسيحى أعظم (لأنه بر داخلى)، والمحبة المسيحية أوسع نطاقاً (لأنها تشمل الأعداء)، والصلاة المسيحية أعمق (لأنها مخلصة وذات معنى) من أى شئ نجده فى مجتمع غير المومنين.



١ـ طريقة الأمم فى الصلاة

قال المسيح «لا تكرروا الكلام باطلاً كالأمم» (عدد ٧) . والفعل اليونانى (battalogeo) الذى تُرجم «تكرروا» فعل فريد، لم يُذكر فى أى مكان آخر فى كلمة الله، ولا فى أية كتابات يونانية معروفة، فلا يُعرف على وجه التدقيق مشتقاته أو معناه . وافترض البعض (ومنهم إيراسموس) أنه مشتق من كلمة (Battus) اسم ملك القيروان، الذى كان مشهوراً بالتهتهة، كما كان الحال مع «هيرودوت» . وقال البعض الآخر إن هذه الكلمة هى اسم الشاعر الذى كان يقول الشعر الطويل الممل[1] .

لكن يبدو أن هذان التفسيرين بعيدان عن الحقيقة . ويعتقد مفسرون كثيرون أن هذه الكلمة تمثل تغييراً صوتياً، ونبر الصوت تدل على معناها . وهكذا فكلمة (battarizo) معناها «تهتهة» . وكلام كل أجنبى عند اليونانيين مجرد تكرار يُسمى المتكلم به «بربرياً» ، وهى ذات الكلمة اليونانية (Battarizo) . وكان «وليم تندال» أول من ترجم هذه الكلمة فى الإنجليزية إلى «ثرثرة» ، وعنه أخذت (ترجمة NEB) «لا تثرثروا مثل الأمم» .

والترجمة المألوفة «لا تكرروا الكلام باطلاً» قد تضللنا بعض الشئ، إن لم يتّضح لنا أن التركيز هنا على كلمة «باطلاً» ـ لا على مجرد تكرار الكلام. **فالمسيح لا ينهى عن كل تكرار، لأنه هو ذاته كرر نفسه فى الصلاة ، وعلى الأخص فى جثسيمانى عندما «مضى أيضاً وصلى ثالثة قائلاً ذلك الكلام بعينه» (مت ٢٦ :٤٤) . فالمثابرة واللجاجة فى الصلاة أمران أوصى بهما المسيح**. لكنه، هنا، يرفض الكلام الطويل الممل من الذين يتكلمون بدون تفكير. (فترجمة RSV) قد تساعدنا فى فهم هذه الآية «لا تحشدوا العبارات الفارغة» . والكلمة تصف كل صلاة تخرج من أفواه تتكلم بلا ذهن أو قلب، فتكون بلا معنى. ونجد شرحاً لكلمة «باطلاً» فى ذات العدد (عدد ٧) ، وتعنى الإكثار من الكلام، أى سيل الكلمات الآلية غير الواعية.

ولكن كيف نطبق كلمات المسيح هذه فى عصرنا؟

إنه بالطبع ينطبق على ما يسمونه «عجلة الصلاة» ، و«رايات الصلاة» التى فيها «تصلى» الريح التى تحرك العجلة، لا الإنسان! وأعتقد أنها ينبغى أن تنطبق على اليوجا والذى يسمى

---

(١) C. L. W. Grimm and J. H. Thayer. *A Greek-English lexicon of teh New Testament*, (T. and T. Clark, 1901)

«التأمل السامى». ولقد ندم «ماهاريشى ماهيش يوجى» على أنه أطلق على هذه الصلاة كلمة (تأمل)، فالتأمل الحقيقى يستلزم استخداما واعياً للذهن. لكن مثل هذه الصلاة عبارة عن استرخاء للجسد والعقل معاً، فهى توصل الشخص إلى نوع من الصمت والهدوء، بدون أن تنبه العقل.

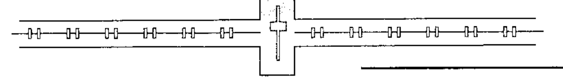
دعونا الآن نتحول من ممارسات الصلاة لغير المسيحيين إلى ممارسة بعض المسيحيين للصلاة، فعندنا الاستخدام غير الواعى للمسبحة إذ يحرك «المصلى» حباتها بأصابعه ويتلو بعض الكلمات، فتشتت المسبحة ذهنه ولا تساعده على التركيز.. ولكن، هل تنطبق هذه الكلمات على القداس الطقسى فى العبادة؟

يكرر الإنجيليون أيضاً الكلام باطلاً فى استخدام بعض الصلوات المحفوظة التى يقترب فيها المصلى إلى الله بشفتيه، بينما يكون قلبه مشغولاً بعيداً. ومن الممكن أن نتلو «عبارات خاوية» فى صلواتنا الارتجالية، ونتفوه بعبارات روحية، بينما يكون ذهننا شارداً. **فالذى نهى عنه المسيح هو كل صلاة تخرج من الفم، بدون أن يكون الذهن حاضراً.**

وبعد ذلك قال عن مثل هذا التكرار فى الصلاة: «فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم». يا لها من فكرة لا تصدق! من هو هذا الإله الذى ينبهر بآلية الصلاة وكثرة كلماتها، ويؤسس استجابته على عدد الكلمات المستخدمة، وعلى عدد الساعات التى تقضى فى الصلاة؟! «فلا تتشبهوا بهم» (عدد ٨)، لأن المسيحيين لا يؤمنون بمثل هذا الإله، فلا يتشبهون بهم لأنهم لا ينبغى أن يفكروا كما يفكرون. بل على العكس، فإن المسيح يقول: «لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه». فهو لا يجهل احتياجاتنا حتى ننبهه إليها، وهو لا يتردد فيحتاج أن نقنعه بالاستجابة، لأنه أبونا الذى يحب أولاده، ويعرف كل احتياجاتهم. وإن كان الأمر كذلك، فقد يسأل أحدهم: إذاً ما هى فائدة الصلاة؟

وسأدعو «جون كلفن» ليجاوب هذا السؤال بقوله: «لا يصلى المؤمنون ليعرفوا الله بأمور لا يعرفها، أو لينبهوه ليقوم بواجباته، أو يلحون كما لو كان متردداً فى العطاء. بل على العكس، فهم يصلون ليوقظوا أنفسهم فيطلبون وجهه، وليمارسوا إيمانهم فى التأمل فى وعوده، ليستريحوا من قلقهم إذ يلقون عليه أحمالهم، فيعلنون أن فيه كل الرجاء لهم وللآخرين وفيه كل شئ صالح»(١).

ولقد كان «لوثر» أكثر تحديداً عندما قال: «بصلواتنا نوجه أنفسنا أكثر مما نوجهه هو»(٢).



(١) مرجع سابق؛ Calvin, P. 314

(٢) مرجع سابق؛ Luther, P. 144

٢. الطريقة المسيحية للصلاة

إن كانت صلوات الفريسيين صلوات رياء وصلوات الأمم صلوات آلية، فينبغى أن تكون صلوات المسيحيين صادقة حقيقية مخلصة بالتباين مع صلوات الرياء.. وصلوات مفكرة بالتباين مع الصلوات الآلية. وقصد المسيح هنا، هو أنه ينبغى أن نستخدم عقولنا وقلوبنا فى ما نقوله فى الصلاة؛ فتظهر الصلاة فى مغزاها الحقيقى - لا كلمات تكررها بلا معنى لتمجيد أنفسنا، لكن كاتصال حقيقى بأبينا السماوى. وقد أعطانا المسيح ما نطلق عليه «الصلاة الربانية» كمثال لما ينبغى أن تكون عليه صلاة المسيحى، وهى نموذج نتمثل به فى صلواتنا: «فصلوا أنتم هكذا...». ويخبرنا لوقا أن المسيح قال عنها: «متى صليتم فقولوا..» (لو ١١ :٢). فلنا حرية أن نستخدم هذه الصلاة كنموذج لصلواتنا الخاصة أو أن نتلوها بنصها.

والفرق الجوهرى بين صلوات الفريسيين والأمم من جانب، وصلوات المسيحيين من جانب آخر، يقع أساساً فى من هو الإله الذى نصلى له. فالآلهة الأخرى قد تشبه الساحرة، لكنها ليست الله الحى الحقيقى الذى ظهر فى المسيح الذى علمنا أن ندعوه: «يا أبانا الذى فى السموات». وهذا يعنى:

أولاً، أن الله شخص ذو ذات، قال عنه «سى. إس. لويس» إنه «أسمى من مجرد شخص»، وبالطبع هو ليس أقل من شخص فى ذاته. ولعل أحد الأسباب التى تجعلنا نرفض تعليم المعلمين العصريين المتطرفين عن شخصية الله، أنهم يحاولون أن يبنوا تعليمهم على فكرة أن الله ليس شخصاً فى ذاته، بل هو فكرة، وهذا ينفى أبوته الإلهية، فالله شخص كما نحن أشخاص، لكنه متفرد فى كل شئ.

وثانيا، إنه محب، فهو ليس المرعب بقسوة بشعة، ولا هو كنوعية الآباء الذين نسمع أو نقرأ عنهم أحياناً أنهم مستبدون، سكيرون، مستهترون، مدمنون، لكن فيه تتم كل صفات الأبوة فى العناية والمحبة لأولاده.

وثالثاً، هو قدير عظيم. وعبارة «الذى فى السموات» تعبر عن مكان وجوده، وعن سلطانه وقوته كخالق يتحكم فى كل شئ. وهكذا نجد فيه المحبة الأبوية، والقوة السماوية. وتستطيع قوته أن تنفذ ما تمليه عليه محبته.

وعندما طلب منا المسيح أن نخاطب الله: «يا أبانا الذى فى السموات»، كان اهتمامه -

لا بتعليمنا القواعد السليمة فى اقترابنا لجلاله، بل التقدم إيه بذهن صادق. ومن الحكمة، قبل أن نصلى، أن نقضى وقتاً للتأمل فى صفات الله، فنتقدم إليه بالاتضاع والتقوى والثقة اللائقين به.

وعندما نقضى وقتاً نركز فيه تفكيرنا على الله ونتذكر صفات هذا الإله العجيب، الآب المحب القدير؛ سيؤثر هذا جذرياً فى صلواتنا بطريقتين:

أولاً، ستصبح أولوية صلواتنا أموراً تختص بالله «اسمك ملكوتك مشيئتك».

ثانياً، سنضع احتياجاتنا الشخصية فى المرتبة الثانية، كما نضعها بالكامل أمام الله «أعطنا اغفر لنا - لا تدخلنا فى تجربة».

وكل شخص يعرف أن الصلاة الربانية تحتوى على هذين الجزأين: الأول يختص بمجد الله، والثانى يختص بحاجات الإنسان. وأظن أن «جون كلفن» هو أول من قال إن الصلاة الربانية تسير فى خط متواز مع الوصايا العشر، لأنهما أيضاً ينقسمان إلى جزأين، ويضعان أمامنا الأولويات. ففى اللوح الأول، نرى واجبنا تجاه الله، وفى الثانى تجاه الآخرين(١).

وتعبر الطلبات الثلاث الأولى، فى الصلاة الربانية، عن اهتمامنا بمجد الله فيما يتعلق باسمه وملكوته ومشيئته. فإذا فكرنا أن الله ليس شخصاً بل مجرد قوة؛ لن يكون له اسم ولا ملكوت ولا مشيئة حتى نهتم بهم. وإن كان اعتقادنا أنه «الشئ البعيد داخلنا» أو «أساس كوننا»؛ فسيكون من المستحيل أن نفرق بين اهتماماته واهتماماتنا. **لكن إن كان هو حقاً «أبانا الذى فى السموات» الشخص المحب القدير الذى أعلن نفسه فى المسيح، خالق الكل، الذى يهتم بالخليقة التى صنعها، وبالأبناء الذين افتداهم؛ عندئذ، وعندئذ فقط يصبح ممكناً بل وضرورياً أن نعطى الأولوية لمجده، وننشغل باسمه وملكوته ومشيئته.**

إن «اسم الله» ليس مجرد مجموعة حروف (ا ل ل هـ)، لأنه يعبر عن شخص الله، وعن طبيعته، وعن عمله. لذلك، «فاسم الله» هو ذات شخصه، كما أعلنه هو من الأزل عن نفسه. و«اسم الله» (مقدس) منذ الأزل» و(متفرد) على كل الأسماء، بل هو (أعلى) الأسماء. وعندما نصلى: «ليتقدس اسمك»، لا نطلب قداسة لهذا الاسم، لكننا نطلب أن يعامل اسمه باعتباره القدوس، وأننا بكل غيرة وحماس نشتهى أن ينال

(١) مرجع سابق؛ Calvin, PP 316, 321

هذا الاسم الكرامة اللائقة به، وبالتالى فنحن نمجد صاحب هذا الاسم فى حياتنا، وكنائسنا والعالم.

إن «ملكوت الله» هو حكمه الملكى. وكما أنه (قدوس) منذ الأزل، فهو أيضاً (ملك) منذ الأزل، يملك بسيادة مطلقة على الطبيعة وعلى التاريخ. وعندما جاء المسيح أعلن عن ملكوته الجديد، حيث يتمتع الإنسان الخاضع لله ببركات الخلاص. وعندما نصلى «ليأت ملكوتك»، نطلب نمو هذا الملكوت، من خلال كرازة الكنيسة، فيعترف الناس بالمسيح، وقريباً يكمل هذا الملكوت عندما يأتى المسيح فى مجده، ليملك بقوة.

و«مشيئة الله» صالحة ومرضية وكاملة (رو ١٢: ٢)؛ لأنها مشيئة الإله الأزلى فى محبته ومعرفته وقدرته، فمن الجهل بل ومن الحماقة أن نقاومها. ومن الحكمة أن نميزها، ونقبلها، ونعمل بها. وكما رأينا أن الله قدوس وملك منذ الأزل، كذلك مشيئته تتم منذ الأزل فى السماء.

إن المسيح يعلمنا أن نصلى؛ لتقترب الحياة على الأرض من الحياة فى السماء. ويبدو أن التعبير «كما فى السماء كذلك على الأرض» ينطبق على تقديس اسم الله، وانتشار ملكوته، وعمل مشيئته. ومن السهل أن نكرر كلمات الصلاة الربانية، مثل الببغاء، كما يفعل الأمم فى تمتمتهم. لكن عندما يصلى المسيحى مثل هذه الصلاة بإخلاص؛ ستحدث ثورة فى حياته، نتيجة تعبيره الصحيح عن أولوياته.

ونحن فى هذا العالم تحت ضغوط مستمرة لنتشكل بأخلاقياته، فيكون تركيزنا على ذواتنا ويصبح اهتمامنا مركزاً حول أسمائنا، نريد أن نراها فى عناوين الصحف وفى أماكن بارزة، وندافع عنها باستماتة عند أى هجوم عليها. وسنهتم بملكوتنا الصغير، فنريد أن يكون لنا نفوذ وسلطة، وقد نستغل الناس لنشبع ذواتنا. وسنهتم أيضاً بفعل إرادتنا الذاتية الحمقاء، ونريد أن نفرض آراءنا. وعندما لا يحدث هذا، يصيبنا الإحباط والحزن. **لكن من خلال الأخلاق المسيحية المختلفة عن أخلاقيات العالم، لن تمثل أسماؤنا أو مملكتنا أو إرادتنا أية أولوية بالنسبة لنا، لأن أولوياتنا هى اسم الله، وملكوته، ومشيئته. فمثل هذه التوسلات امتحان يفحص مدى عمق وصدق اعترافنا المسيحى.**

وفى النصف الثانى من الصلاة الربانية يتغير الخطاب، فتتجه صلواتنا مما يخص الله إلى ما يخصنا نحن. فبعد أن عبرنا عن اهتمامنا الشديد بمجده، نعبر بكل اتضاع عن اعتمادنا الكامل على نعمته، لأن إدراكنا أنه الآب السماوى الملك العظيم يحتم علينا أن نذكر احتياجاتنا أمامه ولا نتجاهلها، بالرغم من أنها تأتى فى المرتبة الثانية. ونحن نخطئ خطأ عظيماً عندما

نتعمد عدم ذكر هذه الحاجات فى صلواتنا، بحجة أننا لا نريد أن نشغله بهذه التفاهات. وهذا خطأ، لا يقل عن خطأ آخر هو أن تكون صلواتنا كلها مجرد طلبات زمنية. ولما كان الله هو أبانا السماوى ويحبنا بالمحبة الأبوية، فهويهتم بكل ما هو لخير وصالح أولاده، ويريد أن نخبره باحتياجاتنا للطعام. والغفران، والنجاة من الشر.

«خبزنا كفافنا أعطنا اليوم»: لقد ظن بعض المفسرين الأقدمين أن المسيح لم يقصد بهذه الطلبة الخبز المادى، الذى يغذى أجسادنا، لأن مثل هذه الطلبة لا تناسب أن تجئ بعد الطلبات الثلاث الأولى التى كانت تتعلق بمجد الله. فرأوا فى طلب الخبز المادى انحداراً شديداً من الروحيات إلى الاهتمامات المادية الدنيوية، فقالوا إن هذه الطلبة مجازية، وإن المقصود بالخبز هنا الخبز الروحى. واعتبر بعض آباء الكنيسة الأولى (مثل ترتليان، وكبريان، وأغسطينوس) أن الإشارة هنا إلى خبز كلمة الله غير المنظور[1] أو لعشاء الرب.

وترجم القديس «إيرونيموس» (جيروم) فى ترجمة «الفولجاتا» العبارة اليونانية «خبزنا كفافنا» إلى «أسمى من المادى» وكان يقصد «العشاء الربانى». لكن كثيرين من المصلحين رأوا فى هذه الطلبة طلبة مادية، فقال «جون كلفن»: «محاولة الآباء وضع هذه الطلبة فى قالب روحانى هى محاولة منافية للعقل»[2]. وقد رأى «لوثر» أن الخبز إشارة إلى «كل ما هو هام للحفاظ على هذه الحياة، مثل الطعام، والصحة الجسدية، والطقس الجميل، والمنزل، والزوجة والأولاد، والحكومة الصالحة والسلام»[3]. وربما تستطيع أن نضيف أن المسيح قصد بالخبز ضروريات الحياة، لا رفاهية الحياة.

إن هذه الطلبة التى فيها نتوجه إلى الله ليعطينا خبزنا، لا تعنى أن لا نعمل لكى نكسب خبزنا، فعلى الفلاح أن يحرث ويزرع ويروى أرضه ويحصد محصوله ليحصل على الطعام. ولا تعنى أن لا نطعم الجياع (مت ٢٥ :٣٥)، لكنها اعتراف باعتمادنا المطلق على الله الذى يستخدم البشر كوسيلة للإنتاج والتوزيع. وأكثر من هذا، يبدو أن المسيح كان يريد من أتباعه أن

(١) بدأ أغسطينوس بأن سرد ثلاثة آراء عن هذه الطلبة: أولاً، كل ما يسدد احتياجنا فى الحياة. ثانياً: مائدة الرب، جسد المسيح. ثالثاً: الطعام الروحى، أى وصايا الله التى ينبغى أن نلهج فيها يومياً ونعمل بها. وكان يميل إلى الفكر الثالث، لكنه قال إن كان أحد يفسر المقصود «بخبزنا كفافنا» الطعام الضرورى لأجسادنا، أو مائدة الرب، فعلينا أن نأخذ المعانى الثلاثة مجتمعة، أى أننا عندما نطلب «خبزنا كفافنا» فنحن نقصد الخبز المنظور، والخبز المنظور إشارة إلى مائدة الرب، والخبز غير المنظور أى كلمة الله». (جزء ٦، ٢٥، ٢٧).

(٢) مرجع سابق؛ Calvin, P. 333

(٣) مرجع سابق؛ Luther, P. 147

يعتمدوا عليه يوماً بيوم. وكلمة «كفافنا» التى تُترجم «خبزنا اليومى» لم تكن معروفة للقدماء حتى أن القديس أوريجانوس «اعتقد أن البشيرين متى ولوقا أضافاها، وشاركه فى هذا الرأى «مولتون» و«ميليبان»[(١)].

ويمكن أن هذه الكلمة تترجم إما إلى «خبزنا الذى ليومنا»، أو «خبزنا الذى للغد» (AG)، وكلاهما صحيح، فهى طلبة اللجاجة الملحة لحاجة المستقبل البعيد، وقال «أ. م. هنتر»: «عندما نرفع هذه الصلاة فى الصباح، فنحن نطلب خبز اليوم عند بداية اليوم، وعندما نصليها فى المساء تكون طلباً لخبز الغد»[(٢)] فعلينا أن نعيش حياتنا يوماً بيوم.

وكما أن الطعام ضرورى للجسد، فالغفران ضرورى لصحة النفس، لذلك فالطلبة التالية «اغفر لنا ذنوبنا» مرتبطة بذنوب ينبغى أن تلقى العقاب. لكن عندما يغفر الله الخطية؛ يرفع العقوبة، وتسقط الدعوى. ولقد أضاف المسيح إلى هذه الطلبة «كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا»، وركز عليها مرة أخرى بعد أن أنهى الصلاة (فى عددى ١٤، ١٥). **وقال إن غفران الآب لنا مرتبط بغفراننا للآخرين، فسيغفر لنا إن غفرنا للناس زلاتهم، ولا يغفر لنا إن لم نغفر لهم زلاتهم. وليس معنى هذا أن غفراننا للآخرين يعطينا الحق فى الحصول على غفرانه، فإن الله يغفر فقط للتائب، ولكن معناه أن روح الغفران دليل جوهرى على التوبة الصادقة**. فبمجرد أن تنفتح أعيننا لنرى بشاعة خطيتنا ضد الله، تبدو كل أخطاء الآخرين فى حقنا مجرد تفاهات. ولكن إن رأينا أخطاء الآخرين بصورة بشعة مبالغ فيها؛ نقلل من حجم خطيتنا. وفى مَثل العبد غير الرحيم (مت ١٨ :٢٣-٣٥) كانت النقطة الجوهرية التى أثارها الرب هى الاختلاف الشاسع فى حجم مديونية كل من العبدين. وخلاصة المثل: «كل ذلك الدين (الضخم) تركته. أما كان ينبغى أن ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا؟» (مت ١٨ :٢٣-٣٥).

ونستطيع أن نقول إن الطلبتين الأخيرتين فى الصلاة الربانية هما طلبة واحدة من جانبين: جانب سلبى، وآخر إيجابى: «لا تدخلنا فى تجربة، لكن نجنا من الشرير». فالذين غُفرت خطيتهم الماضية، يشتاقون أن لا يُستعبدوا لها مستقبلاً مرة أخرى. والطلبة واضحة تماماً هنا، لكننا نصطدم فيها بمشكلتين:

الأولى، إن الكتاب يخبرنا أن الله لا يجرِّب أحداً بالشرور (يع ١ :١٣). إذا ما معنى أن نطلب

---

(١) J. H. Moulton and G. Milligan. *The Vocabulary of the Greek Testament* (Hodder. 1949).

(٢) مرجع سابق؛ Hunter, P. 57

من الله ألا يفعل بنا أمراً وعد أن لا يفعله أبداً؟

أجاب البعض هذا السؤال بتفسير كلمة «تجربة» على أنها «امتحان» (لا تدخلنا فى الامتحان (ترجمة NEB) . فبالرغم من أن الله لا يجربنا بالشرور، لكنه يمتحن إيماننا وضعفاتنا، وهذا احتمال. وهناك تفسير، أعتقد أنه أفضل من الأول، وهو أن نفسر كلمة «لا تدخلنا» فى ضوء الكلمة المصاحبة لها «بل نجِّنا من الشرير»، وهو الشرير الذى تكلم عنه الرب فى (مت ١٣ :١٩)، وهو الشيطان الذى يجرب أولاد الله ليخطئوا، والذى نطلب أن ينقذنا الرب منه.

أما المشكلة الثانية التى تواجهنا، فنجدها أيضاً من قول الكتاب إن التجربة والامتحان نافعان لنا: «احسبوه كل فرح يا إخوتى حينما تقعون فى تجارب متنوعة» (يع ١ :٢) . فإن كانت التجارب نافعة، فلماذا نصلى أن لا يدخلنا الله فيها؟

أقول إن هذه الطلبة تتعلق بالانتصار على التجربة، أكثر من تعلقها بتجنب التجربة.. وربما نستطيع أن نضع الطلبة بأجمعها فى مثل هذه العبارة: «لا تسمح لنا أن ندخل إلى تجربة تحدث بنا، لكن انقذنا من الشيطان الشرير» . ومن هذه الكلمات ندرك أن الشيطان أقوى منا، ونحن أضعف من أن نقف أمامه وحدنا. لكن أبانا السماوى يستطيع أن ينقذنا إن طلبنا منه هذا.

وهكذا نجد أن هذه الطلبات الثلاثة، التى وضعها المسيح فى أفواهنا، هى طلبات جميلة جامعة شاملة.. فهى تغطى أساساً كل احتياجاتنا الإنسانية، المادية (خبزنا اليومى)، والروحية (غفران الخطايا)، والأخلاقية (إنقاذ من الشرير) . وعندما نرفع مثل هذه الصلاة، نعبر عن اتكالنا الكامل على الله فى كل دائرة من دوائر حياتنا الإنسانية. ويستطيع المؤمن الحقيقى الذى يؤمن بحقيقة التثليث أن يرى فيها الأقانيم الثلاثة تشترك فى تحقيق هذه الطلبات الثلاث. فمن خليقة الآب، ونأخذ (خبزنا اليومى)، وبموت المسيح الكفارى (ننال الغفران)، ومن قوة روح الله القدوس فى حياتنا (نُنقَذ من الشيطان) . ولا عجب، ففى بعض المخطوطات القديمة (بالرغم من أنها ليست من أفضل المخطوطات) تنتهى هذه الصلاة بالتسبحة التى تقدم «الملك والقوة والمجد» إلى الله المثلث الأقانيم، الذى يستحق كل هذا.

والآن، نستطيع أن نقول إن المسيح قدم الصلاة الربانية، كمثال للصلاة الحقيقية؛ صلاة المسيحى التى تتميز عن صلاة الفريسيين والأمم. ومن الممكن أن يتلو أحد هذه الصلاة الربانية برياء الفريسيين، أو بآلية الأمم أو بالطريقتين معاً. لكن إن كنا نعنى ما نقوله، فستكون الصلاة الربانية البديل الإلهى لهذين لنوعين المزيفين من الصلاة، ولا أظن أننا نكون قد تجاوزنا الحد،

إن قلنا إننا نستطيع أن نرى البدائل الإلهية لهذين النوعين فى جزئى الصلاة الربانية.

إن خطية المرائى هى الأنانية، لأنه حتى فى صلاته يكون مشغولاً بنفسه، وبكيف يبدو فى نظر نفسه. لكن فى الصلاة الربانية، ينشغل المسيحى بالله: باسمه وبملكوته، وبمشيئته، ولا ينشغل بذاته. إن الصلاة المسيحية الحقيقية هى التى تنشغل بمجد الله، وبذلك تقف على نقيض صلاة المرائين المظهرية، الذين يستخدمون الصلاة كوسيلة لمجدهم الذاتى.

أما خطأ الزممى فهوعدم التفكير، فهو يتمتم بكلمات بلا معنى، ولا يفكر فى ما يقوله، ويهتم بكثرة الكلمات - لا بمحتواها. لكن الرب لا ينبهر بمثل هذه الكلمات. ويدعونا المسيح لنضع أمام أبينا السماوى كل احتياجاتنا بفكر متضع، وهكذا نعبر عن اعتمادنا اليومى عليه.

ونستطيع أن نرى الصورة الحقيقية لصلاة المسيحى بالتباين مع صلاة غير المسيحى، فهى صلاة مركزها الله (لأنها تهتم بمجد الله). وبالتباين مع صلاة الفريسيين التى تركز على الذات (لأنهم ينشغلون بمجدهم الذاتى). وهى صلاة بالذهن (لأنها تعبر عن اعتماد واعٍ على الله)، بالتباين مع كلمات آلية بلا معنى يرددها الأمم. فعندما نتقدم إلى الله فى الصلاة، لا نصلى برياء، لأننا نريد أن نؤدى دوراً يعطينا مدح الناس، ولا نصلى بآلية الأمم، فنتكلم بكلمات غير مفهومة، بدون تفكير. لكن نصلى بذهن وباتضاع، وبثقة مثل الطفل الذى يتحدث إلى أبيه.

وهكذا، نستطيع أن نرى أن الفرق الجوهرى بين مختلف أنواع الصلوات يتوقف أساساً على صورة الله فى ذهن المصلى. والخطأ الفادح الذى وقع لآلية الفريسيين والأمم، المرائين والوثنيين، يكمن أساساً فى صورة الله المزيفة التى فى مخيلتهم عنه. فكلاهما لم يفكر فى الله على الإطلاق. فقد كان الفريسى يفكر فى نفسه. والأممى يفكر فى الماديات. فمن هو الإله الذى يعير اهتماماً لمثل هذه الصلوات الأنانية غير الواعية؟ هل الله سلعة نستخدمها لنتسلق على أكتافه، أو مجرد كمبيوتر نغذيه آلياً ببعض الكلمات؟

لابد أن ندير ظهورنا لمثل هذه الأفكار غير اللائقة، ونتجه إلى تعليم المسيح الذى يعلمنا أن الله هو أبونا السماوى. **لنتذكر أنه يحب أولاده بكل قلبه، ويراهم حتى وهم فى الأماكن المختفية عن أعين الناس، ويعرف أولاده واحتياجاتهم حتى قبل أن يسألوه، ودائماً يعمل لصلاحهم بقدرته وسلطانه. وإن كنا نسمح لكلمة الله أن ترسم لنا صورة الله، وإن كنا نتذكر صفاته ونشعر بحضوره؛ فلن نصلى برياء - لكن بصدق - ولا بالية - لكن بذهن، مثل أولاد الله الذين هم نحن.**

الباب السادس

طموح المسيحى

[أصحاح ٦ : ١٩ ـ ٣٤]

فى النصف الأول من الأصحاح السادس من إنجيل متى (الأعداد ١ - ١٨)، يصف المسيح الحياة الخاصة للمؤمن، وما ينبغى أن يفعله فى السر من صدَقة وصلاة وصوم. أما فى النصف الثاى منه (الأعداد ١٩:٣٤) فيهتم بحياتنا الظاهرة فى العالم من استخدام للمال والممتلكات والطعام والشراب والملابس والطموح.

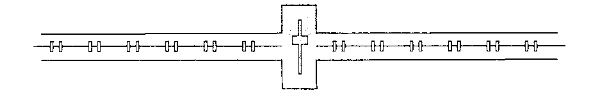
ولعل ما تناوله المسيح فى قسمى هذا الأصحاح يوصف أحياناً بالحياة الروحية والحياة الدنيوية. إلا أن هذا الفصل بين الدائرتين قد يخدعنا، لأننا لا نستطيع أن نفصل بينهما فصلاً جذرياً. ونستطيع أن ندرك من خلال دراستنا لتاريخ الكنيسة أن مثل هذا الفصل كانت له عواقب وخيمة ومدمرة. **وإن كنا مؤمنين فكل ما نفعله، سواء بدا وكأنه دنيوى (مثل الشراء والطهو..) هو فى الواقع «روحى»، بمعنى أنه يُعمل فى محضر الله وطبقاً لمشيئته**. وهذه إحدى النقط التى ركز عليها المسيح فى هذا الأصحاح، فإن الله يهتم بكل مجال من مجالات الحياة، السرى منها والعلنى، الدينى أو الدنيوى. فمن جانبٍ يقول الرب: «أبوكم الذى يرى فى الخفاء» (الأعداد ٤ ، ٦ ، ١٨)، ومن جانب آخر يقول: «لأن أباكم يعلم أنكم تحتاجون لهذا: ماذا نأكل.. ماذا نشرب.. ماذا نلبس» (العددان ٣١ ، ٣٢).

وفى الدائرتين نسمع أمر الرب الملحّ الذى يدعونا لنكون مختلفين عن العالم، فنختلف عن نفاق المتدينين (الأعداد ١-١٨)، وعن مادية غير المتدينين (الأعداد ١٩-٣٤). وقد بدأ المسيح كلامه فى بداية هذا الأصحاح وهو يركِّز على الفريسيين، ثم بدأ يتحدَّث عن الأمم (عدد ٣٢)، لكى نرفض قِيمهم. وهو يضع أمامنا البدائل فى كل موقف، فنجد أن هناك كنزين أحدهما على الأرض والآخر فى السماء (الأعداد ١٩-٢١) وأن هناك حالتين: النور والظلمة (العددان ٢٢ ، ٢٣)، وسيدين: الله والمال (العددان ٢٥-٣٤). ولا نستطيع أن نقف فى هذه الأمور بين بين.

لكن كيف نستطيع أن نختار؟

إن للطموح العالمى جاذبيته القوية لنا. وقد يصعب علينا أن نقف أمام أو وراء المادة، لذلك يساعدنا الرب فى هذا الجزء لنختار الاختيار السليم، يبين لنا حماقة الطريق الخاطئ وحكمة الطريق الصحيح. وبنفس الأسلوب الذى يعالج به موضوع الصدقة والصلاة يعالج الآن موضوع الطموح، ويضع أمامنا ما هو زائف وما هو حقيقى، بطريقة تدعونا لنقارن بينهما، ونقرر لأنفسنا.

إن هذا الموضوع هو موضع الساعة بالنسبة لأجيالنا، فالانفجار السكانى من حولنا يزيد، والمشاكل الاقتصادية تتعقَّد، والغنى يزداد غِنى بينما يزيد الفقير فقراً. **ولا يمكن أن نغمض أعيننا عما حولنا، بل يجب على الطبَقة البورجوازية بين المسيحيين أن ترتعد، ويجب أن يستيقظ الضمير الاجتماعى النائم، ويجب أن «الله الكلمة» يقف بجانب الفقير المظلوم.** ولا شك أن المومنين الذين يتحملون المسؤولية ينزعجون عندما يرون مثل هذه الأوضاع، ويحاولون إيجاد وسيلة أسهل للحياة تلبى حاجة العالم وتتفق بإخلاص مع تعاليم الرب.



١ـ سؤال حول الثروة

(١٩ ـ ٢١)

[١٩] لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون. [٢٠] بل اكنزوا لكم كنوزاً فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ويسرقون. [٢١] لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا.

ينبهنا المسيح لنقارن بين دوام كنزين. والقرار فى منتهى الوضوح: أى الكنزين تكنز؟ فالكنز الذى على الأرض يفسد، وبالتالى فهو غير مضمون. لكن الكنز الذى فى السماء لا يفسد، وبالتالى فهو مضمون. وإن كان هدفنا أن نكنز كنزاً، علينا أن نركز على هذا الكنز الذى سيبقى بدون فساد أو اضمحلال.

ومن المهم أن نواجه هذا السؤال بإنصاف وأمانة: **ما الذى حرمه الرب عندما طلب منا أن لا نكنز كنوزاً على الأرض؟**

من المفيد أن نبدأ فى سرد ما الذى يمنعه الرب.

أولاً: إنه لم يحرم امتلاك الممتلكات، فلا نقرأ فى أى مكان فى كلمة الله وصية بتحريم الممتلكات الخاصة.

ثانياً، لم يحرم الكتاب التوفير لمواجهة متطلبات الحياة فى ظروفها المختلفة. والتأمين على الحياة هو نوع من هذا التوفير. وقد مدح الكتاب «النملة» التى تجهز فى الصيف طعامها الذى تحتاجه فى الشتاء (أم ٦:٦)، وأوضح أن المؤمن الذى لا يهتم بأسرته هو أسوأ من غير المؤمن (١تى ٥:٨).

ثالثاً، علينا أن لا نحتقر الخبرات التى أعطاها، بل بالحرى نتمتع بها؛ لأن الله أعطى لنا بغنى للتمتع (١تى ٤ :٣، ٤ و٦:١٧). **فلم يقصد الرب بقوله «لا تكنزوا» أن ينهانا عن امتلاك الممتلكات، ولا أن نهمل حساب المستقبل، ولا أن نرفض التمتع بالعطايا التى وهبها لنا.**

إذا ما كان يقصد؟

إن الذى يمنعه هو أن نكنز بطريقة أنانية، فهو يقول: لا تكنزوا «لأنفسكم» كنوزاً على الأرض لتحيوا حياة البذخ والمغالاة، دون أن تشعروا بحياة القسوة والحاجة الملحة للعالم الفقير من حولكم، فمن الغباء أن يحسب الإنسان أن حياته من أمواله، فيرتبط قلبه بالأرضيات (لو ١٢ :١٥) . وتنبر «الموعظة على الجبل» على «القلب» الذى يتجه دائماً إلى حيث يكون كنزنا، سواء كان هذ الكنز على الأرض أم فى السماء (عدد ٢١) .

لاحظوا معى أن الرب فى قوله: «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض» لم يكن يقصد إطلاقاً عدم التدبير أو الاقتصاد للمستقبل، لكنه كان يحذر من الطمع البخيل الذى يكنز المال أو الماديات، ويريد أن يجمع أكثر وأكثر. هذا هو الشرك الخفى الذى أراد الرب أن يحذرنا منه. لذلك كتب «مارتن لوثر» «حيثما يكرز بالإنجيل، ويريد الناس أن يعيشوا وفقاً لمبادئه، يواجههم عدوان خطيران: العدو الأول الأنبياء الكذبة الذين يشوهون التعليم، والعدو الثانى الطمع الذى يعطل السلوك الأمين»[١] .

ويذكرنا المسيح بأن الكنز الأرضى الذى نشتهيه: يصدأ، ويفسده السوس، ويسرقه اللصوص. وكلمة «يصدأ» فى اليونانية (Brosis) هى ذات الكلمة «يأكل»، ولعلها تشير إلى فعل الصدأ أو ما يفعله العث أو الحشرات. والعث يأكل الملابس، والفئران تأكل الغلال، والديدان تأكل ما يخزن تحت الأرض، واللصوص ينقبون ويسرقون ما تبقى، فلم يكن هناك شئ مضمون فى تلك الأيام. أما فى أيامنا هذه، فنحن نحافظ على ممتلكاتنا برشها بالمبيدات الحشرية أو مبيدات الفئران أو طلاء مانع الصدأ، أو أجهزة الأنذا ضد السرقة، لكنها قد تفنى، أما بفعل التضخم أو الكساد الاقتصادى. وحتى إن بقيت لنا طول عمرنا، فلا نستطيع أن نأخذها معنا. وما أحكم قول أيوب: «عرياناً خرجت من بطن أمى وعرياناً أعود إلى هناك» (أى ١ :٢١) .

لكن «الكنز الذى فى السماء» لا يفنى. ولكن، ما عساه أن يكون هذا الكنز؟

لا نجد فى كلمات الرب فى هذا الجزء ما يشير إلى مقصده من «الكنز الذى فى السماء»، لكن بالتأكيد نستطيع أن نقول إن «الكنز الذى فى السماء» هو أن نعمل كل ما نعمله فى الأرض، ليستمر تأثيره فى الأبدية. وبالتأكيد لم يكن الرب يقصد أن يعلم تعليم «كنز الاستحقاق» (Treasury of Merits) (كما كانت تسميه الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى) . فالقول

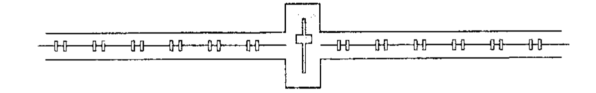
---

(١) مرجع سابق؛ Luther, P. 166

إنه باستطاعتنا أن نجمع من الأعمال الصلاحية التى نفعلها على الأرض استحقاقاً فى السماء لنا وللآخرين، قول مشوه لأنه يناقض إنجيل النعمة الذى علمه الرب.

وعلى كل حال، فقد كان المسيح يكلم تلاميذه الذين كانوا قبلوا الخلاص. إذا ماذا قصد الرب بالكنز الذى فى السماء؟ هل قصد نمو نفوسنا فى الصفات المسيحية، فنصبح مشابهين للمسيح، ولن نقدر أن نأخذ معنا إلى السماء إلا نفوسنا؟. هل قصد أن ننموا فى الإيمان والرجاء والمحبة، وهى الأمور التى ستبقى معنا، كما قال الرسول بولس (١كو ١٣ :١٣) .. أو هل قصد نمونا فى معرفة ربنا يسوع المسيح الذى سنراه يوماً ما وجهاً لوجه.. أو هل قصد الخدمة الجادة من خلال الصلاة والكرازة لنربح آخرين للمسيح ليصبحوا وارثين للحياة الأبدية؟.. أو هل قصد أن نستثمر أموالنا فى خدمة المسيح والمسيحية حيث أن هذا هو الاستثمار الوحيد الذى يربح ربحاً أبدياً؟

إن كل هذه الأمور نفعلها فى العالم، لكن لها نتائج أبدية. وهذا هو الكنز الذى فى السماء الذى لن يسرق ولن يصدأ ولن يفسده السوس. وليس فى السماء لصوص أو فئران أو عث. إنه الكنز المضمون إذاً، فلا يحتاج لمن يحميه أو يؤمنه. إنه لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل، لهذا قال الرب إنه الاستثمار المضمون، ولا يوجد شئ مضمون أكثر منه.



٢-سؤال حول الرؤية

(٢٢، ٢٣)

«[٢٢] سراج الجسد هو العين. فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً [٢٣] وإن كانت عينيك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً. فإن كان النور الذى فيك ظلاماً فالظلام كم يكون».

لقد تحول المسيح هنا من مقارنة دوام كنزين، إلى مقارنة الفائدة التى تعود علينا من حالتين: المقارنة بين شخص أعمى وآخر يبصر، وبين حياتيهما فى النور والظلمة. «فالعين» هى سراج الجسد، وهذا بالطبع ليس حرفياً بل مجازى، فالعين ليست نافذة تدخل النور إلى الجسد، فكل ما يفعله الجسد يعتمد على مقدرتنا على الرؤية. فنحن فى حاجة للعين، لنستطيع أن نسير أو نجرى أو نقود سيارة أو نعبر الطريق أو نطهو الطعام. فالعين تنير ما تفعله اليدان أو القدمان. فالأعمى يستطيع أن يتأقلم على الحياة بطريقة عجيبة، ويتعلم أن يعمل أشياء كثيرة بدون الحاجة إلى عينين، وعنده إمكانيات متى تدربت تعوضه عن فقدان حاسة البصر. لكن المبدأ هنا أن المبصر يسير فى النور، والأعمى فى الظلام. والفرق الكبير بين النور والظلام فى الجسد يعود إلى هذا العضو الصغير الذى هو «العين». فإن كانت عينك بسيطة؛ فجسدك كله يكون نيراً، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً. وفى العمى الكلى؛ يكون الظلام كاملاً.

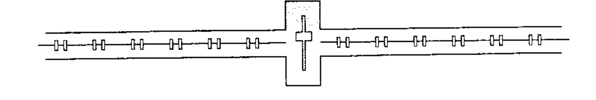
كل هذه تشبيهات واقعية، لكنها أيضاً تحمل معانى مجازية، فكثيراً ما نجد فى كلمة الله أن «العين» ترمز إلى (القلب)، وإمالة القلب وتركيز النظر هما فى واقع الأمر شئ واحد. وسأقدم مثالاً واحداً، أظنه كاف على هذه الحقيقة، ففى (مز ١١٩ : ١١) يقول المرنم: «خبأت كلامك فى قلبى لكيلا أخطئ إليك»، وفى (مز ١١٩ : ١٨) يقول: «اكشف عن عينى فأرى عجائب من شريعتك». وهنا، أيضاً، فى «الموعظة على الجبل» يتكلم الرب عن أهمية أن يكون القلب فى المكان السليم (مت ٦ :٢١). وفى ذات اللحظة، يتكلم عن أهمية العين البسيطة السليمة.

والفكرة هنا هى: كما أن عيوننا تؤثر فى كل الجسد؛ كذلك طموحاتنا (حيث نركز قلوبنا وعيوننا) تؤثر فى كل الحياة. وكما أن رؤية العين تنير كل الجسد؛ كذلك الطموح النبيل والبسيط

لخدمة الله والإنسان يضيف معنى للحياة، ويضئ عل كل ما نعمله. والعمى يقود إلى الظلام، كذلك الطموح الأنانى وغير النبيل، كأن الكنز الذى نكنزه لأنفسنا على الأرض يقودنا إلى ظلام أخلاقى، ويجعلنا غير آدميين، ومتذمرين، قساة، ويجعل حياتنا بلا معنى.

إنها مسألة «رؤية» فإن كانت لنا رؤية طبيعية، نستطيع أن نرى ماذا نفعل، وأين نذهب. وهكذا إن كانت لنا رؤية روحية، وإن كان جسدنا الروحى منضبطاً، ستمتلئ حياتنا بالهدف والدافع.

لكن إن أصاب رؤيتنا غمام، لأننا نتعبد لصنم الماديات؛ فسنفقد الإحساس بالقيمة، وتكون حياتنا ظلاماً فى ظلام، ولا نستطيع أن نعرف إلى أين نذهب. ولعل التركيز، هنا، هو أن فقدان البصر هو نتيجة الطمع، لأن الكتاب يعلمنا أن صاحب العين الشريرة هو الشخص البخيل المقتر، لكن صاحب العين البسيطة السليمة هو الشخص الكريم. وفى كل الأحوال، يضيف الرب سبباً جديداً يجعلنا نكنز فى السماء. فالسبب الأول هو فى دوام الكنز، والسبب الثانى هو الفائدة العظيمة الآن على الأرض من خلال هذه الرؤية.



٣- سؤال حول القيمة!
(عدد ٢٤)

«[٢٤] لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون تخدموا الله والمال».

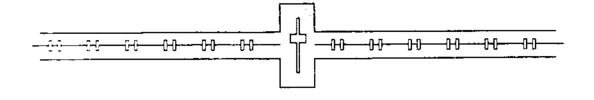
يوضح الرب أن وراء الاختيار بين كنزين نريد أن نكنزهما، ورؤيتين نركز النظر عليهما، يكمن الاختيار بين سيدين سنقوم بخدمتهما. إنه الاختيار ما بين الله والمال، أى ما بين الخالق نفسه وبين أى مخلوق نخلقه نحن! لأننا لا نستطيع أن نخدم الاثنين معاً.

لكن بعض الناس يختلفون مع قول المسيح هذا، فهم يرفضون الخضوع لمثل هذه الوصية القاطعة السليمة، ولا يرون لها ضرورة. فهم يؤكدون أن يخدموا سيدين على الوجه الأمثل فى ذات الوقت، وهم إذ يمارسون هذا: يخدمون الله يوم الأحد، ويخدمون المال بقية أيام الأسبوع... أو يخدمون الله بشفاههم، ويخدمون المال بقلوبهم... أو يخدمون الله ظاهرياً، ويخدمون المال واقعياً... أو يخدمون الله بنصف حياتهم، والمال بنصفها الآخر!

وللأسف، فهذه مهادنة شائعة يستحسنها كثير من المؤمنين، مع أن الرب أعلن استحالتها: لا يقدر أحد أن يخدم سيدين (لاحظوا معى كلمة «يقدر» و«لا تقدرون»). فهل يفهم المهادنون هذا التعاليم؟

لقد فاتت عليهم صورة العبد وسيده الذى يمتلكه. وكما قال «ماكنيل»: «يقدر الإنسان أن يعمل عند صاحبى عمل، لكن لا يوجد عبد يمكن أن يكون ملكاً لسيدين... لأن العبد مملوك السيد واحد ويعمل كل الوقت عند هذا السيد الواحد». **فكل شخص يقسم ولاءه بين الله والمال، هو فى واقع الأمر يقدم الولاء للمال، لأن الله يطلب كل كيان الإنسان فى خدمته**، وهذا ببساطة لأنه القائل: «أنا الرب، هذا اسمى، ومجدى لا أعطيه لآخر» (إش ٤٢ :٨). «لأنه كيف يدنس اسمى؟ وكرامتى لا أعطيها لآخر» (إش ٤٨ :١١). فإذا حاولت أن تقدم ولاءك لله وللآخرين؛ تكون قد اخترت أن تقدم ولاءك للآخرين.

وعندما ترى اختيارك، كما يجب أن يكون؛ ستراه اختياراً بين الخالق والمخلوق.. بين الله الممجد وأشياء حقيرة تدعى المال... بين العبادة الحقيقية والعبادة الوثنية، فيبدو أنه شئ غير معقول أن يختار الإنسان الاختيار الخاطئ. فالسؤال الآن، ليس مجرد مقارنة بين ما هو دائم وما هو زائل، أو بين ما هو نافع وما هو غير نافع، لكن مقارنة بين ما هو قيم وما هو بغير قيمة.



٤- سؤال حول الطموح

(٢٥-٣٤)

«[٢٥] لذلك أقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس [٢٦] انظروا إلى طيور السماء. إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن وأبوكم يقوتها. ألستم أنتم بالحرى أفضل منها [٢٧] ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة [٢٨] ولماذا تهتمون باللباس تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو. لا تتعب ولا تغزل. [٢٩] ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها. [٣٠] فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غداً فى التنور يلبسه الله هكذا أفليس بالحرى جداً يلبسكم أنت يا قليلى الإيمان [٣١] فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس [٣٢] فإن هذه كلها تطلبها الأمم. لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. [٣٣] لكن أطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزداد لكم. [٣٤] فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفى اليوم شره».

من المؤسف أن هذا الجزء يقرأ فى الكنيسة معزولاً عما قبله، فيضيع منا معنى التعبير «لذلك أقول لكم». فينبغى علينا أن نربط كلمة «لذلك» بما قبلها، لأنها تحمل استنتاجاً لما سبق المسيح أن قاله وعلمه. لقد دعانا لنفكر قبل أن يدعونا لنعمل، ولنتأمل، بثبات وتأن، عن البدائل التى أمامنا ونزنها بعناية. فهل نحن نريد أن نكنز الثروة؟ ترى أى الاحتمالين يكون أكثر بقاء؟

إننا نريد أن نتمتع بالحرية فى أهدافنا وأوقاتنا، نريد أن نخدم أفضل سيد. لذلك علينا أن نقرر من هو الأجدر بأن نكرس له ذواتنا. **فعندما نحلق بأفكارنا، وندرك أى الكنزين أثبت (الفانى أم الباقى)، وأى العينين أفيد (الظلمة أم النور)، وأى السيدين أقيم (الله أو المال)؛ عندها نكون على استعداد أن نختار، وعندما نختار الكنز السماوى والنور والله، نستطيع أن نتمم قول الرب: «لا تهتموا لحياتكم.. ولا لأجسادكم.. لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره» (العددان ٢٥، ٣٣)**. فاختيارنا

الأساسى المختص بخدمة أحد السيدين، سيؤثر على اتجاه تفكيرنا تأثيراً جذريًا. فلا نهتم بهذا الأمر الذى سبق ورفضناه، لكن نركز أذهاننا وطاقتنا للآخر الذى اخترناه، وبالتالى سنرفض أن نستغرق فى الاهتمام بأمورنا الشخصية، ونستغرق فى طلب ما لله أولاً.

وحديث الرب عن «الطلب»، يوضح الفرق الهائل بين ما يطلبه المؤمن أولاً، وما تطلبه الأمم (العددان ٣٢ ، ٣٣)، ويقودنا إلى موضوع الطموح، فلكل شخص متطلبات يبحث عنها، وكل البشر «يطلبون». فليس من الطبيعى أن تجرفنا تيارات الحياة، فنكون بلا هدف، فهناك هدف نحيا لأجله يعطى وجودنا معنى، نبحث عنه ونركز عليه قلوبنا وأذهاننا. ومع أن هناك فئة قليلة من البشر تستخدم لغة الفلاسفة اليونانيين القدماء، إلا أننا جميعاً نطلب ما طلبوه، وهو «الخير الأسمى» الذى لأجله نكرس حياتنا.

ولعل كلمة «الطموح» هى الكلمة التى تعبر عن هذا فى لغتنا الحديثة. وهى تعنى «الرغبة القوية للنجاح». ولهذا فهى قد تحمل بالنسبة للبعض صورة قاتمة تخفى بين طياتها رغبة أنانية.

ولعل هذا المعنى كان يدور فى ذهن «شكسبير» عندما ناشد «كرمويل» فى مسرحيته «الملك هنرى الثامن»: «ياكرمويل، أناشدك أن تقذف بالطموح بعيداً، فمثل هذه الخطية أسقطت الملائكة».

إلا أن الطموح يمكن أن يعنى رغبات قوية فى الإنسان - لا تحكمها الأنانية، بل الغيرية، ولا العالمية المادية - بل الأمور الإلهية، فإننا نقدر أن نكون طموحين فيما لله. هذا الطموح يهتم بأهدافنا فى الحياة والحوافز التى تجعلنا نتمم هذه الأهداف. فطموح الإنسان يجعله يخطط، وهو الذى يكشف عن دوافعه لما يقوم به من أعمال. وهذا ما تحدث عنه الرب، عندما قدم لنا ما الذى ينبغى أن نطلبه، أولاً، من خلال فكرنا المسيحى المختلف عن فكر الأمم.

ومرة أخرى، يقدم لنا الرب، فى بساطة التحدى، الذى ينبغى أن يكون أمامنا، ملخصاً أهداف الحياة فى أمرين. وهو يحث أتباعه أن لا ينشغلوا بأنفسهم (الطعام - الشراب - الملابس)، لأن هذه هى انشغالات الأمم الذين لا يعرفونه، لكن يجب أن ينشغلوا ببر الله وحكمه (ملكوته)؛ لينتشر وينتصر فى العالم.

أولاً: الطموح المزيف أو العالمى: أماننا الشخصى فى الماديات!

يتحدث أغلب هذا الجزء عن أمور سلبية، فيكرر الرب ثلاث مرات القول «لا تهتموا» (الأعداد ٢٥ ، ٣١ ، ٣٤). والأمور التى يمنعنا عن الاهتمام بها، هى الطعام والشراب والملابس: «ماذا نأكل وماذا نشرب وماذا نلبس» (عدد ٣١). وهذه هى «ثلاثية اهتمامات العالم»، لأن هذه كلها تطلبها الأمم (عدد ٣٢). وإذا تطلعنا من حولنا، ورأينا الإعلانات فى التليفزيون والجرائد ووسائل المواصلات، سندرك أنها تصوير عصرى لما كان المسيح يعلّمه منذ ألفى عام.

منذ عدة سنوات، وصلتنى (كهديَّة) مجلة لامعة الغلاف تسمى «الحركة فى حياة سعيدة»، كانت مليئة بالإعلانات عن الطعام والسجاير والكحوليات والملابس والتحف والسجاجيد، مع وصف لعطلة رائعة لنهاية الأسبوع تُقضى فى المشتروات فى روما. وكانت هناك مقالة عن كيف يكون لديك كمبيوتر فى مطبخك، وكيف تربح رحلة عظيمة فى سفينة، أو مئة دستة من زجاجات الويسكى، وكيف لا تخطئ ١٥ مليون امرأة فى عمل المكياج. ثم كان هناك وعد أنه فى الشهر التالى ستكون هناك فرصة لقضاء الإجازة على شاطئ الكاريبى، مع الاستمتاع بالطعام الشهى والإقامة الفاخرة. ومن أول المجلة إلى آخرها كان التركيز على رفاهية الجسد، وكيف تطعمه، وتلبسه، وتدفئة، وتنعشه، وتمتّعه.

والآن، أرجو أن لا تسئ فهم هذا: إن المسيح لم ينكر ولم يستخف بحاجات الجسد. فهو الذى خلق الجسد، وهو يهتم به، وهو الذى علّمنا أن نصلى: «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم». إذاً ما الذى كان يقوله؟

لقد كان يركز على أنه إذا كان شغلنا الشاغل هو الراحة المادية؛ فهذه مشغولية مزيفة، لأنها لا تثمر إلا الجروح والقلق، ولأنها أيضاً غير ضرورية «لأن أباكم السماوى يعلم ما تحتاجون إليه» (العددان ٨ ، ٣٢). ومشغولية الأمم بهذا كله لا تفيدهم فى شئ، لأنها مشغولية فكر زائف يظن أن البشر مجرد أجساد تحتاج إلى طعام وشراب وملبس ومأوى، وأن الحياة البشرية مجرد آلة تحتاج إلى حماية ووقود وتشحيم! **فإن كان انشغال البال ينحصر فى الطعام والشراب والملابس، تكون حياتنا فى هذا العالم هى نهاية المطاف بالنسبة لنا، فنحيا لمجرد الحياة، وتكون كيفية حفظ أجسادنا هى أولويتنا الأولى.**

ونحن نفهم أنه فى كوارث الجوع، يمثل الصراع من أجل الحياة الأولوية القصوى، لكن لو حدث هذا الأمر فى الظروف الطبيعية؛ يكون تعبيراً عن تفكير دونى من الإنسان يجب أن يُقابل بالرفض فى كل الأحوال، لأنه يضع الإنسان فى مرتبة الحيوانات والطيور والنباتات. إلا

أن أغلب إعلانات اليوم موجّهة إلى الجسد وملابسه الخارجية والداخلية، وما يؤثر على المنظر، وعلى العطور التى تمنح الروائح الذكية، والكحوليات التى ترفع من الروح المعنوية!

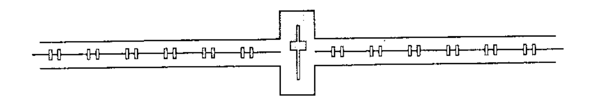
ولكن هذه المشغولية تثير بعض الأسئلة: هل خيرى الجسدى أمر جدير بأن أكرس له حياتى؟ أليس لحياة الإنسان معنى أعمق من هذا؟ لقد قال الرب إن الأمم يطلبون هذه الأمور، فدعوهم وشأنهم. أما بالنسبة لكم، أيها المؤمنون، فهذه الأمور أهداف بائسة غير جديرة بالاهتمام، لأنها ليست الخير الأسمى فى الحياة.

دعونا الآن نستوضح ما الذى كان يريد المسيح أن يمنعنا عنه، وما هى أسباب هذا المنع؟.

أولاً، هو لا يمنع التفكير والتأمل، بل على العكس يشجعه، فقد طلب منا أن ننظر إلى طوير السماء وإلى زنابق الحقل، «ونتأمل» كيف يعتنى الله بها. إذاً فالدعوة لعدم التفكير مقولة باطلة وخاطئة.

ثانيا، هو لم يمنع التفكير فى المستقبل، فقد سبق أن ذكرنا أن الكتاب مدح ما تفعله النملة، والطيور أيضاً تخطط للمستقبل بأن تبنى أعشاشها حيث تضع بيضها وتطعم فراخهاوهناك طيور كثيرة تهاجر إلى بلاد دافئة، قبل أن يجئ الشتاء. وهذا مثل حى للتدبير، بالرغم من أنه غريزى، لأنه تفكير مستقبلى. وبعض الطيور تخزن طعامها.

إذاً، لا نجد هنا ما يمنع المؤمن من التخطيط للمستقبل، أو يخطو خطوات مدروسة لأجل سلامته. **لم يمنعنا المسيح عن التفكير، أو التدبير للمستقبل، لكنه نهانا عن القلق، وهذا معنى قوله: «لاتهتموا»، وهو ما قيل عن «مرثا» التى كانت مرتبكة فى خدمة كثيرة، وما قيل عن البذار الجيدة المزروعة فى وسط الشوك، التى تختنق بسبب هموم الحياة (لو ٨: ٤)**. ويحرضنا بولس بقوله: «لا تهتموا بشئ» (فى ٤: ٦). قال الأسقف رايل»: «إن الاستعداد الحكيم للمستقبل أمر سليم، لكن القلق والضيق والاهتمام وتعذيب النفس أمر خاطئ»(١)، لأن فعل هذا القلق الوسواسى لا يتفق مع الإيمان المسيحى (الأعداد ٢٥-٣٠)، ولا مع الإدراك الواعى (عدد ٣٤)، لكنه ركَّز فى الحديث عن السبب الأول، وهو:



(١) مرجع سابق؛ Ryle, P. 59

أولاً: الطموح المزيف أو العالي: أماننا الشخصي في الماديات!

١ـ القلق لا يتفق مع الإيمان المسيحي (٢٥-٣٠)

فى (عدد ٣٠) سمَّى المسيح الذين يهتمون بالطعام والملابس «قليلى إيمان» وقدم لنا من الأسباب يجعلنا نثق فى الله، بدلاً من أن نهتم ونقلق، وذلك من خلال حوار منطقى هادئ يصل فى نهايته إلى الاستنتاج «أفليس بالحرى؟». وهذا الحوار من الأختيار الإنسانى، تدرَّج فيه من الأكثر إلى الأقل، ثم قدَّم حواراً من الاختبار «الدون إنسانى»، (الطيور والزهور)، وفيه أيضاً تدرَّج من الأقل إلى الأكثر.

يعلمنا اختبارنا البشرى أن الله وهبنا حياتنا، وهو الآن يهتم بها ويحفظها. وهو خلق أجسادنا، ويستمر فى الاهتمام بها وحفظها. وهذا اختبار كل إنسان، فنحن لم نخلق أنفسنا، ولا نستطيع أن نحفظ أنفسنا أحياء. **فواضح أن المسئول الأول عن حياتنا هو الله، وهى الحياة التى أهم من الطعام والشراب اللذين يتغذى بهما الإنسان.. والمسئول عن أجسادنا أيضاً هو الله، وهى أهم من الملابس التى نلبسها لتدفئنا**. وإن كان الله قد اهتم فيما قبل بما هو أعظم، أى بحياتنا وأجسادنا، ألا نثق فيه أنه يعتنى بما هو أقل، أى بطعامنا وملابسنا؟!

إن هذا المنطق لا يقبل الجدل، وقد دعمه المسيح (فى العدد ٢٧) بالسؤال: «من منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحداً؟»، والذراع يشير إلى طول الحياة أو إلى طول القامة، فمن الممكن هنا أن المسيح يقصد أن تزيد القامة نصف متر، وهذا أمر عجيب، بالرغم من أن الله يعمله فى إطالة قامتنا فى فترة ما بين الطفولة والشباب. وواضحٌ أن الإنسان لا يقدر أن يضيف أياماً إلى حياته، لأنه لا يصل إلى هذا بقوته. بل بالعكس، فكلنا نعلم أن القلق قد يقصف عمر الإنسان ولا يطيله. وكما تركنا هذه الأمور فى يد الله لأنها خارجة عن نطاق إمكانياتنا، أليس من المنطقى أن نثق فى الله بالنسبة لأمور أقل أهمية كالطعام والملابس؟

ثم تحول المسيح بعد ذلك إلى عالم الكائنات «الدون إنسانية»، وبدأ حواراً من آتجاه آخر، مستخدماً الطيور كدليل على إمداد الله لها بالطعام (عدد ٢٦)، وزنابق الحقل ليشير إلى إمداد الله لها بالكساء (الأعداد ٢٨-٣٠). وفى كلتا الحالتين. يطلب منا أن ننظر ونتأمل؛ لندرك حقيقة إمداد الله وعنايته للطيور والزنابق.. ويعرف بعض القراء أنى شغوف بمراقبة الطيور.

وقد يسخر البعض من هذا، ويعتبرونه لهو غير سوى. لكنى كنت احترم قول الكتاب: «انظروا إلى طيور السماء» الذى يمكن ترجمته: «راقبوا الطيور». فترجمة الكلمة اليونانية «انظروا»، تعنى (ثبتوا انظاركم). وإن كنا نعير انتباهاً للطيور والزهور (وينبغى أن نكون مثل سيدنا، شاكرين لأجل العالم من حولنا)، عندئذ سنعرف أن أبانا السماوى يطعم الطيور بالرغم من أنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن، ويهتم بزنابق الحقل مع أنها لا تتعب ولا تغزل، إلا أن أبانا السماوى يلبسها أفضل من ملابس سليمان فى كل مجده. وإن كان الحال هكذا، **فهل يمكن أن نشك فى أن الله يطعمنا ويلبسنا نحن أصحاب القيمة الأكبر من قيمة الطيور والزهور؟** إنه يلبس عشب الحقل الذى يعيش اليوم ويذوى غداً، ويُلقى فى التنور، فلابد أن يكسونا.

لذلك، كتب «مارتن لوثر»: «وهكذا نرى أن الله جعل الطيور نُظّاراً وأساتذة لنا. وكم يخجلنا أن يكون العصفور الذى لا حول له ولا قوة معلماً لاهوتياً وواعظاً لأحكم الرجال! وعندما تستمع إلى العندليب، فأنت تسمع واعظاً ماهراً، كما لو كان يقول: أنا أفضّل أن أكون فى مطعم الرب، لأن الذى خلق السماء والأرض هو بنفسه يجهِّز لى الطعام والمأوى. وكل يوم يطعم ملايين الطيور الصغيرة من يده»(١). وقال «سبرجن»: «أيتها الزنابق، كم من المرات تنتهرين حماقتنا وقلقنا!»(٢). وقال شاعر غربى: «قال العصفور لصديقه: لماذا أرى البشر قلقين ومندفعين ومهمومين؟ فردَّ عليه الصديق: يا صديقى، أعتقد أن ليس لهم أب سماوى يهتم بهم كما يهتم بنا». وهذا حوار جميل بين عصفورين، ولو أنه لا يعكس تعليم المسيح بدقة، لأن المسيح لم يُقل إن الطيور ليس لها أب سماوى، ولكنه قال إن للبشر أباً سماوياً، وقال: وإن كان الخالق يهتم بخليقته، أفليس بالحرى أن الأب يعتنى بأولاده!

٢- مشاكل متعلقة بالإيمان المسيحي

وعند هذه النقطة، أريد أن أسمح لنفسى أن أبتعد قليلاً عن الموضوع، لأعلن عن ثلاث مشاكل تتعلق بالإيمان المسيحى الذى يطلبه منا المسيح، هذا الإيمان الذى يشبِّهه بأنه مثل إيمان الأولاد. وهذه المشاكل الثلاث كبيرة، لكنى سأتناولها بسرعة، لأنه من الخطأ أن نتجاهل مثل هذه المشاكل، لأنها ستُثار فى فكرنا، بناءً على وعد الرب لنا بأن أبانا السماوى يهتم

(١) مرجع سابق؛ Luther, PP. 1972

(٢) مرجع سابق؛ Spurgeon, P. 39

بمأكلنا وملبسنا. وسأذكر هذه المشاكل سلباً، من خلال ثلاثة أمور لا يستوعبها الإيمان فى ضوء وعد الله، أو ثلاث حصانات لا يقدمها لنا مثل هذا الوعد.

أولاً، لا يستثنى المؤمنون من كسب عيشهم، فلا يمكن أن نجلس على الكراسى، ونستلقى بلا عمل ونقول: أبونا السماوى سيمدنا بكل شئ. فعلينا أن نعمل، لأنه إن كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضاً (١تس ٣: ١٠). لذلك كتب «لوثر»: «الله لا يريد أن يعمل مع الكسولين وأصحاب البطون الشرهة، الذين لا يعملون ولا يبالون أن يعملوا فهم يعتقدون أن عليهم أن يجلسوا، وينتظروا الله، حتى يضع الطعام فى أفواههم»[١].

ولقد استخدم المسيح الطيور والزهور، كدليل على قدرة الله التى تطعم وتكسو. لكن كيف يطعم الله الطيور؟ لعل إجابةً تقول: إنه لا يطعمهم، لكنهم يطعمون أنفسهم! ولكن المسيح يدرك تماماً ما يقول، فهو يعرف عادات الطيور فى الطعام، فبعضها يأكل البذور، وبعطها يأكل جيف الحيوانات الميتة وبعضها يأكل الأسماك، وبعضها مفترس، والله يطعمهم جميعاً، ليس بأن يفتح لهم يديه المليئة بالطعام، لكن بأن يدعوهم: التقطوا طعامكم من البيئة المحيطة بكم.

وهذا يصدق أيضاً على النباتات، فالزهور لا تتعب كما يتعب الرجال فى الحقل، ولا كما تغزل النساء فى بيوتهنَّ، إلا أن الله يُلبسها، ولكن كيف؟ ليس من خلال عمل معجزى، بل من خلال عمليات معقدة رتَّبها لها الرب، تستطيع من خلالها أن تحصل من التربة والمطر والشمس على ما يساعدها على البقاء.

والوضع مع الجنس البشرى يماثل هذا تماماً، فإن الله رتب كل شئ، وعلياالإنسان أن يتعاون ويعمل. لقد تعلم «هدسون تيلور» هذا الدرس فى رحلته الأولى فى الصين عام ١٨٥٣، عندما هاجت الرياح فى وسط البحر، وكادت تحدث كارثة. ورأى «تيلور» إنه لا يكون أميناً لله لو لبس حزام الحياة، فأعطى حزام نجاته لمسافر آخر. غير أنه اكتشف خطأه فى ما بعد، فقال: «إن استخدام الوسائل لا يقلِّل إيماننا بالله، كما أن إيماننا بالله لا ينبغى أن يعطل استخدام أية وسيلة أعطاها لنا لتنفيذ غرضه».

وواضح أن الله لا يضع كل أولاده فى قالب إيليا، ويزوّدهم بطعامهم عن طريق الملائكة أو الغربان، بل يعطيهم إياه من خلال الطريق الطبيعى من الفلاحين والتجار والصيادين والجزارين. وهو يحثنا على ضرورة الإيمان والثقة بأبينا السماوى، وهذا ليس إيماننا ساذجاً ولا

(١) مرجع سابق؛ Luther, P. 209

مبتذلاً ولا يناقض العلم المعاصر.

ثانيا، إن المؤمنين لا يستثنون من مسئوليتهم تجاه الآخرين. وأقول هذا فيما يخص مشكلة العناية الإلهية - لا مشكلة العلم. فإن كان الله قد وعد أن يطعم أولاده ويلبسهم، فلماذا نرى كثيرين يعانون من أمراض الجوع ويلبسون ملابس مهلهلة لا تحميهم من البرد؟

لا يمكن أن نقول إن الله يهتم بخاصته فقط، وإن هؤلاء الفقراء الذين يعوزهم الطعام والكساء غير مؤمنين وخارج دائرة عائلته، فبالتأكيد هناك كثيرون من المؤمنين يعيشون فى مناطق فقيرة. بل تحت خط الفقر. ولا أظن أن مثل هذا القول يمثل حلاً بسيطاً لهذه المشكلة. **لكن هناك نقطة هامة ينبغى أن ننتبه إليها، وهى أن معظم أسباب الجوع ليست نتيجة نقص إمداد الله لنا بالطعام، لكنه سوء التوزيع من الجانب البشرى.** ويقول الواقع إن الله جهز مصادر هائلة للطعام والكساء فى الأرض والبحر. فالأرض تخرج غلتها، والطيور والحيوانات والأسماك تتكاثر. إلا أن الإنسان إما أفسد هذه المصادر، أوضاعها، أو اختزنها لنفسه ولم يشارك فيها الآخرين. ومن الأهمية أن نعرف أنه فى ذات إنجيل متى الذى يقول المسيح فيه أن أبانا السماوى يطعم أولاده ويلبسهم، ويقول بعد ذلك إنه ينبغى علينا أن نطعم الجياع ونلبس العراة، وسوف نعطى حساباً عن ذلك. ومن المهم أن نجعل الكتاب المقدس يفسر نفسه، **فكون الله يطعم أولاده ويلبسهم - لا يجعلنا نعفى أنفسنا من مسئولية أن نكون الأداة التى يصنع بها الله هذه الأمور.**

ثالثاً، المؤمنون لا يستثنون من اجتياز الضيق.

صحيح أن المسيح أوصى أولاده أن لا يقلقوا، لكن عدم وجود القلق ليس معناه عدم وجود الضيق، فقد أوصانا أن لا نقلق، لكنه لم يعدنا بأن نكون محصنين ضد كل متاعب الحياة، بل على العكس، فقد قال: «فى العالم سيكون لكم ضيق» (يو ١٦: ٣٣). وبالرغم من أن الله يلبس عشب الحقل، إلا أن العشب يقطع ويحرق. ومع أن الله يحمى العصافير الكثيرة العدد والقليلة القيمة، حتى أن عصفورين كانا يباعان بفلس (مت ١٠: ٢٩) وخمسة تباع بفلسين (لو ١٢: ٦)، أى أن هناك عصفوراً يعطى بدون ثمن (على البيعة)، ألا أن المسيح يقول: «وواحد منها لا يسقط على الأرض بدون أبيكم (أى بدون إرادة أبيكم)» (مت ١٠: ٢٩)، إلا أن العصافير تسقط على الأرض وتموت. فالوعد هنا ليس أنها لن تسقط، لكن أن سقوطها لن يحدث بدون معرفة الله وإرادته...

وهكذا يسقط الناس والطائرات. ولا يمكن أن نفهم كلمات المسيح على أنها وعد بأنه سيلغى

الجاذبية الأرضية، بسببنا، فى الحالات الطارئة، فإن الله يعرف الحوادث ويسمح بها.

وفى نهاية هذا الجزء، يقدم لنا المسيح سبب عدم قلقنا على الغد: «يكفى اليوم شره» (عدد ٣٤). إذا هناك مضايقات وشرور (Kakia, "evil"). وعدم وجود قلق فى حياة المؤمن، ليس نتيجة ضمان عدم وجود مضايقات، لكن ما يطلبه منا هو عدم وجود حماقة وجهل. فالاهتمام (الذى سنتحدث عنه فيما بعد)، وثقتنا أن الله أبونا، حتى إن سمح بالألم، يعنى أننا دوماً موضع عنايته (أى ٢ : ١٠)، وأنه يعمل فى كل الأشياء لخير الذين يحبونه، الذى هم مدعوون حسب قصده (رو ٨:٢٨).

هذا هو الضمان الذى احتمى به د. «هيملوث ثيليك» وهو يلقى سلسلة موعظة عن «الموعظة على الجبل» فى كنيسة القديس مرقس فى شتوتجارت (ألمانيا)، أثناء الأيام العصيبة بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٦-١٩٤٨)، فقد كان يشير كثيراً إلى صرخات الناس من جراء وابل نيران القنابل التى أسقطها عليهم الحلفاء، فسببت الدمار والموت، فقال: «ما الذى قصده المسيح بقوله «لا تهتموا للغد» فى مثل هذه الظروف؟.. نحن نعلم منظر وصوت البيوت، وهى تنهار تحت وطأة النار. لقد رأينا بعيوننا الناس تشتعل، وسمعنا بآذاننا صوت الانهيارات والصراخ. وأمام هذا، ألا تبدو كلمات الرب «انظروا إلى طيور السماء وزنابق الحقل» إنها جوفاء؟! أعتقد أنه يجب أن نقف ونستمع إلى المسيح الذى كانت حياته على الأرض مثل حياة الطيور أو زنابق الحقل، وهو يتحدث عن عدم قلق الطيور أو زنابق الحقل.. ألم تظهر أمامه فى الأفق وهو يلقى (الموعظة على الجبل) ظلال الصليب القتمة؟»[١] **أوليس من المنطقى إذاً أن نثق فى أبينا السماوى، حتى فى اللحظات الكئيبة الصعبة، لأنه كان لنا امتياز رؤيتها معلنة فى المسيح وفى صليبه؟**

لذلك لم يعد المسيح أولاد الله أن يتحرروا من العمل، ولا من المسئولية، ولا من القلق. لكن عليهم ألا يقلقوا، لأن القلق لا يتفق مع إيمانهم المسيحى.

٣- القلق لا يتفق مع النظرة السليمة للأمور (عدد ٣٤)

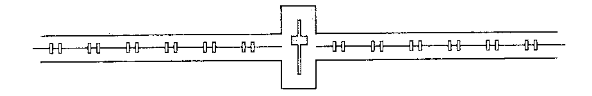
بعد أن تكلمنا عن مشاكل الإيمان، تعالوا بنا نعود إلى مشكلة القلق. ونلاحظ أن القلق لا يتفق مع النظرة السليمة للأمور، كما أنه لا يتفق مع الإيمان المسيحى. وفى (عدد٣٤) يذكر المسيح «اليوم» و«الغد» وينصب كل الاهتمام أو القلق على «الغد»، سواء كان بالنسبة

(١) مرجع سابق؛ Thielicke. PP. 124, 134

للطعام أو الكساء أو أى شئ آخر. ويجتاز إنسان «اليوم» قلق «الغد». فعندما نقلق، نصاب بإحباط فى «الحاضر» عن بعض الأمور التى قد تحدث فى المستقبل. إلا أن هذه المخاوف الخاصة «بالغد»، والتى نحسها «اليم»، قد لا تحدث. والنصيحة العامة: «لا تقلق، فقد لا يحدث ما تقلق بخصوصه». وهى نصيحة لا تتعاطف مع الشخص القلق، لكنها سليمة تماماً، فقد يقلق الناس بخصوص عدم وجود وظيفة، أو عدم نجاح فى امتحان، أو بالنسبة للزواج. لكن كل هذه أوهام كما يقولون: «الخوف قد يكون كاذباً»، وهو غالباً ما يكون كذلك. وكثير من القلق، بل لعل أغلبه، لا يتحقق.

لذلك، فالقلق ضياع للوقت والفكر السليم والطاقة النفسية. ويجب أن نتعمل أن نحيا يوماً بيوم. بالطبع ينبغى أن نخطط للمستقبل، فلا نقلق من جهته، كما قيل: لأن «مشاكل يوم واحد تكفى ليوم واحد» (حسب ترجمة JBP)، أو «كل يوم فيه مشاكل تكفيه» (حسب ترجمة NEB). إذا لماذا نتوقع المشاكل؟ إن توقعنا لها يضاعفها، لأنها إن لم تتحقق؛ نكون قد أصبنا بالقلق على لا شئ. وإن تحققت؛ نكون قد قلقنا مرتين بدلاً من مرة واحدة، مرة قبل حدوثه وثانية بعد حدوثه! وفى الحالتين نحن أغبياء؛ لأن القلق يضاعف الكدر.

دعونا الآن نلخص كلمات المسيح عن الطموح العالمى الكاذب. **فعندما ننشغل بالأمور المادية بطريقة تستحوذ على انتباهنا، وتمتص أوقاتنا، وتصيبنا بالضيق والقلق؛ نكون قد ناقضنا الإيمان المسيحى والنظرة السليمة للأمور. فالقلق يعنى عدم ثقة فى الآب السماوى، كما أنه غباء مطلق، وهو ما يرتكبه الوثنيون. لكنه لا يتفق مع طموح المؤمنين. وكما سبق ودعانا المسيح فى «موعظة الجبل» إلى بر أعظم، ومحبة أوسع، وشفقة أعمق، يدعونا الآن إلى طموح أسمى.**



ثانيا: الطموح المسيحى الصحيح: يطلب «ملكوت الله وبره»

من المهم أن ندرس (الأعداد ٣١-٣٣) معاً. (فعدد ٣١) يكرر ما حرمه الرب من أن نهتم بالطعام والشراب واللباس. ويضيف (عدد ٣٢) أن هذه كلها تطلبها الأمم. لذلك يستخدم المسيح «لا تطلبها»، و«تهتم» بالتبادل مع بعضها، وهو يتكلم عن «الاهتمام» أقل مما يتكلم عن «الطموح».. فطموح الأممى يركز على الاحتياجات المادية، لكن لا ينبغى أن يكون هذا هو طموح المؤمن، لأن الآب السماوى أول كل شئ يعرف حاجة المؤمن. وثانياً، لأن هذه الأشياء لا تستحق أن يقلق المؤمن بشأنها، فهويهتم بشئ آخر أسمى، ليس هو الشئ المادى، إنما هو كل ما له قيمة روحية. ولا يهتم المؤمن بأشياء ذاتية، بل بأشياء إلهية: لا طعام وثياب، بل ملكوت الله وبره. وهذا نفس ما ورد فى الصلاة الربانية، لكن باستفاضة. وعلى هذا، فعلى المؤمن أن يدرك حاجات الجسد: «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم»، بالرغم من أن أولويات المؤمن تنصب على اسم الله وملكوته ومشيئته.. ولا نستطيع أن نصلى الصلاة الربانية، بدون أن تتنقى طموحاتنا. لقد طلب منا الرب أن نطلب أولاً ملكوته وبره. وفى الصلاة الربانية نحن نتوسل من أجل هذا الطلب السامى.

١- اطلبوا أولاً ملكوت الله

عندما تكلم المسيح عن ملكوت الله، لم يكن يشير إلى سلطانه المطلق على التايخ والطبيعة، بل كان يتكلم عن سلطانه الخاص على خاصته. هذا هو الملكوت الذى دشنه بنفسه، والذى يبدأ فى حياة كل إنسان يتضع ويتوب ويؤمن ويولد ثانية. وملكوت الله هو سيادة المسيح على شعبه، فيباركهم ويسدد احتياجاتهم. **وطلب هذه الملكوت، أولاً، معناه أن تكون رغبتنا الملحة هى انتشار ملك الفادى.** وتبدأ هذه الرغبة فى أنفسنا، فيخضع كل جزء من حياتنا بسرور للمسيح: بيوتنا، وزواجنا، وعائلتنا، وأخلاقنا، وأعمالنا، وحسابنا فى البنك، وطريقة الحياة، وجنسيتنا. وهذا الأمر سيتغلغل إلى الدائرة المحيطة بنا، عندما نقبل مسئولية الكرازة لأقربائنا وزملائنا وجيراننا وأصدقائنا. وسوف يصل إلى العالم كله من خلال كرازة الكنائس.

وهنا، يتضح لنا الدافع وراء الكرازة. فلماذا نريد أن ينتشر الإنجيل فى العالم؟ **لا لأننا نريد أن نؤسس إمبراطوريات لذواتنا، سواء لكنيستنا أو حتى للمسيحية، ولا لأن الكرازة هى جزء من طاعتنا المسيحية (وهى بالطبع جزء)، ولا لنجعل غيرنا**

سعداء (وهى بالطبع تسعدهم)، لكننا نكرز بالمسيح لأننا نبغى أولاً مجد الله والمسيح.

إن الله ملك، ولقد أعلن ملكه بواسطة عمل المسيح المخلص، ولله الحق فى أن يملك على خليقته.. وطموحنا هو أن نطلب أولاً هذا الملكوت، وأن تكون رغبتنا الخالصة هى أن يتمجد اسمه بالمجد اللائق به. وإن كنا ذكرنا أولويات أهتماماتنا بملكوت الله، هنا والآن، لكن علينا أن لا نبعد النظر عن هدفه فيما وراء التاريخ، لأن استعلان ملكوته الآن هو استعلان جزئى. وقد تكلم المسيح أيضاً عن ملكوت المجد فى المستقبل، وأوصانا أن نطلبه فى صلواتنا «ليأت ملكوتك».. لذلك اطلبوا أولاً اكتمال فى هذا الملكوت فى نهاية الزمن، عندما يوضع أعداء الملك تحت قدميه ويكون ملكه ملكاً أبدياً.

٢ـ اطلبوا أولاً بر الله

ليس واضحاً لماذا فرق الرب بين «ملكوته» و«بره» كما لو كانا أمرين منفصلين فى أولويات طلب المؤمن. فملكوت الله هو ملكوت بر، وقد علمنا المسيح فى مطلع موعظته هذه أن نعطش ونجوع إلى البر، وأن نكون مستعدين لأن نطرد من أجل البر، وأن يزيد برنا على بر الفريسيين. والآن يطلب منا أن نطلب، أولاً، بر الله بالإضافة إلى ملكوته.

دعونى أقدم لكم فكرةعن الفرق بين «ملكوت الله» و«بر الله»: يوجد «ملكوت الله»، فقط، عندما يقبل الإنسان المسيح مخلصاً. والتمتع بالخلاص مرادف للوجود فى ملكوت الله، فالمولود ثانية هو الوحيد الذى يرى ملكوت الله ويدخله. وطلب ملكوت الله، أولاً، معناه أن ننشر إنجيل الخبر السار الذى هو الخلاص فى المسيح.

إلا أن «بر الله» يشمل دائرة أوسع من ملكوت الله (وهذا فكرى القابل للرفض أو الـ بول)، فالبر فردى واجتماعى معاً، كما أشار الرب فى بداية «الموعظة على الجبل». والله، لأنه هو نفسه إله البر، يطلب البر فى كل المجتمعات الإنسانية، وليس فقط فى المجتمع الكنسى أو المسيحى.. ولقد كان أنبياء إسرائيل يتددون بالظلم ـ لا فى المجتمع اليهودى فحسب بل بين الأمم أيضاً، فالنبى عاموس مثلاً حذر من أن دينونة الله ستنصب على أرام وفلسطين وصور وأدوم وعمون وموآب؛ بسبب قساوتهم فى الحروب وشرهم العظيم. ووجه هذا التحذير أيضاً إلى شعب الله. إن «ميثاق لوزان» الذى تم توقيعه فى مؤتمر الكرازة العالمى فى يوليو ١٩٧٤ يحوى مادة عن مسئولية المسيحيين الاجتماعية، تبدأ بالكلمات: «نؤكد أن الله هو الخالق والحاكم معاً

اهتمامه بالعدل والمصالحة من فى كل المجتمعات البشرية» (We affirm that God is both the creator and the Judge of all men. We there for should share His Concern for Justice and Reconciliation throughout human Society. The Lausanne Covenent).

ومن أهداف الله للمجتمع المفدى الجديد أن يجتذب الناس إلى بره، من خلال حياتهم الشخصية، والعائلية، والمهنية، والقومية، والدولية. وسيرى الناس، خارج ملكوت الله. هذا البر فى شعبه، فيطلبونه، فيغطى بر ملكوت الله من خلال المومنين العالم غير المسيحى. وعمق وجذور بر الله فى قلب الإنسان، الذى تتحدث عنه «الموعظة على الجبل» لا يتم إلا فى قلب الشخص المولود بالنعمة، ولو أن بعض هذا البر قد يصل إلى مجتمع غير المؤمنين، ويظهر فى حياة أفراده من خلال المبادئ الأخلاقية السامية.

لكل كل مؤمن يجب أن يذهب إلى عمق أكبر؛ ليرى الناس وقد أصبحوا جزءاً من ملكوت الله بإيمانهم بالمسيح. وفى ذات الوقت، لا نخجل من أن ننشر البر خارج ملكوت الله، فالله سيسر عندما يرى البر بدلاً من الخطية، والعدل بدلاً من الظلم، والحرية بدلاً من القهر، والمحبة بدلاً من العداوة، والسلام بدلاً من الحرب.

إن طلب «ملكوت الله وبره» أولاً، معناه أن نقوم بمسئوليتنا المسيحية الكرازية والاجتماعية، كما يفعل الملح والنور (مت ٥). ولكى نطلب أولاً، ملكوت الله، علينا أن نكرز، لأن الملكوت لا ينتشر إلا بواسطة الكرازة بالإنجيل، فيسمع الناس ويؤمنون ويطيعون. ولكى نطلب أولاً، بر الله، علينا أيضاً أن نظل كارزين، لأن البر الداخلى فى القلب لا يتم إلا بواسطة قبول الكلمة. لكن علينا أيضاً أن ننشغل بالعمل الاجتماعى، ونجتهد أن ننشر فى المجتمع مقاييس سامية للبر ترضى الله.

إذا ما هو طموحنا المسيحى؟..

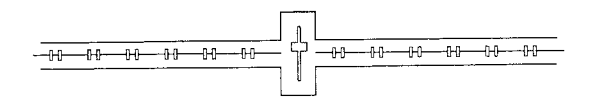
لكل شخص ليعمل شيئاً ما، أو ليصير شيئاً ما. وهذا الطموح يلازم الإنسان من الصغر، فالطفل يطمح أن يكون طياراً أو رجل فضاء أو مهندساً أو طبيباً. والشاب يريد فى طموحه أن يكون غنياً مشهوراً قوياً. لكن، فى النهاية، لا يكون طموح البشر إلا فى أمرين: الطموح الزائف والطموح الحقيقى، الدنيوى والمسيحى، المادى والروحى، الكنز الذى على الأرض والكنز الذى

فى السماء، الطعام والملابس بالمقارنة مع ملكوت الله وبره. لكن وراء كل هذه المقارنات، مازالت هناك مقارنة جوهرية. فكما أن هناك نوعين من (الصدقة): الصدقة التى تركز على الذات، والأخرى التى تتجه إلى الله، هكذا هناك نوعان من (الطموح): أحدهما يتجه إلى الذات، والآخر يتجه إلى الله. ولا يوجد نوع ثالث.

والطموح الذاتى قد يكون معتدلاً، عفيفاً فى الطعام والشراب والملابس كما فى «الموعظة على الجبل». أو قد يكون طموحاً عالياً، كطلب منزل أفخم، وسيارة أحدث، ومرتب أعلى، وشهرة أوسع، وسلطة أعظم. لكن سواء كان الطموح معتدلاً أو عالياً، فهو طموح ذاتى، يطلب «راحتى، وثروتى، ومكانتى».

إلا أن الطموح الذى يتجه إلى الله، لا يمكن أن يكون معتدلاً. فكيف نكتفى بأن يكون نصيب الله من المجد فى عالمنا قليلاً؟ فما أن يتضح لنا أن الله ملك، نتطلع أن نراه مكللاً بالمجد والكرامة، وقد تبوأ المكانة المجيدة اللائقة به، وسنصبح طموحين لانتشار مجده وبره فى كل العالم.

وعندما يكون هذا هو طموحنا الدائم بحق، لابد أن هذه كلها تزاد لنا، ونحصل على كل الاحتياجات الأساسية، ولا يكون هناك أى حذر من أن تكون لنا طموحات ثانوية، لأنها ستكون خاضعة لطموحنا الروحى الأساسى - لا منافسة له، فتكون طموحاتنا الثانوية صحية. **فعلى المؤمن أن يجتهد لينمى مواهبه، فتتسع أمامه الفرص، ويرتقى فى عمله، ويمتد نفوذه - لا ليتكبر وينتفخ ويبنى إمبراطوريته الخاصة، لكن ليتمجد الله من كل شئ فى حياته. فليس هناك خطأ أن تكون طموحاتنا قليلة، بشرط أن لا تكون هى الغاية فى حد ذاتها، بل تكون وسيلة لغاية أسمى هى انتشار ملكوت الله وبره، ومجد الله. وهذا هو «الخير الأسمى» الذى نبحث عنه، أولاً، فليس هناك غيره.**



الباب السابع

علاقة المسيحي : بإخوته وأبيه

[أصحاح ٧ : ١ ـ ١٢]

يتكون (مت ٧) من مجموعة أفكار تبدو غير مترابطة، كما يبدو هذا الأصحاح وكأنه غير مترابط فكرياً مع الأصحاحين السابقين. ولهذا، ظن كثيرون من المفسرين أن هذا الأصحاح عبارة عن أجزاء قيلت فى مناسبات مختلفة، وجمعها «متى» معاً فى سياق غير متجانس. إلا أنى أظن أن مثل هذا الاستنتاج ليس فى محله، فالخيط الرفيع الذى يسير فى هذا الأصحاح (بالرغم مما يبدو من تفككه بعض الشئ) هو أنه يتكلم عن العلاقات. ويبدو أنه من المنطقى بعد أن تم استعراض صفات المؤمن وتأثيره وبره وعمل رحمته وطموحه، أن يركز المسيح أخيراً على علاقات المؤمن. فالأخلاق المسيحية المناقضة للحضارة المحيطة ليست فردية فحسب، لكنها ترتبط بالآخرين. والعلاقات داخل المجتمع الكنسى والعلاقات مع المجتمعات الأخرى فى منتهى الأهمية. وفى إنجيل متى (أصحاح ٧) يقدم لنا الرب شبكة من العلاقات، علينا أن نعيشها باعتبارنا من أتباع المسيح. ونستطيع أن نلخصها فى ما يلى:

[١] **بالنسبة لأخينا الذى نرى فى عينه قذى**، تقع علينا مسئولية مساعدته - لا إدانته (الأعداد ١-٥).

[٢] **بالنسبة للناس الذين وصفهم المسيح الوصف المفزع أنهم «كلاب» و«خنازير»**، هم بشر يحملون صفات وطبيعة حيوانية نحترس من مشاركتهم فى الإنجيل (الأعداد ٦).

[٣] **بالنسبة لأبينا السماوى الذى نأتى إليه مصلّين**، نثق أنه لا يعطينا إلا كل ما هو صالح (الأعداد ٧-١١).

[٤] **بالنسبة لكل الناس، ينبغى أن تتحكم القاعدة الذهبية فى أفكارنا وسلوكنا معهم** (الأعداد ١٢).

[٥] **بالنسبة لعلاقتنا بالمتغربين الذين يسيرون معنا فى الطريق الضيق** (الأعداد ١٣-١٤).

[٦] **بالنسبة للأنبياء الكذبة الذين نعرفهم، ينبغى أن نتحذر منهم** (الأعداد ١٥-٢٠).

[٧] **بالنسبةللمسيح، يجب أن نخضع لتعاليمه ونحفظها ونطيعها** (الأعداد ٢١-٢٧).

١. موقفنا تجاه إخوتنا
(١-٥)

«[١]لا تدينوا لكى لا تدانوا. [٢]لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم. [٣]ولماذا تنظر القذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها. [٤]أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها الخشبة فى عينك. [٥]يامرائى أخرج أولاً الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك».

لم يتوقع المسيح أن يكون المجتمع الكنسى خالياً من الأخطاء والعيوب، بل على العكس تماماً، فقد توقع أن تكون هناك بعض الأخطاء التى قد تؤدى إلى خلق توتر بين الجماعة، أو مشاكل فى العلاقات. فكيف يجب أن يتصرف المؤمن تجاه عضو فى الجسد يسلك سلوكاً غير سليم؟

لقد أعطى المسيح توجيهاته عن التهذيب داخل الجماعة. وفى حديثه، فى هذا الصدد، نهانا عن أمرين، وأوصانا بأمر واحد أفضل، هو الطريقة المسيحية.

أ) المؤمن لا يجب أن يدين (العددان ١، ٢)

إن قول المسيح: «لا تدينوا لكى لا تدانوا» قول محفوظ ومعروف لأغلب المسيحيين، لكن بكل أسف أسئ فهمه، فقد كتب الأديب الروسى «تولستوى» عن فهمه لهذه الآية يقول: «على المؤمن أن يمتنع عن الذهاب إلى المحاكم البشرية». وعلينا أن نرفض مثل هذا الاعتقاد، فحديث الرب عن عدم إدانة الآخرين لم يقصد به ما قاله «تولستوى»، لأن القرينة لا تتحدث عن الدينونة أمام المحاكم، لكن عن مسئولية الأفراد تجاه بعضهم البعض.

ولا يجب أن نفسر هذه الوصية بمعنى تجنب استخدام ملكة النقد التى أعطاها الله لنا، للتمييز والنقد البناء للآخرين، فنغمض أعيننا عن أخطائهم كأننا لا نلاحظهم، ونتجنب كل انتقاد، ونرفض التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ، وما هو خير وما هو شر. ولكن: ما الذى يجعلنا نتأكد أن المسيح لم يقصد هذه الأشياء؟

أولاً، إنه ليس من الأمانة أن نسلك مثل هذا السلوك، فهو نوع من النفاق، وواضح من هذا الجزء ومن أجزاء أخرى فى الكتاب المقدس كراهية الرب للمرائى محبته للمستقيمين.

ثانياً، مثل هذا السلوك يتناقض مع الطبيعة التى خلقها الله فى الإنسان، والتى هى على صورته، ومنها قدرتنا على أن نصدر أحكاماً صائبة.

وهناك أمر آخر، هو أن تعليم المسيح فى «موعظة الجبل» يفترض أننا نستخدم ملكات النقد التى أودعها الله فينا. لقد سمعناه يكرر دعوته لنا لنكون مختلفين عن العالم من حولنا، وأن يزيد برنا عن بر الفريسين، وأن نعمل أكثر مما يفعله الآخرون بمقاييس المحبة المختلفة، فلا نكون مثل المرائين فى صدقتهم، ولا مثل الوثنيين فى طموحاتهم. فكيف يمكننا أن نطيع مثل هذه الوصايا، إن لم نقوم أولاً سلوك الآخرين، فنتأكد أن سلوكنا يختلف عنهم ويسمو على سلوكهم؟

ثم أن هذه الوصية «لا تدينوا» متبوعة بوصيتين: «لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير» (عدد ٦)، ووصية «احترزوا من الأنبياء الكذبة» (عدد ١٥). ومن المستحيل أن ننفذ هاتين الوصيتين، بدون أن نستخدم ملكة النقد التى فينا، فلكى نقرر عدم الكلام مع «الكلاب والخنازير»، ونحترز من «الأنبياء الكذبة»، علينا أولاً أن نكون قادرين على التعرف عليهم. ولنتمم ذلك، علينا أن نمارس ملكة النقد والتمييز التى فينا.

فإن كان المسيح لم يقصد من هذه الوصية أن نتحاشى المحاكم البشرية، أو أن يمنع النقد، فما الذى كان يقصده من وصية «لا تدينوا»؟

أقول: لقد كان يعنى النقد الهدام. إن أتباع المسيح ناقدون، بمعنى أنهم يستخدمون ملكة التمييز، فلا يدينون الآخرين نقداً يهدمهم، وبأسلوب يهدمهم. فالانتقاد الهدام خطية مركبة من عدة خطايا بغيضة، فالمنتقد الهادم يبحث عن أخطاء الآخرين، ويقف موقفاً سلبياً هداماً تجاههم، ويستمتع بالبحث عن أخطائهم، ويحاول أن يفسرها باعتبارها نابعة من أسوأ الدوافع، ويحاول أن يسفه مخططاتهم، ولا يظهر شهامة تجاههم عندما يخطئون. لكن الأسوأ من هذا، أن المنتقد الهدام يجلس نفسه فوق كرسى عالٍ، ويدعى لنفسه سلطة وأهلية الحكم على زميله.

ويمثل هذا العمل، يضع نفسه كما يضع زميله فى وضع خاطئ. فمنذ متى كان المنتقد عبداً مسئولاً أمام المنتقد؟! ومنذ متى كان المنتقد سيداً عليه ليحكم عليه؟ وتتشابه النصيحة الرسولية مع أمر المسيح، إذ تقول: «من أنت الذى تدين عبد غيرك؟ هو لمولاه يثبت أو يسقط» (رو ١٤ : ٤).

وقد طبق الرسول بولس ذات الحق على نفسه، عندما وجد نفسه محاطاً بنقد من أعدائه، فقال: «لكن الذى يحكم فى هو الرب. إذاً لا تحكموا فى شئ قبل الوقت حتى يأتى الرب الذى ينير خفايا الظلام ويظهر آراء القلوب» (١كو ٤ : ٤، ٥).

فالنقطة البسيطة الجوهرية التى يبرزها الرسول بولس، هى أن الإنسان ليس هو الله، ولا يوجد إنسان مؤهل ليدين زميله الإنسان، لأننا لا نستطيع أن نقرأ ما فى القلوب أو نعرف دوافع الآخرين. فإن كنت دياناً؛ فإنك إنسان متكبر، تريد أن تغتصب حق الله فى الدينونة، وتقيم يوم دينونة فى وقت غير مناسب، وتحاول أن تلعب دور الله.

ونحن لسنا ديانين، لأننا بين المدانين، وسوف ندان، وتكون دينونتنا عسيرة، إن كنا قد تجرأنا وأدنا الآخرين: «لا تدينوا لكى لا تدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم». والمنطق هنا واضح، فإن كنا نأخذ مكان الإدانة فلا نستطيع أن ندعى الجهل بالقوانين التى سنطبقها. وإن كنا نستمتع بأن نعتلى منصب القضاء، فلا يجب أن نستغرب إن وجدنا أنفسنا فى قفص الإتهام، لذلك يقول الرسول بولس: «أنت بلا عذر أيها الإنسان كل من يدين لأنك فى ما تدين غيرك تحكم على نفسك لأنك أنت الذى تدين تفعل تلك الأمور بعينها» (رو ٢ : ١). وقال الرسول يعقوب: «لا تكونوا معلمين كثيرين يا إخوتى عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم» (يع ٣ : ١).

فالوصية «لا تدينوا» ليس معناها أن نتعامى عن الأخطاء، لكنها دعوة لنكون أسخياء مع الآخرين، فلم يدعنا الرب ليمحو إنسانيتنا بأن ننسى ملكاتنا الطبيعية التى تميزنا عن الحيوان، بل دعانا لنرفض الطموح المتغطرس الذى يجعلنا نلعب دور الله فى إدانة الآخرين.

ب) المؤمن ليس مرائياً (٣، ٤)

«[٣]ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها.
[٤]أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها الخشبة فى عينك».

لقد تكلم المسيح بهذا المثل الصغير حول الأجسام الغريبة فى أعين الناس، مثل ذرة تراب، أو «قذى» من جانب، و«خشبة» من جانب آخر، وقد دعاهما «جيمس موفات» «شظية» و«خشبة». وقد سبق أن أشار المسيح إلى ريائنا فى علاقتنا بالله، عندما نظهر الشفقة على الآخرين ليرانا الناس. والآن يظهر رياءنا فى علاقتنا بالآخرين، عندما نتحرش بهم (وهذا ليس من حقنا)، عندما يرتكبون زلات صغيرة، ولا ندين نفوسنا على الخطايا الكبيرة التى نرتكبها نحن.

ولعنا نرى، هنا، سبباً آخر يجعلنا غير مؤهلين للدينونة، لا لأننا بشر ولسنا آلهة فقط، لكن لأننا بشر ساقطون، وقد جعل السقوط الجميع خطاة، فلسنا فى وضع يجعلنا نعتلى منصة القضاء، وندين رفقاءنا الخطاة، ولا نحن مؤهلون لهذا، فأمامنا صورة شخص يحاول جاهداً ليجرى عملية دقيقة ليزيل (قذى) من عين صديق له، بينما هو يعانى من وجود (خشبة) كبيرة فى عينه تحجب عنه الرؤية! أليست هذه صورة مضحكة؟

ولكننا عندما نطبق هذه الصورة الكاريكاتورية علينا، سنحاول أن نرفض هذه الفكاهة، لأن فينا ميلاً قاتلاً أن نضخم أخطاء الآخرين، ونقلل حجم أخطائنا. **ويبدو أنه من المستحيل عندما نقارن أنفسنا بالآخرين، أن نكون منصفين وموضوعيين، بل على العكس، فإننا نكون صورة وردية عن أنفسنا، وصورة تصغيرية للآخرين، بل إننا نرى أخطاءنا فى الآخرين، وندينهم بدلاً من أن ندين أنفسنا، وبهذا الأسلوب نختبر لذة البر الذاتى بدون ألم الندم والتوبة**، لذلك يقول المسيح لنا: «يا مرائى» (عدد ٥)، وهى كلمة مفتاحية فى حديث المسيح هذا.

إلا أن هذا النوع من الرياء، له بعد أكبر من هذا، فإخراج قذى من عين أحد عمل يبدو وكأنه من أعمال الشفقة، ولكنه يستغل لإظهار ذواتنا وإعلاء نفوسنا. لذلك، قال «أ.ب.بروس»:

«الانتقاد خطية فريسية، فيها نرفع شأن نفوسنا باحتقار الآخرين والاستهانة بهم، وهى طريقة رخيصة جداً للحصول على رفعة أخلاقية»[١].

وقد روى المسيح مثل الفريسى والعشار تعليقاً على هذه الحقيقة، فقد قاله «لقوم واثقين بأنفسهم أنهم أبرار ويحتقرون الآخرين» (لو ١٨: ٩). وما فعله الفريسى هو أنه تكلم بصوتٍ عالٍ، وعقد مقارنة غير سليمة، من خلالها عظم فضائله، وحقر من شأن العشار.

إذاً، علينا، على الأقل، أن نطبق القواعد والأحكام على أنفسنا، كما نطبقها على الآخرين، «لأننا لو كنا حكمنا على أنفسنا لما حكم علينا» (١كو ١١: ٣١). فنحن لن نهرب من دينونة الله، إن لم نساعد الآخ المخطئ باتضاع ووداعة، لكن بعد أن نكون قد أخرجنا الخشبة من أعيننا، لنقدر أن نرى بوضوح القذى الذى فى عيون إخوتنا.

ج) على المؤمن أن يكون أخاً (عدد ٥)

> «يا مرائى، أخرج أولاً الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيداً أن تخرج القذى من عين أخيك».

يعتقد بعض الناس أنه فى مثل القذى الذى فى العين، منع المسيح المؤمن من أن يعمل كطبيب عيون روحى أو أخلاقى، وأمره ألا يتدخل فى عين أحد، بل يعالج نفسه فقط، لكن الوضع ليس كذلك، فقد منع المسيح الدينونة والرياء، لكن ليس معنى هذا أن نهرب من مسئوليتنا الأخوية تجاه بعضنا البعض، بل على العكس، فقد علم يسوع بعد إلقاء «موعظة الجبل» قائلاً: «إن أخطأ إليك أخوك» (مت ١٨: ١٥). فالواجب الأول بالنسبة لى، وبالرغم من أن الناس لا يمارسونه، أن أذهب وأعاتب أخى المخطئ بينى وبينه وحدنا. ويلزمنا المسيح فى ذات الوقت أن لا نفعل هذا، حتى نزيل الخشبة من عيننا أولاً. فإن كانت عيننا بصيرة، يوصينا المسيح أن نعاتب أخانا لنصالحه، لأننا نقدر أن نرى بوضوح، فنتعامل مع مشاكل الآخرين بكفاءة، لأن ذرة تراب فى عين الآخ هى جسم غريب ليس منه، وعادة يكون مؤلماً وأحياناً خطيراً. فإذا تركته ولم تبذل أى محاولة لأخراجه، تكون قد كسرت شريعة المحبة الأخوية.

---

(١) مرجع سابق Brouce, P. 138

فمسئوليتنا المسيحية، إذاً، هى أن نرى القذى فى عيون إخوتنا، فى ذات الوقت الذى فيه نلاحظ الخشبة التى فى عيننا (عدد ٣)، وأن لا نقول لإخوتنا: «دعونا نخرج القذى من عيونكم»، دون أن نخرج نحن، أولاً، الخشبة من عيوننا (عدد ٤). ومسئوليتنا هى أن نخرج الخشبة أولاً من عيوننا، وعندئذ نرى بجلاء ونقدر أن نخرج القذى من عيون إخوتنا (عدد ٥).

وواضح، هنا، أن المسيح لم ينتقد الدينونة فى حد ذاتها، لكى انتقد نقد الآخرين، عندما لا نمارس نحن النقد الذاتى. ولم يمنع المسيح إصلاح الآخرين، لكنه منع محاولة إصلاح الآخرين، قبل أن نصلح أنفسنا أولاً.

ومقاييس المسيح للعلاقات فى الصفات المسيحية التى تختلف مع الحضارة والثقافة المحيطة، هى مقاييس وسامية وصحية. فى كل اتجاهاتنا وسلوكنا تجاه الآخرين، لا يجب أن نقوم بدور القاضى فندين بحدة، ولا بدور المرائى فننقد الآخرين ونلتمس الأعذار لأنفسنا، بل علينا أن نقوم بدور الأخ الذى يعتنى بالآخرين، فيلوم نفسه ويصلح من أمر نفسه، ثم يبحث عن الآخرين ليعينهم ويساعدهم. **لذلك قال «القديس يوحنا فم الذهب» فى حديثه عن معاملتنا مع الشخص الذى يخطئ: «أصلحه، لكن ليس كعدو» ولا كمذنب يستحق العقاب، بل كطبيب تقدم له الدواء».** لكن، أكثر من هذا، نحن بالنسبة له، كأخ محب شغوف أن يرده ويصلحه. نحن نحتاج أن ننتقد ذواتنا كما ننتقد الآخرين، وأن نعامل الآخرين بسخاء كما نعامل ذواتنا. وعندئذ، سنطبق القاعدة الذهبية التى رسمها لنا المسيح فى (عدد ١٢) «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم»، ونتعامل مع الناس كما نريد أن يعاملونا.

٢. موقفنا تجاه الكلاب والخنازير
(٧ : ٦)

«[٦]لا تعطوا القدس للكلاب ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم».

ما أن نسمع هذه اللغة المفزعة من شفتى المسيح، وخاصة فى «الموعظة على الجبل»، وفور حديثه عن السلوك الأخوى الإيجابى البناء، قد نصطدم بهذه الكلمات لأن المسيح كان يسمى الأمور دائماً بمسمياتها الحقيقية. ومن صراحته أن دعا هيروس أنتيباس «هذا الثعلب» (لو١٣ : ٣٢)، ودعا الكتبة والفريسيين المرائين «قبوراً مبيضة» و«حيات أولاد أفاعى» (مت ٢٣ : ٢٧ ، ٣٣). وهذا يؤكد أن من البشر من يسلكون سلوك الحيوانات، فيحق أن يدعوا «كلاباً وخنازير».

وتقدم لنا القرينة اتزاناً صحيحاً، فإن كان يجب ألا ندين الآخرين ونكشف أخطاءهم بالانتقاد والرياء، علينا أيضاً ألا نتجاهل أخطاءهم ونتظاهر بأن كل الناس سواسية. ويجب أن نتجنب الأمرين. فليس المؤمنون قضاء، لكنهم ليسوا ساذجين أيضاً. وإن أزلنا الخشبة من عيوننا، أولاً؛ نرى القذى الذى فى عين أخينا بوضوح. وإن كان هذا الأخ مؤمناً حقيقياً؛ سيقدر ما فعلناه، ولو أن البعض لن يرحبوا بالانتقاد ومحاولة الإصلاح. وفى سفر الأمثال، هناك تمييز واضح بين الحكيم والجاهل، فهو يقول: «لا توبخ مستهزئاً لئلا يبغضك. وبخ حكيماً فيحبك» (أم ٩ : ٨).

فمن هم «الكلاب» و«الخنازير»؟

بوصف المسيح لهم بهاتين الكلمتين يقول إنهم ليسوا فقط حيوانات - لا بشر، بل هم أيضاً حيوانات ذات عادات قذرة. ولا يقصد المسيح «الكلاب المدللة» التى نربيها فى بيوتنا، لكنه يقصد «الكلاب الضالة» المتوحشة فى الشوارع وسط القاذورات. أما «الخنازير» فهى حيوانات نجسة طقسياً عند لليهود، وهى تحسب التمرغ فى الطين، قال عنها الرسول بطرس المثل الصادق: «كلب قد عاد إلى قيئه وخنزيرة مغتسلة إلى مرغة الحمأة» (٢بط ٢ : ٢٢). والإشارة، هنا، إلى الخطاة الذين لم يتغيروا بعد، ولهم حياة حيوانية جسدانية - لا روحية أبدية. ولقد كان اليهود يدعون الأمم «كلاباً» (مت ١٥ : ٢٦ ، ٢٧ وفى ٣ : ٢ ورؤ ٢٢ : ١٥). إلا أن المؤمنين،

بل تأكيد، لا ينظرون لغير المؤمنين بهذه النظرة، فعلينا أن نتأمل بأكثر عمق ما قصده المسيح بهذه الكلمات.

لقد أوصانا أن «لا نعطى القُدس للكلاب ولا نطرح دررنا قدام الخنازير». والصورة واضحة، فاليهودى لا يجب أن يعطى «الطعام المقدس» للكلاب النجسة (لعله اللحم والقربان الذى قُدِّم لله)، ولا يجب أن يطرح درراً قدام الخنازير، ليس فقط لأنها حيوانات نجسة طقسياً، لكن لأنها قد تظن أن هذه الدرر نوع من الفول أو اللوز. وعندما يحاولون أن يأكلوه يجدونه لا يؤكل، فيدوسونه، وربما هجموا على مقدِّمه .. لكن إن كان هذا المثل واضحاً، فما هو المعنى الكامن فيه؟ وما هى المقدسات؟ وما هى الدرر؟

لقد اعتقد بعض الآباء الأولين أن الإشارة، هنا، إلى مائدة الرب، وبالتالى عدم اشتراك غير المؤمنين وغير المعمَّدين فيها[١].

وأعتقد أن اعتقاد هؤلاء الآباء صحيح، ولكنى أظن أيضاً أن هذه «الدرر» ذات القيمة الكبيرة ترتبط فى هذا المثل مع ملكوت الله أو الخلاص وانتشار الإنجيل. ولا يمكن أن نستنتج من هذا أن المسيح منعنا من الكرازة بالإنجيل للخطاة، فمثل هذا التفسير يهدم كل ما جاء بالعهد الجديد، ويتناقض مع الإرسالية العظمى التى يختم بها متى إنجيله: «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم». ولا يقدر الكلفينيون المتشددون أن يستخدموا هذه العبارات كذريعة لعدم الكرازة، لأن «كلفن» نفسه قال إن واجبنا «أن نقدم تعليمه الخلاصى بدون تمييز للجميع».

«فالكلاب» و«الخنازير» الذين أوصانا المسيح أن لا نطرح قدامهم درر الإنجيل، ليسوا فقط أشخاصاً غير مؤمنين، لكنهم أشخاص كانت أمامهم فرص عديدة ليسمعوا بشارة الإنجيل ويقبلوها، لكنهم رفضوها بثبات وحزم. ويعلق «كلفن» بقوله: «علينا أن نفهم أن وصف الكلاب وخنازير لا ينطبق على كل نوع من الناس الفجّار أو الذين تجردوا من خوف الله وتقواه، لكنه ينطبق على الذين أعلنوا قساوتهم ضد الله، فصار مرضهم الروحى غير قابل للشفاء»[٢].

---

(١) على سبيل المثال يقول الفصل التاسع من تعليم الرسل (Didache) المكتوب ربما فى أوائل القرن الثانى الميلادى: «لا تجعل أحداً يأكل أو يشرب من مائدة الرب إلا الذين اعتمدوا باسم المسيح، لأن الرب قال عن هذه الدرر: لا تعطوا القدس للكلاب».

(٢) مرجع سابق؛ Calvin, P. 349

واستخدم القديس يوحنا فم الذهب مثل هذه التعبيرات فى حديثه عن الكلاب، فقال: «هم أشخاص يعيشون فى فجور غير قابل للشفاء».

وفى أيامنا هذه قال البروفيسور إرميا إن الكلاب والخنازير «هم الذين انغمسوا فى مزالق قذرة وشريرة».

فإن كنت تستمر فى تقديم رسالة الإنجيل، بكل مثابرة لمثل هؤلاء الناس، فإنك بهذا تدعوهم لرفض الإنجيل بنوع من الاستهزاء والتجديف. وقد طبَّق المسيح هذا المبدأ بالنسبة لخدمة تلاميذه الاثنى عشر، عندما أوصاهم فى إرساليتهم الأولى أنه فى كل بلد أو بيت يدخلونه سيجدون من يرحِّب بهم، لكن البعض لن يقبلوهم، وقال: «من لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجاً من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم» (مت ١٠ : ١٤ ولو ١٠ : ١٠ ، ١١).

وقد سار الرسول بولس على هذا المبدأ فى إرساليته، ففى رحلته التبشرية الأولى، قال هو وبرنابا لليهود الذين كانوا يعارضون رسالته فى أنطاكية بيسيدية: «كان يجب أن تُكلَّموا أنتم أولاً بكلمة الله. ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة هوذا نتوجَّه إلى الأمم». وعندما حرك اليهود قادة المدينة ليطردوا بولس وبرنابا، نفضا غبار أرجلهما عليهما وأتوا إلى إيقونية (أع ١٣ : ٤٤-٥١). وحدث مثل هذا فى كورنثوس، فى الرحلة التبشرية الثانية، فقد قاوم اليهود بولس؛ فنفض ثيابه، وقال لهم: «دمكم على رؤوسكم. أنا برئ. من الآن أذهب إلى الأمم» (أع ١٨ : ٥ ، ٦). وللمرة الثالثة، فعل بولس هذا الأمر عندما رفض قادة اليهود الإنجيل، فقال لهم: «ليكن معلوماً عندكم أن خلاص الله قد أرسل إلى الأمم وهم سيسمعون» (أع ٢٨ : ١٧-٢٨).

يجب إذاً أن يكون تبشيرنا بالإنجيل بتمييز، فإن كانت للناس فرص كثيرة ليسمعوا كلمة الحق، ورفضوها بعناد وأداروا ظهورهم لها، فوضعوا أنفسهم موضع الكلاب والخنازير، علينا أن لا نستمر نعظهم، لأننا بهذا نحن نحط من قدر الكلمة، إذ نجعلهم يدوسونها بأقدامهم وهل هناك أشر من خطأ الخلط بين درر الله العظيمة وبين الأشياء التى لا قيمة لها، فتُداس كلمة الله فى التراب؟

ولكن، وفى الوقت نفسه، من الخطورة والصعوبة أن نقرر أن شخصاً ما ميئوس منه، فنتحلى عنه. أذكر حالة أو حالتين رأيت أنه من الواجب أن أتخلى عنهما. ولكن يجب أن نذكر أن تعليم المسيح هذا هو تعليم عن حالة استثنائية، وواجبنا المسيحى الطبيعى أن نصبر ونثابر مع الآخرين، كما صبر الله معنا.

٣. موقفنا تجاه الآب السماوى
(٧-١١)

«[٧]اسألوا تُعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يفتح لكم. [٨]لأن كل من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد ومن يقرع يُفتح له. [٩]أم أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجراً [١٠]وإن سأله سمكة يعطيه حية [١١]فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحرى أبوكم الذى فى السموات يهب خيرات للذين يسألونه».

لقد كان طبيعياً أن ينتقل المسيح من الحديث عن علاقتنا بإخوتنا، إلى علاقتنا بأبينا السماوى، لأن واجبنا فى التمييز (وليس إدانة الآخرين، فى عدم إلقاء الدرر أمام الخنازير، بل مساعدة الآخرين بدون رياء) أمر صعب بدون نعمة الله.

أ) الوعود التى قدمها المسيح

هذا الجزء ليس أول الوصايا الخاصة بالصلاة فى الموعظة على الجبل، فقد سبق أن حذَّرنا المسيح من رياء الفريسيين ومن طقسيَّة صلاة الأمم، وأعطانا مثالاً للصلاة النموذجية. والآن يشجعنا لنصلى ويقدم لنا وعود النعمة الجميلة، فلا يوجد ما يشجعنا على الصلاة أكثر من اقتناعنا بأنه سيسمع لنا. وكما كتب «لوثر»: «يعرف الله أننا نخجل ونتردد، لأننا نشعر بعدم الاستحقاق وعدم اللياقة لنقدِّم احتياجاتنا إليه .. فنحن نعتقد أن الله عظيم جداً وأننا صغار جداً، ولهذا لا نجرؤ على الصلاة. لذلك أراد المسيح أن يخلصنا من هذه الأفكار، وأن ينزع شكوكنا، لنلجأ إليه بكل جزأة وبكل ثقة»[١].

لقد أراد المسيح أن يطبع وعوده فى أذهاننا وذاكرتنا بتكرار ما قاله، فربط وعوده هكذا:

أولاً، بأمرٍ مباشر: «اسألوا .. اطلبوا .. اقرعوا» (ع ٧). ونرى فى هذا الأمر اتجاهاً تصاعدياً. قال «ريتشارد جلوفر» إن الطفل عندما يجد أمه قريبة منه ويستطيع أن يراها

(١) مرجع سابق، Luher. P. 334

(يسأل)، لكن إن لم تكن قريبة منه ولا يراها (يطلب)، فإن لم تكن معه، وكانت فى غرفة أخرى فإنه (يقرع)[1]. وكل هذه أفعال تدل على اللجاجة فى تقديم طلباتنا لله.

ثانياً، قُدِّمت هذه الوعود للجميع بصورة عامة، فكل من يسأل يأخذ، ومن يطلب يجد، وكل من يقرع يُفتح له (عدد ٨).

ثالثاً، فسر المسيح هذه الوعود بمثل عائلى (الأعداد ٩-١١)، بأن تخيل حالةً مألوفةً لسامعيه، فيها ابنٌ يأتى إلى أبيه ويسأله بعض الطلبات. فهل لو سأله خبزاً يعطيه شيئاً شبيهاً بالخبز، لكنه يختلف تماماً عن الخبز، كأن يعطيه حجراً بدل الخبز، أو حية بدل السمكة؟! فإن كان الابن يطلب شيئاً صحيّاً ليأكله من خبز أو سمك، فهل سيأخذ من أبيه شيئاً لا يؤكل (حجراً)، أو ساماً (حية)؟

بالطبع لا. ومع أن الآباء، حتى وهم أشرار (أى بالطبيعة أنانيون) إلا أنهم يحبون أولادهم ويعطونهم عطايا حسنة .. لاحظوا أن المسيح، هنا، يفترض بل ويؤكد على الطبيعة الشريرة الموروثة، وفى ذات الوقت يقول إن الإشرار يقدرون على فعل الأمور الحسنة ويعطون أبناءهم عطايا حسنة، كما قال «كلفن»: «لأن الله يسكب فى قلوبهم قدراً من صلاحه». فالمسيح يقول إنه حتى وإن كانوا يفعلون حسناً من خلال طبيعة الأبوة فيهم، فيعتنون بأولادهم، إلا أن صفة «أشرار» تلازمهم، لأن طبيعة البشر خاطئة.

لهذا، فإن قوة المثل الذى ضربه المسيح، هنا، تقع لا فى وجه الشبه بين الله والإنسان، بل فى التناقض بينهما. ونرى، هنا، حواراً آخر ينتهى بالتعبير: «كم بالحرى». إن كان الآباء البشريون (بالرغم من شرهم) يعرفون أن يعطوا أولادهم عطايا جيدة، فكم بالحرى أبونا السماوى الصالح «يهب خيرات للذين يسألونه» (عدد ١١)!

وهنا يتساءل «القديس أغسطينوس»: «ما الذى لا يعطيه الآب لأولاده عندما يطلبون، إن كان قد سبق وأعطاهم أعظم عطية وهى التبنى؟»[2].

لا شك أن صلواتنا ستتغير عندما نتذكر أن الله الذى نأتى إليه هو «أبا الآب»، وهو صالح وطيب.

---

(١) مرجع سابق؛ Glover, P. 70

(٢) مرجع سابق؛ Augoustine, P. 11:16

وقد أوضح «البروفيسور إرميا» حِدَّة تعليم المسيح، فقال إنه بمعاونة مساعديه فحص بدقة صلوات قدماء اليهود، كما جاءت فى كتاباتهم القديمة (التى لم تلْقَ رغم وفرتها دراسة عميقة حتى اليوم). فلم يجد أىٍّ منها توسُّلاً رفعه أحد اليهود إلى الله داعياً إياه «يا أبا»، مع أن هذه الكلمة من الكلمات الشائعة التى يدعو بها الأبناء آباءهم دائماً[١]. فلم يكن يجرؤ أحد من اليهود أن يُحدِّث الله بهذا اللقب. إلا أن المسيح كان يدعو الله دائماً بلقب «الآب»، وأعطى تلاميذه سلطان مخاطبة الله بهذا اللقب «أبا». فهل ياترى يوجد شئ أبسط من هذا فى الصلاة؟

إن كنا ننتمى للمسيح، فالله أبونا ونحن أولاده، وستصعد صلواتنا إليه مع طلباتنا. المشكلة أن هذا الأمر يبدو لكثيرين سهلاً بل وساذجاً، فيقولون إنهم لا يصدقونه، كما أنه لا يتناسب مع اختباراتهم، فلا يركزون على وعود المسيح بل على مشاكل صلواتهم.

ب) المشاكل التى يثيرها الإنسان

وعندما نواجه مواعيد المسيح الصريحة: «اسألوا تُعطوا. اطلبوا تجدوا» يثير بعض الناس بعد الاعتراضات، وعلينا أن نناقشها الآن:

١ . الصلاة غير لائقة

يقول البعض: «هذا التشجيع على الصلاة يصوِّر الله بصورة زائفة، تدل على أنه يحتاج إلى من يخبره بما نحتاجه أو ليجبره أن يعطينا، بينما سبق المسيح وقال إن أبانا السماوى يعلم احتياجاتنا وهو يعتنى بنا. وهو بالتأكيد لا يهتم باحتياجاتنا التافهة. فلماذا نفترض أن عطاياه تعتمد على طلبنا منه؟ هل الآباء البشريون ينتظرون أن يوفوا احتياجات أبنائهم حتى يطلب الأبناء منهم؟».

وللرد نقول إن كون الله يعطينا عندما نطلب منه، ليس لأنه لا يعرف احتياجاتنا حتى نخبره بها، ولا لأنه يتردد فى العطاء حتى نقنعه بحاجتنا. لكن السبب يتعلق بنا، لا به. فليس السؤال: هل هو مستعد أن يعطى؟ بل: هل نحن مستعدون لنأخذ؟ لذلك ففى صلاتنا، نحن لا نتغلب على الله، بل نتغلب على أنفسنا ونُخضعها لله. ويستخدم البعض تعبير «الصلاة الغالبة»، وهو تعبير يُفَسِّر ضعف الإنسان، فحتى عندما يُقال: «صارع يعقوب مع الله وغلب»، فإننا نرى أن الله هو الذى غلب يعقوب، وجعله يستسلم، فيصير مستعداً لنوال البركة التى كان الله يتوق أن يعطيها له.

---

(١) Joachim Jeremias, *The Prayers of Jesus* (SGM, 1967), PP. 45,97

والحقيقة هى أن الآب السماوى لا يدلل أولاده، فهو لا يمطرهم بالخيرات سواء كانوا محتاجين إليها أم لا، وسواء كانوا مستعدين لقبولها أم لا، بل هو ينتظر حتى يدركوا احتياجهم ويتوجهون إليه فى اتضاع. لهذا السبب، أوصانا أن نسأل؛ فيعطينا. ويقول الرسول يعقوب: «لستم تمتلكون لأنكم لا تطلبون» (يع ٤: ٢). فالصلاة إذاً ليست «غير مناسبة»، لكنها الطريقة الوحيدة التى اختارها الله لنعبِّر له عن احتياجنا واتكالنا عليه.

٢. الصلاة غير ضرورية

وهذا الاعتراض الثانى لا ينشأ عن تفكير لاهوتى (كالاعتراض الأول)، بل من واقع الاختبار، فالمؤمنون ينظرون حولهم ويرون أن أمور الناس فى العالم تسير بصورة طبيعية بدون صلاة. فغير المؤمنين يأخذون، بدون صلاة، كل ما يأخذه المؤمنون بالصلاة. فهم يحصلون على حاجتهم من رواتبهم التى يأخذونها مقابل عملهم - «لا بواسطة طلبها بالصلاة». فالفلاح يحصل على محصول جيد بجهده - لا بصلاته ... والأم تضع طفلها بمعاونة الطبيب الماهر - لا بالصلاة ... واحتياجات الأسرة تتسدد من مرتب الأب، وربما من مصادر أخرى - لا بالصلاة. وبالتأكيد، قد نُخدَع ونقول إن هذا برهان على أن الصلاة لا فعالية لها، بل إنها مضيعة للوقت!

لكن انتظر برهة! للتفكير فى هذا السؤال، **علينا أن نميِّز بين عطايا الله الخالق وعطاياه كآب لنا، ويجب أن نميِّز بين عطايا الخالق وعطايا الفادى. إنه بالفعل يعطى عطايا خاصة (حصاد - أطفال - طعام - حياة)، سواء صلى الناس أم لم يصلوا، وسواء آمن الناس أم لم يؤمنوا، فهو يعطى الجميع حياة وروحاً، ويشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين (مت ٥: ٤٥). إنه يفتقد الأم عندما تحبل، ثم يعطيها طفلها، دون أن يعترف به أحدٌ كخالق أو يطلب أحدٌ منه هذا فى الصلاة.**

إلا أن عطايا الفداء الإلهية تختلف، فالله لا يهب الخلاص للجميع، لكنه يعطى غِنى نعمته لكل من يدعوه «لأن كل من يدعو باسم الرب يخلص» (رو ١٠: ١٢، ١٣). وتنطبق القاعدة

نفسها على بركات ما بعد الخلاص، فهى «الخيرات» التى قال المسيح أن الآب يعطيها لأولاه. إذاً لم يكن المسيح يشير إلى بركات مادية، بل إلى بركات روحية، من غفران يومى، وإنقاذ من الشر، وسلام القلب، والنمو فى الإيمان والرجاء والمحبة. إنه عمل الروح القدس الساكن فينا، وهو الذى يمثل مجمل بركات الله، وهو ما وصفه لوقا البشير بالعطايا الجيدة (لو ١١ : ١٣ ومت ٧ :١١). ولمثل هذه العطايا يجب أن يُصلَّى.

وتلفت الصلاة الربانية التى علَّمها لنا المسيح فى بداية «الموعظة على الجبل» أنظارنا إلى هذين النوعين من العطايا: «**فخبزنا اليومى» هو عطية (الخالق)، إلا أن الغفران والإنقاذ من التجربة هى عطايا (الفادى). ولكن كيف يمكن أن نجمع الإثنين معاً فى صلواتنا؟**

لعل الإجابة هكذا: نحن نصلى لأجل طعامنا اليومى لا لأننا نخاف من الجوع، فإن ملايين البشر يحصلون على طعامهم اليوم بدون صلاة لطلب الحصول عليه، أو قبل تناوله. لكن لأننا نعلم أن هذا الطعام مصدره الله، ولأننا أولاده، فمن الجميل أن نعلن اعتمادنا الكلى عليه. إلا أننا أيضاً نصلى طالبين الغفران والإنقاذ من التجربة، لأن هذه العطايا لا تُعطى إلا استجابة للصلاة، ولأننا بدونها سنهلك. لذلك فالصلاة ضرورية.

٣- الصلاة غير مجدية

والمشكلة الثالثة تتعلق بالمشكلة الثانية، فالناس قد يجادلون فى ضرورة الصلاة، بحُجَّة أن الله يعطى الكثيرين الذين لا يسألون، ولا يعطى كثيرين ممن يسألونه. فيقول قائل: «صليت لأنجح، لكنى رسبت» ... «صليت لأُشفى من مرض، لكن حالتى تدهورت» ... «صليت لأجل السلام، لكن العالم يمتلئ بالحروب». فالصلاة غير مجدية! وهذه مشاكل شائعة عن صلوات غير مستجابة.

والطريقة المثلى لمعالجة هذه المشكلة، هى أن نتذكر أن وعود الرب فى «الموعظة على الجبل» لم تكن غير مشروطة. ولو فكرنا لحظة؛ سنقتنع بهذا الأمر. فمن غير المعقول أن نفترض أن الوعد: «اسألوا تُعطوا»، هو وعد مطلق بدون أية محاذير، وأن الوعد: «اقرعوا يُفتح لكم» هو المفتاح السحرى لكل باب مغلق بدون استثناء، فيبدو لنا أننا بالصلاة سنجد العصا

السحرية التى ستحقِّق كل أحلامنا وتلبى كل احتياجاتنا.

مثل هذه الأفكار ساذجة لأنها ستحوِّل الصلاة إلى سحر، وتحوِّل المصلى إلى ساحر، وتحوِّل الله إلى خادم يظهر فجأة ليُنجح طريقنا عندما نضئ شمعة صلاتنا. كما أن هذا الفكر عن الصلاة سيضع على عاتق كل مؤمن حساس عبئاً ثقيلاً، إن عرف أنه سيحصل على كل ما سيطلبه. لذلك، كتب «أليك موتييه»: «إن كان ما نطلبه من الله يهبنا الله إياه، فلن أعود أصلى على الإطلاق. لأنى لا أثق فى حكمتى التى تطلب كل شئ. إن هذا سيلقى عبئاً على حكمتنا الضعيفة، عندما نفكر إن الله سيعطينا كل ما نطلبه منه، مهما كان، ووقتما كان! فكيف نستطيع أن نحتمل مثل هذا العبء؟»[١].

لعلنا نستطيع أن نشرح الأمر بهذه الطريقة: **لما كان أبونا السماوى صالحاً؛ فإنه يعطى أولاده عطايا صالحة. ولأنه حكيم فهو يعرف أية عطايا هى الصالحة وأية عطايا هى غير صالحة**. إن الأبوين لن يعطيا أولادهما حجراً أو حية، عندما يطلبون خبزاً أو سمكة. لكن ماذا يحدث لو طلب الأولد بسبب جهلهم حجراً أو حية؟ بدون شك إن الآباء الذين لا يعرفون معنى المسئولية سيلبّون طلب أولادهم، لكن أغلب الآباء لن يفعلوا ذلك، بدافع الحكمة والمحبة. وبالتأكيد لن يعطينا أبونا السماوى ما يضرنا، حتى إن طلبناه بإلحاح، لسبب بسيط: إنه يعطى أولاده «عطايا جيدة» فقط. فإذا طلبنا عطايا صالحة؛ سيعطيها لنا، وإن طلبنا أشياء رديئة، أى غير صالحة فى ذاتها، أو غير صالحة لنا أو لغيرنا سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، سواء ظهر أثرها فى الحال أو بعد فترة - فلن يعطيها لنا. وهو الذى يستطيع أن يميز بين ما هو صالح وما هو غير صالح.

نحن إذاً نستطيع أن نشكر الله أنه يلبى احتياجاتنا، لكن بشروط، فلا يعطينا كل ما نسأل أو نطلب أو نقرع بابه لنواله - إلا إن كان لصالحنا. فلنشكره على الصلاة المستجابة، وغير المستجابة. لذلك، كتب «د. لويد جونز»: «أشكر الله، لأنه لا يستجيب كل طلباتى .. أشكره جداً؛ لأنه لم يعطنى بعض الأشياء، وأشكره لأنه أغلق فى وجهى بعض الأبواب»[٢].

---

(١) Alec Motyer, *Studies in the Epistle of Kames* (New Mildmay Press, 1968), P. 88

(١) مرجع سابق، Loyd - Jones, P. 513

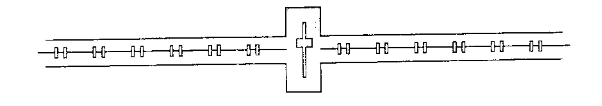
ج) الدروس التى نتعلمها

تبدو الصلاة سهلة جداً لما يعلمنا المسيح عنها، فهى مجرد سؤال وطلب وقرع، تلقى كلها الاستجابة. ولكن الذى يظن الصلاة سهلة شخص مخدوع، لأنه يغفل الكثير من التعليم الوارد فى كلمات المسيح:

فأولاً، تستلزم الصلاة معرفة، لأنه إن كان الله لا يعطى عطايا إلا إن كانت حسب مشيئته؛ فعلينا أن نبذل كل جهد لنعرف إرادة الله. ينبغى أن نتأمل كلمة الله، ونلهج فيها؛ ليكون لنا الذهن المسيحى المدرَّب فى مدرسة الكلمة.

وثانياً، تستلزم الصلاة إيماناً يطيع الكلمة، فمعرفة إرادة الله شئ، والخضوع المتواضع للكلمة شئ آخر، لأن الخضوع تعبير عن الثقة أنه يقدر أن يتمم إرادته.

وثالثاً. تستلزم الصلاة رغبة. قد نعرف إرادة الله ونؤمن أنه يقدر أن ينفذها، ومع ذلك، فإننا نرفض أن ننفذ إرادته. لقد أعطانا الله الصلاة وسيلة أساسية نعبِّر بها عن رغباتنا العميقة وعن مسرة قلوبنا (رو ١٠: ١)، لذلك يقول لنا الرب فى تدرج تصاعدى: «**اسأل .. اطلب .. اقرع**»، وهذا التدرج يعبر عن المثابرة. لذلك، وقبل أن نسأل، علينا أن نعرف ماذا نسأل؟ وهل سؤالنا يطابق إرادة الله؟ وعلينا أن نؤمن أن الله يقدر أن يعطى، وأن نكون على استعداد أن نأخذ، وعندئذٍ سيتحقق هذا الوعيد الجميل.



٤. موقفنا تجاه كل الناس
(٧: ١٢)

«فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم. لأن هذا هو الناموس والأنبياء».

تبدأ هذه الآية «بفاء السببية» أو في اللغة الأصلية (Oun)، وهناك مبرر لوجود هذا الحرف، فهو يردنا إلى ما يسبق (عدد ١٢)، فإن كان الله صالحاً لجميع الذين يسألونه، فيجب أن يكون أولاده على مثاله في الصلاح مع الجميع. وقد تعود «فاء السببية» إلى وصية «لا تدينوا»، ومعناها رفض النقد الهدام ورفض الرياء.

وقد علّم المسيح هذا المبدأ في مناسبات مختلفة وفي قرائن مختلفة. ففي «الموعظة على الجبل»، طبقاً لما كتبه لوقا، تأتي هذه الآية (لو ٦: ٣١) مباشرة بعد أن قدم المسيح وصية ثلاثية لمحبة أعدائنا، وهي محبة تسمو على قدراتنا - لولا نعمة الله. إنها في واقع الأمر محبته هو. وهي إحدى النِّعم التي يعطيها لنا بعمل روحه القدس، استجابةً لصلواتنا (لو ١١: ١٣ ومت ٧: ١١).

وقد كتب كثير من المفسرين عن هذه القاعدة الذهبية، وقالوا إن آخرين قالوها قبل أن قالها المسيح، وإن كان ذلك بطريقة سلبية، فعلى سبيل المثال قال الحكيم «كونفوشيوس»: «لا تفعل بالآخرين ما لا تريدهم أن يفعلوه بك». وقال «الرواقيون» قولاً مشابهاً، وفي الأسفار غير القانونية في العهد القديم نجد «كل ما تكره أن يفعله غيرك بك فإياك أن تفعله أنت بغيرك» (حسب ترجمة NEB) (سفر طوبيا ٤: ١٦). وقال «التلمود اليهودي» إنه في عام ٢٠ ق.م. جاء شخصٌ كان يطلب اعتناق لليهودية إلى المعلم اليهودي «شمعي»، وطلب منه أن يعلّمه كل الناموس، وهو واقف على قدم واحدة، فطرده من حضرته. فذهب هذا الشخص إلى المعلم هليل (وكان ينافس شمعي)، ووجّه له ذات السؤال، فأجابه «هليل»: «يمكن تلخيص كل الناموس في كلمات قليلة هي: ما تكرهه لا تفعله بالآخرين. وبقية الناموس تفسير لهذه القاعدة»[1].

---

(١) سُجلت في التلمود، في: Shabbath 31a.

والشئ بالشئ يُذكر، فلما كان هناك تشابه بين تعليم «التلمود» و«الموعظة على الجبل»، دعونا نقتبس بعض ما قيل تعليقاً على هذا الأمر. لقد ادَّعى البعض أن كل ما ذُكر فى «الموعظة على الجبل» جاء في «التلمود»، بل جاء فى الأكثر، لكن كتب «البروفيسور إرميا» تعليقاً على هذا الأمر: «صحيحٌ أن التلمود جاء فيه أكثر، ولكن يحتاج الأمر إلى تفتيش طويل فيه، لتصل إلى حبة قمح وسط كومة كبيرة من القش. وهذه الحبةُ الذهبية هى (الموعظة على الجبل)[١]. كما كتب اليهودى المتنصرِّ «الفريد إدرشايم» فى نهاية القرن الماضى، إن فى التلمود ملاحة ومنطقاً، واجتهاداً وخبرة، وحماسة وغيرة، لكن فى ذات الوقت فيه تناقض بين المادة والروح، وبينه وبين العهد الجديد. وإذا أخذناه، ككل، نستطيع أن ندرك أنه ليس فقط غير روحى بل هو ضد الروح»[٢].

فإذا رجعنا إلى القاعدة الذهبية، نرى فرقاً شاسعاً بين الأمر السلبى الذى ذكره «هليل»: «ما تكرهه لا تفعله بالآخرين»، وبين المبادرة الإيجابية التى قدمها لنا المسيح: «فكل ما تريدن أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم». ولعل هذه العبارة تذكرنا، ولو بمقياس أقل بالآية: «تحب قريبك كنفسك». فمن الواضح أن محبة القريب كالنفس هى أسمى مقياس، لأن محبة النفس هى قوة دافعة كبيرة فى حياتنا. وكما قال «إدرشايم» عن محبة القريب هذه إنها أقصى ما تستطيع الطبيعة البشرية أن تبلغه، فهى قاعدة أخلاقية مرنة، فحب الخير للنفس غالباً يقودنا فى أمور حياتنا، فيجب أن نجعله يقودنا فى سلوكنا تجاه الآخرين، فلنضع أنفسنا مكان الآخرين ونسأل هذا السؤال: «كيف كنت أحب أن يعاملنى الناس فى هذا الموقف؟»[٣].

وكما كتب «الأسقف رايل»: «تحل القاعدة الذهبية مئات المشاكل. إنها تعفينا من ضرورة وضع قواعد لا نهاية لها فى أسلوب معاملتنا بعضنا مع بعض فى مختلف الأمور»(٤).

نعم إنها قاعدة لها تطبيقات واسعة، قال فيها المسيح إنها الناموس والأنبياء، فهى تكميل للناموس والأنبياء، على الأقل، فى مجال المحبة الأخوية (مت ٥: ١٧ ورو ١٣: ٨-١٠).

---

(١) مرجع سابق؛ Jeremias, P. 10

(٢) Alfred Edersheim, The life and Times of Jesus the Messia, (Longmans, 1883), PP. 535f.

(٣) مرجع سابق؛ P. 535

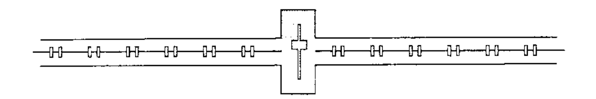
(٤) مرجع سابق؛ Ryle, P. 66

ولقد لاحظنا فى بداية هذا الفصل أن الأخلاق المسيحية المختلفة ليست هى قيمة أو نظام حياة فردى، لكنها نظام جماعى، فهى تشمل علاقات المجتمع المسيحى الذى هو فى جوهره أسرة واحدة، هى عائلة الله.

وهناك عنصران قويان فى ضميرنا المسيحى، هما إدراك أن الله أبونا، وأن شركاءنا المؤمنين هم إخوتنا وأخواتنا. وفى ذات الوقت، لا نستطيع أن ننسى مسئوليتنا عن من هم من خارج العائلة، الذين نتوق أن نراهم يدخلون معنا عائلة الله.

لهذا، يقدم المسيح هذه القواعد الأساسية فى العلاقات فى (مت ٧: ١ـ١٢) .. ففى المركز، نجد أبانا السماوى الذى نأتى إليه لأننا نعتمد عليه، وهو الذى لا يمكن أن يعطى أولاده إلا كل عطية صالحة. ثم نجد شركاءنا المؤمنين، فنتخلَّص من روح الانتقاد الهدَّام، ومن روح الرياء الذى يرى القذى فى عين الأخ، بالرغم من وجود الخشبة فى عينه ـ فإن النقد الهدَّام لا يتفق مع منطق الأخوَّة المسيحية. وإن كان شريكى المسيحى هو حقاً أخى (وأختى) فى المسيح بصدق؛ فلا يمكن أن أكون بالنسبة له إلا شخصاً يحمل له كل إهتمام ويريد أن يبنيه.

أما بالنسبة لمن هم خارج العائلة المسيحية، فهناك أناس يقاومون الإنجيل، قد دعاهم المسيح «كلاباً وخنازير»، لكنهم لا يمثلون كل من هم خارج نطاق عائلة الله، فهم معاندون رفضوا المسيح تماماً، ونستطيع أن نستبعدهم من اهتمامنا، لكن على مضض. وإن كان (مت ٧: ٦) يمثل الاستثناء، فإن (مت ٧: ١٢) يمثل القاعدة الذهبية التى يجب أن تشكِّل تصرفاتنا. وإن كنا نضع أنفسنا بكل حساسية مكان الآخرين، ونريد لهم ما نريده لأنفسنا؛ فلن نكون أدنياء، بل دائماً أسخياء.. ولن نكون عنفاء، بل دائماً مدركين متفهِّمين ... ولن نكون صارمين، بل دائماً شفوقين.



الباب الثامن

علاقات المسيحي : مع الأنبياء الكذبة

[أصحاح ٧ : ١٣ ـ ٢٠]

يعتقد بعض المفسرين أن الموضوع الأساسي «للموعظة على الجبل» انتهى عند هذا الجزء، ويبدأ التطبيق والخاتمة من (عدد ١٣)، حيث يركز المسيح على ضرورة اتِّخاذ القرار، فقال: «ادخلوا من الباب الضيق». لقد سبق ووضع أمامنا التباين بين نوعين من البر، ونوعين من التكريس، وكنزين وسيدين، وطموحين. **والآن، أتى وقت اتخاذ القرار: هل تنتمي لمملكة الشيطان أم لمملكة الله؟ هل تذهب وراء أخلاق العالم السائدة، أم الأخلاق المسيحية المختلفة عنها؟**

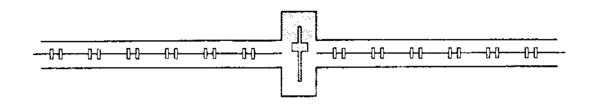
لقد أكمل المسيح حديثه بأن قدَّم البدائل من خلال:

طريقين : واسع وضيق،

ومعلِّمين : كاذب وصادق،

وبرهانين : أعمال وأقوال،

وأخيراً أساسين : رمل وصخر.



١. الاختيار الذى لا مفرّ منه
(١٣ و ١٤)

«ادخلوا من الباب الضيق لأنه واسع الباب ورحب الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك. وكثيرون هم الذين يدخلون منه. ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة وقليلون هم الذين يجدونه».

إن اللافت للنظر فى هذه الآيات أنها توقفنا أمام اختيار قاطع. ونحن عادة نفضِّل أن توضع أمامنا عدة اختيارات ـ لا اختياراً واحداً فقط، فنتَّخذ منها ما يحلو لنا، ونوفِّقها معنا، وننشئ منها عقيدة. لكن المسيح كان قاطعاً، وهدم مثل هذه المحاولات. ولم يسمح لنا بحلّ سهل نريده، وركز على أن هناك اختياراً واحداً فقط من احتمالين لا ثالث لهما، وعلينا أن نختار أحدهما:

أولاً هناك طريقان

لقد ذكر العهد القديم هذا المضمون من قبل، ففى المزمور الأول يقارن المرنم بين «طريق البار» الذى فى ناموس الرب مسرته، والذى يثمر وينجح .. و«طريق الشرير» الذى كالعصافة التى تذرِّيها الريح. ويتحدث المسيح عن طريق سهل. والكلمة تعنى (واسع أو رحب). وقد جمعت بعض الترجمات الكلمتين معاً، وقالت إنه طريق «رحب وسهل»، فيه أماكن كثيرة للتسيُّب الأخلاقى وتعدد الآراء. إنه طريق الإباحية والتساهل، حيث لا يوجد فيه لجام أو حدود أو ضوابط للأفكار والأعمال. والمسافرون فى هذا الطريق، يسلكون حسب أهوائهم، أى حسب أهواء القلب البشرى الساقط. إن ما يميز هؤلاء الناس هو السطحية، والأنانية، والرياء، والطموح الكاذب، وروح الانتقاد، والعبادة الجامدة. وهم ليسوا فى حاجة لأن يتعلموا مثل هذه الأمور، لأنها من عندهم، ويسهل عليهم أن يمارسوها. بل يحتاجون إلى مجهود كبير، لو أرادوا أن يقاوموها. ولهذا السبب فهذا الطريق «سهل ورحب».

ولكن، من الجانب الآخر، نرى الطريق «العسر والكرب»، وهو ضيِّق لأن له حدوداً واضحة جداً. وسبب ضيقه يرجع إلى ما يُسمى «الإعلان الإلهى» الذى يحدد للمسافر الضوابط التى

أعلنها الله فى كلمته، وهى بالطبع ضوابط صادقة وصالحة. لذلك، كتب «سى.إس. لويس» فى كتابه «مندهش من الفرح»، عن تاريخ حياته، أنه عندما كان صبياً فى الثالثة عشرة من عمره بدأ «يوسّع مداركه»، ويقول: «لقد بدأتُ أغيِّر الكلمات الشهيرة، فبدلاً من أن أقول «أنا أؤمن» كنت أقول «أنا أشعر». وكنت أحس براحة عظيمة وأنا أغيِّر معانى هذه الكلمات. وكنت أطلق لأفكارى العنان لأغيِّر معانى الأمور الواضحة لتصبح رمادية اللون، وبالتالى فلم أكن أؤمن أو أطيع شيئاً إلا الأمور التى تحلو لى وتريحنى!»(١).

لذلك، يفرض الحق المُعلَن على المؤمن حدوداً لما يؤمن به، ويوضِّح له طريقة سلوكه. وقد ننظر إلى هذا الأمر على أنه «عسر» لكن من جانب آخر (كما أشار القديس يوحنا فم الذهب منذ قرون) ينبغى أن نرحب بطريق المسيح الكرب والضيق باعتباره «نيره الهيِّن وحمله الخفيف» (مت ١١: ٣٠).

ثانياً هناك بابان

إن الباب المؤدى إلى الطريق السهل «واسع»، وما أسهل أن نذهب إليه. ومن الواضح أنه ليس هناك حدود للأثقال التى يمكن أن نأخذها معنا، كما أننا لا نحتاج أن نطرح شيئاً وراءنا، بما فى ذلك الخطايا، وبرنا الذاتى وغرورنا. إلا إننا نجد، من الجانب الآخر، أن الباب المؤدى إلى الطريق الكرب باب «ضيق»، وينبغى أن يبحث الإنسان عنه حتى يجده. كما أنه من السهل أن تفقده أو تتوه عنه، وكما قال المسيح فى مناسبة أخرى إنه ضيق مثل «ثقب الإبرة».

ولكى تدخله، عليك أن تطرح كل شئ وراءك، فتطرح الخطية والطموح الأنانى والطمع، وأحياناً إن كان ضرورياً تترك العائلة والأصدقاء، لأنه لا يمكن أن نتبع المسيح بدون أن ننكر ذواتنا أولاً. والباب، هنا، باب «ضيق» لا يسمح إلا بدخول الفرد. وهذا الباب هو شخص المسيح، الذى قال عن نفسه: «أنا هو الباب. إن دخل بى أحد فيخلص» (يو ١٠: ٩).

ثالثاً هناك مصيران

لقد سبق ورأينا فى المزمور الأول «النجاح» فى جانب، و«الهلاك» فى جانب آخر. ويتضحّ مدى هذا بجلاء فى القول: «انظر. قد جعلت قدامك الحياة والخير والموت والشر .. البركة واللعنة. فاختر

(١) C.S. Lewis, Surprised by Joy (Bles, 1955), P. 63

الحياة لكى تحيا» (تث ٣٠: ١٥-١٩ قارن إر ٢١: ٨). وقد علَّم المسيح أن الطريق الرحب الذى ندخل إليه من خلال الباب الواسع يؤدى إلى «الهلاك»، دون أن يذكر ما يقصده «بالهلاك». ونحن بفكرنا القاصر لا نعرف طبيعة الجحيم، كما لا نعرف طبيعة السماء. لكن كلمة «الهلاك» كلمة مفزعة، لأن الله خالق وليس مدمراً، والإنسان خُلق ليعيش - لا ليموت. ونستطيع أن نقول إن «الهلاك» معناه أن كل شئ جميل سيتدمَّر فى الجحيم: الحب، والجمال، والحق، والفرح، والسلام، والرجاء؛ كل هذه ستختفى إلى الأبد. وعندما نتخيل هذه الأمور، لا نستطيع إلا أن نذرف الدموع، لأن هذا الطريق الرحب هو طريق الانتحار.

لكن على النقيض من هذا، نجد أن الطريق الكرب الذى ندخله من الباب الضيق يؤدى لحياة؛ وإلى الحياة الأبدية، التى وصفها المسيح بأنها شركة وأنس بالله، تبدأ هنا وتكمل هناك، عندما نراه ونتمجد معه. وتظهر هذه الحياة الأبدية فى أروع معانيها فى الخدمة المضحية للرب وللناس.

رابعاً هناك حشدان

يدخل كثيرون من الباب الواسع، ويمشون فى الطريق الرحب الذى يؤدى إلى الهلاك، فهو طريق مزدحم بالبشر وجامع من كل نوع، بينما يبدو الطريق الكرب الذى يؤدى إلى الحياة مقفراً، لأن قليلين يجدونه.

ويبدو أن المسيح كان يتوقع أن أتباعه سيكونون (أو على الأقل يظهرون أو يشعرون) بأنهم أقلية محتقرة. ورأى جموعاً غفيرة تسلك الطريق الرحب، تضحك فى غير مبالاة، لأنهم لا ينتبهون لمصيرهم المرعب الذى يتجهون إليه. أما الطريق الضيق، فالمسافرون فيه قليلون، أيديهم فى أيدى بعضهم، وقد أداروا ظهورهم للخطية، واتَّجهوا إلى المدينة السماوية، وهم يرتلون ترانيم الرجاء فى طريقهم إلى أرض الموعد.

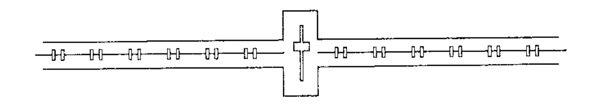
ولا أعتقد أننا نستطيع أن نبنى على المقارنة بين «كثيرين وقليلين» أن عدد مفديى الله فى الأبدية سيكون قليلاً. وإن كنا نقارن الروحيات بالروحيات (كما ينبغى أن نفعل دائماً؛ سنقارن بين تعليم المسيح هنا عن مفديى الرب، وبين «جمع كثير لم يستطع أحد أن يعدَّه» (رؤ ٧: ٩)، قد رآه يوحنا الرائى أمام عرش الله. فكيف نوفِّق بين هذين الفكرين؟

أنا لا أعرف بالتحديد، وليس واضحاً أمامى علاقة هذا الجزء من كلام المسيح بالمشكلة

العويصة التى تتعلق بالذين لم يسمعوا قط رسالة الإنجيل. فهناك كلمة مشتركة بين النوعين «القليل والكثير» هى كلمة: «يدخل». ولما كان كثيرون يدخلون من الباب الواسع، فقد حثّ المسيح سامعيه أن يدخلوا من الباب الضيق. وهذا يعنى أن الفريقين عارفان، لأن كليهما دُعيا للدخول، لكن فريقاً منهما رفض بمحض إرادته أن يدخل. والصورة التى أمامنا، الآن تتعلق بالذين كانت لهم فرصة القرار مع المسيح أو ضده. وهى لا تقول شيئاً عن الذين لم يسمعوا قط عن المسيح. فمن الحكمة أن لا نشغل أفكارنا بمثل هذه الأسئلة، كما سُئل المسيح فى مناسبة أخرى: «يا سيد أقليل هم الذين يخلصون»، فأجاب: «اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق» (لو ١٣: ٢٣، ٢٤).

وتلخصياً لما قلناه، أقول إن **هناك طريقين: طريق «كرب» وطريق «رحب»، ولا يوجد طريق وسط، ندخلهما من بابين: باب واسع وباب ضيق، ولا يوجد أى باب آخر. ويسير فيهما نوعان من الجموع: شعب كثير وشعب قليل، ولا توجد مجموعة محايدة. وينتهى المطاف بمصيرين: الهلاك والحياة، ولا يوجد بديل ثالث.**

وواضحٌ أن الناس، فى أيامنا، يبغون عدم الإلتزام، وفى استطلاعات الرأى هناك ثلاث خانات للإجابة: «نعم»، و«لا»، و«لا أعلم». والطريق الذى يحلو للجميع، الآن هو طريق أرسطو «الطريق الوسط». وأما الحيدان عن «الطريق الوسط»، يصيب صاحبه بوصمة أنه «متطرف» أو «متعصب». وكل شخص ينفر من مواجهة حتمية الاختيار، لكن المسيح لن يسمح لنا أن نهرب من الاختيار.



٢. مخاطرة المعلمين الكذبة
(١٥ـ ٢٠)

«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثماراً جيدة. كل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطع وتلقى فى النار. فإذاً من ثمارهم تعرفونهم».

أ) الافتراضات

يقول المسيح: «احترزوا (أى احذروا واحترسوا) من الأنبياء الكذبة». فهو يفترض أن هناك أنبياء كذبة، فليس من المعقول أن يضع أحد إعلاناً فى حديقة منزله تقول: «احترسوا من الكلاب» ويكون كل ما عنده فى بيته قطتان! فعندما يحذّر المسيح أتباعه من الأنبياء الكذبة؛ فهذا يعنى أنهم موجودون بالفعل.

وقد ذكر العهد القديم الكثير عنهم، فى مناسبات كثيرة، ويبدو أن المسيح اعتبر أن الفريسيين والصدوقيين أنبياء كذبة، فقال عنهم إنهم قادة عميان يقودون عمياناً. وأعلن أنهم سيزيدون عدداً، وأن الفترة التى تسبق مجيئه ستتميَّز بالانتشار الواسع للإنجيل، وبقيام أنبياء كذبة كثيرين يضلّون كثيرين (مت ٢٤: ١١ـ١٤). ونحن نقرأ عنهم تقريباً فى رسائل العهد الجديد، ويسميهم الكتاب (كما قال المسيح هنا) «أنبياء كذبة»؛ لأنهم يدَّعون الوحى الإلهى، كما يُطلق عليهم «رسل كذبة» (٢كو ١١: ١٣)؛ لأنهم يدَّعون السلطان الرسولى. ويسمّيهم أيضاً «معلمين كذبة» (٢بط ٢: ١)، و«مُسحاء كذبة» (مت ٢٤: ٢٤ ومر ١٣: ٢٢ و١يو ٢: ١٨، ٢٢)؛ لأنهم يدَّعون أنهم المسيح، أو ينكرون أن المسيح هو الله المتجسد.

وتاريخ الكنيسة حافل بقصص مرعبة عن الصراع مع المعلمين الكذبة، فقد تحدَّتهم الكنيسة، وسهرت للدفاع عن الحق، إلا أنهم تسببَّوا فى خسارة كبيرة. وأخشى أنهم مازالوا موجودين بكثرة فى كنيسة اليوم.

ويضع القول: «احترزوا من الأنبياء الكذبة» أمامنا افتراضاً آخر، هو أن هناك مقاييس موضوعية للحق، نميِّز بها كذب التعاليم الموضوعة التى أذاعها المعلمون الكذبة. فماذا قصد المسيح بكلمة «كاذب»؟

فى أيام كتابة الكتاب المقدس، كان النبى الحقيقى هو الذى يتعلم الحق من الإعلان والوحى الإلهى، أما المعلم الكاذب فيدَّعى الوحى الإلهى، ويقدم تعليماً كاذباً. وقد وصف النبى إرميا الأنبياء الكذبة بأنهم يتكلمون برؤيا قلوبهم». أما النبى الحقيقى، فإنه «يقف فى مجلس الرب .. يسمع كلمته ويخبر الشعب بكلام الرب .. يتكلم عن فم الرب» (إر ٢٣: ١٦، ١٨، ٢٢). ثم يقول إرميا: «النبى الذى معه حلم فليقصَّ حلماً. والذى معه كلمته فليتكلم بكلمتى بالحق. ما للتبن مع الحنطة يقول الرب» (إر ٢٣: ٢٨).

إن وصفُ المسيح بعض المعلمين بأنهم «أنبياء كذبة»، يدل على أنه لم يكن متهاوناً، ولا موفِّقاً بين المتناقضات، فيعلِّم أن آراء هؤلاء الكذبة تحوى أفكاراً عن الحق. كلا! فالرب وضَّح ما هو حقيقى وما هو كاذب، وأن الذين ينشرون باسم الله هم أنبياء كذبة، وعلى تلاميذه أن يحذروا منهم.

ب) التحذيرات

بعد أن لاحظنا افتراض المسيح أن هناك أنبياء كذبة، وأن هناك انحرافات عن الحق، دعونا نفكر فى تحذيراته بأكثر تدقيق: «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان. ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة» (عدد ١٥).

إن خطر هؤلاء الكذبة يكمن فى أنهم «ذئاب»، ولقد كانت «الذئاب» فى فلسطين هى العدو الطبيعى «للحملان»، ولم تكن الحملان تستطيع أن تحمى نفسها فى مواجهتهم والراعى الصالح (كما علَّم المسيح فيما بعد) كان دائماً يحذِّر من الذئاب ليحمى الخراف منهم. أما الراعى

الأجير، الذى ليست الخراف له، فلا يبالى بها، وعندما يرى الذئب مقبلاً يترك الخراف لينجو بنفسه، فيخطف الذئب الخراف ويبددها (يو ١٠ : ١١-١٣).

وقطيع المسيح، اليوم، إمّا فى أيدى رعاة صالحين أو أجراء أو ذئاب. والراعى الصالح. يطعم شعبه بالحق. أما المعلم الكاذب فمثله مثل الذئب. يشتت الرعية بالتعاليم الكاذبة. والراعى الأجير (الراعى الموظف)، لا يعمل شيئاً لحماية الخراف، ويتركها للمعلمين الكذبة. ولذلك قال الرسول بولس لقسوس كنيسة أفسس: «لأنى أعلم هذا أنه بعد ذهابى سيدخل بينكم ذئاب خاطفة لا تشفق على الرعية. ومنكم أنتم سيقوم رجال يتكلمون بأمور ملتوية ليجتذبوا التلاميذ وراءهم. لذلك اسهروا» (أع ٢٠ : ٢٩-٣١).

فما هى الأمور الملتوية التى تمثل خطراً وانزعاجاً وقلقاً فى الكنيسة؟

لقد كان الأنبياء الكذبة فى العهد القديم يخدعون الشعب بالآمال الكاذبة، ويعلّمونهم أن الله محب رحيم وليس دياناً، ففضحهم النبى إرميا وأعلن خطأهم وقال عنهم للشعب: «يتكلمون برؤيا قلبهم. لا عن فم الرب .. ويقولون لمحتقِرى كلام الرب قال الرب يكون لكم سلام. ويقولون لكل من يسير فى عناد قلبه: لا يأتى عليكم شراً» (إر ٢٣ : ١٦-١٧)، لذلك قال الرب عنهم: «يشفون كسر بنت شعبى على عثم قائلين سلام سلام. ولا سلام» (إر ٨ : ١١). ويخدّر كلام الأنبياء الكذبة شعب الله ويعطيهم إحساساً خادعاً بالأمن والسلام، فينامون فى خطاياهم، لأنه يحذرهم من دينونة الله الوشيكة، وبالتالى لا يضع أمامهم وسيلة النجاة من هذه الدينونة.

وليس من سبيل المصادفة أن يحذر المسيح من المعلمين الكذبة بعد تعليمه عن البابين والطريقين والمصيرين والحشدين، لأن الأنبياء الكذبة كانوا بارعين فى تلويث طريق الخلاص. وهناك من يشوِّه أو يفسد معانى الإنجيل، فيصعب على الباحثين على الباب الضيق أن يجدوه. ويحاول البعض أن يجعل الطريق الكرب أوسع بكثير مما وصفه المسيح، قائلين إن المسيُر فيه لا يتطلب إلا قليلاً من القيود، أو قد لا يطلب منك أى نوع من القيود، سواء بالنسبة للعقيدة أو السلوك. **لكن أخطر أنواع المعلمين الكذبة هم الذين يناقضون تعاليم المسيح، ويؤكدون أن الطريق الرحب لن يؤدى إلى الهلاك، بزعمهم أن كل الطرق تؤدى إلى الله، بما**

فى ذلك الطريق الرحب والطريق الكرب، ويقولون إنه بالرغم من أن الطريقين يقودان إلى اتجاهين متضادين، إلا أنهما فى النهاية يؤديان إلى الحياة!!

ولا عجب إن كان المسيح يشبّه مثل هؤلاء المعلمين الكذبة بالذئاب الخاطفة - لا لأنهم طماعون يبحثون عن الجاه والقوة (وهم هكذا فعلاً)، ولكن لأنهم مفترسون خطرون للغاية. إنهم مسئولون عن قيادة الشعب إلى الهلاك الذين ينكرون وجوده.

وهؤلاء المعلمون الكذبة أكثر من خطرين، لأنهم خادعون، فالكلام والخنازير الذين تكلم عنهم فى (مت ٧: ٦) من السهل اكتشافهم، لأن عاداتهم القذرة تكشفهم. أما مشكلة «الذئاب»، فلا تكتشف بسهولة، لأنهم يندسّون فى القطيع متنكرين فى شكل حملان. وكنتيجة لهذا، ينخدع فيهم الشخص غير المكترث ويعتقد أنهم حملان، فلا يطردهم، ولا يكتشف طبيعتهم الحقيقية - إلا بعد حدوث الدمار. فالمعلم الكاذب، لا يعلن ولا يكشف عن نفسه ولا أكاذيبه، بل بالعكس يدّعى أنه يعلّم الحق.

وكما قال «بونهوفر» عن النبى الكاذب إنه: «يعتقد أن المسيحيين مجموعة بسطاء أو سُذَّج، وهو يحاول أن يخفى أغراضه الدنيئة تحت ستار المحبة المسيحية، آملاً أن أقنعته غير البريئة تصرف الأفكار عن نواياه»(١). وهو يتظاهر بالتقوى، ويستخدم غالباً لغة روحية سامية، ولو أنه يلويها لتتغيّر عن معناها الحقيقى فتخدع البسطاء. بل يتخفّى أحياناً وراء ألقاب سامية، أو وراء درجات أكاديمية مبهرة، ليقدم تعاليمه المسمومة. لذلك يحذّرنا المسيح بقوله: «احترزوا». فلنسهر ولنصلِّ لنستطيع أن نميز، ونستخدم الملكات التى وضعها الله فينا، ولا نتساهل، ولا ننبهر بمظهر الإنسان الخارجى، سواء كان أدبه، أو درجاته العلمية، ولا نكون ساذجين فنظن أن الشخص الحاصل على درجات علمية عالية، أورتبة كنسية هامة لأنه أسقف أو قسيس أو أستاذ فى كلية لاهوتية، يكون شخصاً مستقيم الرأى وسفيراً أميناً للمسيح. علينا أن نتفرّس فى مثل هؤلاء جيداً، لنقرأ بعمق حقيقة ما هو تحت الستار، وما الذي تحت صوف الغنم: ذئب أم حمل؟

جـ) امتحانات

بعد أن تأملنا فى الافتراضات التى افترضها المسيح، والتحذيرات التى قدمها، دعونا الآن

(١) مرجع سابق؛ Bonhoeffer, P. 171

نبحث فى الامتحانات التى أخبرنا بها المسيح، لنطبِّقها. لقد تحول الآن من تشبيه الحملان والذئاب إلى تشبيه الأشجار وثمارها، ومن الحديث عن ثياب الحملان التى يلبسها الذئب إلى الثمار التى ينبغى أن تحملها الأشجار.

ومع أننا أحياناً نخطئ فى التمييز بين الذئب والحمل، لكننا لا نرتكب هذا النوع من الخطأ فى تحديد نوعية الشجر، فلا يمكن للشجرة أن تخفى هويتها لمدة طويلة، لأنها آجلاً أو عاجلاً ستكشف عن نفسها من ثمارها. قد يلبس الذئب قناعاً، لكن الشجرة لا تستطيع، فالشوك والحسك لا يمكن أن ينتجا ثماراً تؤكل مثل التين والعنب. وإن كانت طبيعة الثمار تحدد نوعية الشجرة (شجرة التين تنتج تيناً، والكرمة عنباً). لكن حالة الشجرة تحدد حالة الثمر: «كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية» (عدد ١٧). ولا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثماراً ردية ولا شجرة ردية، أن تصنع أثماراً جيدة (عدد ١٨). وسيحدد يوم الدينونة الفرق، إذ تُقطع الشجرة الردية وتُطرح فى النار (عدد ١٩).

هذه هى الخلاصة التى ركز عليها المسيح مرتين (العددان ١٦ ، ٢٠)، فمن ثمارهم تعرفونهم فما هى هذه الثمار؟

النوع الأول من الثمار الذى يكشف لنا شخصية الأنبياء الكذبة الحقيقية يظهر فى مجال أخلاقهم وسلوكهم. وثمر المعلِّم الجيد دليل على تشبُّهه بالمسيح، وهو الذى تكلم عنه الرسول بولس بما أسماه «ثمر الروح». وكلما رأينا فى المعلم وداعة المسيح، وقوة محبته، وصبره، ولطفه، وصلاحه، وتعففه؛ نعلم أنه معلم حقيقى، لا مزيف. لكن عندما تغيب مثل هذه الصفات من حياة المعلم، وتظهر فيه «أعمال الجسد» - لا «ثمر الروح»، ونرى العداوة، والخصام، والنجاسة، والغيرة، والحسد؛ نستطيع أن نحكم أننا أمام معلم كاذب، مهما كانت كلماته جذابة. لكن هذه الثمار لا تقتصر على الصفات والسلوك فحسب. لذلك كتب كلفن «إن الحكم على المعلمين من خلال حياتهم، فحسب، هو فى رأيى خطأ»[1].

(١) مرجع سابق؛ Calvin, P. 314

وهنا، نأتى إلى الثمر الثانى، وهو نوعية التعليم، وهذا يظهر فى حديث آخر للمسيح استخدم فيه تشبيه الشجرة، وقال: «لأن من الثمر تُعرف الشجرة .. يا أولاد الأفاعى كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار. فمن فضلة القلب يتكلم الفم. الإنسان الصالح من الكنز الصالح فى القلب يُخرج الصالحات. والإنسان الشرير من الكنز الشرير يُخرج الشرور. ولكن أقول لكم إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين. لأنه بكلامك تتبرر وبكلامك تُدان» (مت ١٢: ٣٣-٣٧، قارن لو ٦: ٤٥).

لذلك، يُعرف قلب الإنسان من كلامه، كما أن الشجرة تُعرف من ثمارها، فعلينا مسئولية أن نمتحن المعلم من تعليمه. وقد أعطانا الرسول يوحنا مثالاً لهذا، لأن كنائس آسيا التى كتب إليها كانت مهدَّدة بالمعلمين الكذبة، فحذَّرهم كما، فعل المسيح من قبل، بأن لا ينخدعوا، لكن ليمتحنوا الأرواح (أى المعلمين الذين يدَّعون الوحى)؛ ليروا هل هى من الله (١يو ٢: ٢٦ و٤: ١). وشجعهم أن يفتشوا عن المحبة والبر العملى فى المعلمين. فإن لم يجدوها؛ عليهم أن يرفضوا مثل هذا المعلم. وأضاف إلى مثل هذه الامتحانات الأخلاقية أمراً هاماً، هو نوعية التعليم. فهل رسالة هذا المعلم تتفق مع تعاليم الرسل؟ (١يو ٢: ٢٤ و٤: ٦)، وهل هو يعترف أن يسوع هو المسيح، الله الذى أتى فى الجسد؟ (١يو ٢: ٢٢، ٢٣ و٤: ٢، ٣ و٢يو ٧-٩).

لقد دافع مصلحو القرن السادس عشر عن أنفسهم، بطلب امتحان تعاليمهم، بعد أن اتهمتهم كنيسة روما بأنهم أصحاب بدع ومعلمين كذبة، فالتجأوا إلى كلمة الله، وأكدوا أن تعاليمهم ليست بدعاً جديدة، لكنها اكتشاف أمر قديم، هو الإنجيل الحقيقى وتعاليم رسله. وكانت «كنيسة العصور الوسطى» الكاثوليكية قد انحرفت عن الإيمان، وانقادت إلى الضلال، فصرخ «لوثر» بأعلى صوته وقال: «تمسكوا بكلمة الله النقية فتستطيعوا أن تحكموا على ما هو الصواب»[١].

وأكد «كلفن» ذات الحقيقة، وقال: «كل التعاليم ينبغى أن توضع أمام نور كلمة الله لتقييمها. ونحن نحكم على المعلمين الكذبة ينبغى يكون قانون الإيمان (أى كلمة الله) هو القاضى»[٢].

---

(١) مرجع سابق؛ Luther, P. 263

(٢) مرجع سابق؛ Calvin, P. 265

ثم ذهب إلى خطوة أبعد من هذا، عندما وجَّه الأنظار إلى دوافع المعلمين الكذبة بالإضافة إلى مادة تعليمهم، فالدوافع تحدد صدق المعلم: هل هو من الله أم لا؟ وقد برهن المسيح أنه مرسَل من الله، بأنه لا يطلب مجد نفسه، بل مجد الذى أرسله. «وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق» (يو ٧: ١٨).

وفى امتحاننا لمؤهلات المعلم، يجب أن نمتحن صفاته ورسالته. وقد لخص هذا الأمر «الأسقف رايل» عندما قال: «التعليم الصحيح، والحياة المقدسة، هى علامات النبى الحقيقى»[1].

لكنى أعتقد أن هناك امتحاناً ثالثاً علينا أن نطبِّقه على المعلمين، يتعلق بتأثيرهم، فلنسأل أنفسنا: ما هو تأثير تعليمهم على أتباعهم؟

أحياناً لا يظهر زيف المعلم فى الحال، فلا نستطيع أن نكتشف أى عيب فى سلوكه أو تعليمه، لكن زيفه يظهر فيما بعد، من نتائجه المدمرة. وهذا ما قصده الرسول بولس فى قوله: وكلمتهم ترعى كآكلة» (٢تى ٢: ١٧). ونرى تأثيرهم المدمر عندما يهدمون إيمان بعض الناس (٢تى ٢: ١٨)، عندما يؤدى تعليمهم إلى الخصومات (١تى ٦: ٤، ٥ و٢تى ٢: ٢٣ وتى ١: ١١ و٣: ٩)، والفجور (٢تى ٢: ١٦). لكن على النقيض من ذلك، نجد أن التعليم الصحيح يؤدى إلى الإيمان والمحبة والفضيلة (١تى ١: ٤، ٥ و٤: ٧ و٦: ٣ و٢تى ٣: ١٦، ١٧ وتى ١: ١).

وليس تطبيق امتحان الثمر أو التأثير أمراً سهلاً، فالثمر يحتاج إلى وقت للنضوج. وعلينا أن ننتظره بصبر، لأننا نحتاج إلى فرصة لفحصه بدقَّة وعن قرب، العابرة، قد تستطيع أن تكتشف بعض الأمراض فى الشجرة أو فى الثمار.

وعند تطبيق هذا القانون على المعلمين، نجد أننا نحتاج - لا إلى تقييم سطحى عن موقع المعلم فى الكنيسة، لكن إلى نظرة فاحصة لسلوكه، وصفاته، ورسالته، ودوافعه، وتأثيره.

وليس معنى هذه التحذيرات التى قدَّمها المسيح أن نشك فى كل معلم، أو أن نمارس هواية الصيد فى الماء العكر بالنسبة للمعلمين. إلا أن هذه التحذيرات تذكّرنا أن هناك أنبياء كذبة فى الكنيسة يجب أن نحترس منهم، ونسهر ضدهم.

---

(١) مرجع سابق؛ Ryle, P. 68

إن الحق جدير أن نتمسك به؛ لأنه حق الله ويبني كنيسة الله، لكن الضلال هو عمل الشيطان ويؤدى إلى الهلاك، وإن كنا نهتم بحق الله وبكنيسته، فعلينا أن نأخذ تحذيرات الله مأخذ الجد. لقد وضع المسيح ورسله على عاتقنا مسئولية حفظ تعليم الكنيسة نقية وسليمة، وهى مسئولية تقع جزئياً على عاتق القادة (من أساقفة وقساوسة)، لأنها مسئولية كل فرد من أعضاء الكنيسة. فالكنيسة المحلية تمتلك قوة أكثر مما تتوقعها أو تستخدمها فى اتخاذ قراراتها بالنسبة للمعلمين الذين تستمع إليهم. **وتحذير المسيح من الأنبياء الكذبة، هو تحذير موجَّه إلى جميعنا، وإن انتبهت الكنيسة له، وطبَّقت الامتحانات التى يقدمها المسيح لنا؛ فلن نكون فى هذه الحالة الخطيرة من الخلل الأخلاقى بل واللاهوتى التى نحن عليها الآن.**

وبهذه الفقرة، ختم المسيح تصوره للعلاقات المسيحية. وعندما نسترجعهم، نستطيع أن نكتشف أنها علاقات غنية ومتنوعة:

فالمؤمن (كأخٍ) يكره الرياء، بل ينتقد نفسه، ويدعِّم الآخرين ويبنيهم.

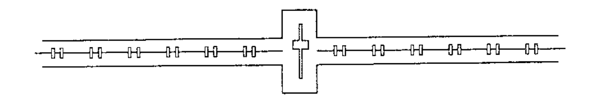
والمؤمن (ككارزٍ) يقيِّم دور الإنجيل، ويرفض أن يقدمه للخطاة المعاندين الرافضين الذين يزدرون به.

و(كمحبٍّ) لكل الناس، يفعل بهم ما يريدهم أن يفعلوه به.

والمؤمن (كابنٍ) يتطلع إلى أبيه السماوى بثقة واتِّضاع، ليعطيه كل عطية صالحة يحتاجها.

والمؤمن (كمسافرٍ) فى الطريق الكرب الصعب يتمتع بصحبة المؤمنين المسافرين معه، ويضع عينه على هدف الحياة.

والمؤمن (كحارسٍ) لتعليم الله ينتبه إلى تحذيرات المسيح، فيكون ساهراً ليميِّز المعلمين الكذبة الذى يحرّفون الحق ويتلفون قطيع المسيح.



الباب التاسع

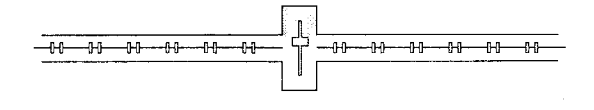
التزام المسيحي : الاختيار الحاسم

[أصحاح ٧ : ٢١ ـ ٢٧]

لا أعرف إن كنا على صواب، عندما قلنا إن المسيح بدأ يختم «موعظته» بدءاً من (عدد ١٣) في هذا الأصحاح، لكن بالتأكيد قد وصلنا الآن إلى ختام «الموعظة»، حيث ركَّز - لا على تقديم تعاليم أكثر، بل على الاستجابة الصحيحة لما سبق وقدَّمه من تعليم. وقد كتب الأسقف رايل: «لقد أنهى المسيح موعظته بتطبيقٍ يمسُّ القلب في الصميم .. فتحوَّل من الحديث عن أنبياء كذبة إلى الحديث عن معترفين كذبة بالمسيح، ومن الحديث عن معلمين مخادعين، إلى الحديث عن سامعين مخادعين»[1]. وكتب «ر.ف.ج. تاسكر» تعليقاً مشابهاً، فقال: «ليس فقط المعلمون الكذبة هم الذين يضعون العراقيل في طريق الوصول إلى الطريق الضيق، لكن الذي يخدع نفسه قد يفعل مثل هذا الأمر»[2].

ويواجهنا المسيح باختيار حاسم بين الطاعة والعصيان، ويدعونا إلى الالتزام غير المشروط بتعاليمه يظهر في الفكر والإرادة، وفي كل الحياة .. وأسلوبه هذا، يحذرنا من بديلين مرفوضين: الأول مجرد اعتراف بالفم (الأعداد ٢١-٢٣)، والثاني مجرد معرفة عقلية (الأعداد ٢٤-٢٧). وكلاهما لا يمكن يكون بديلاً للطاعة، بل قد يكونان قناعاً للعصيان. وقد وضَّح المسيح بحسم شديد أن حياتنا الأبدية تتوقف على طاعتنا الكاملة.

والفقرتان الأخيرتان من «الموعظة على الجبل» متشابهتان إلى حد كبير، نرى فيهما التباين بين الاستجابة الصحيحة لتعاليم المسيح، وعدم الاستجابة أو الاستجابة الخاطئة لهذه التعاليم. ولا يوجد طريق محايد بينهما، وبالتالي ينبغي أن يكون قرارنا حاسماً. **ومن هذا التباين، نرى التركيز على أنه لا يمكن أن يحلَّ أي شئ محل الطاعة العملية الحقيقية، فالمصير الأبدي في يوم الدينونة يتوقف على مدى استجابتنا للمسيح وتعاليمه في هذه الحياة. لكن الفرق الوحيد بين الفقرتين، هو أنه في الفقرة الأولى يصف لنا أناساً اعترفوا بشفاههم كبديلٍ عن الطاعة، وفي الفقرة الثانية نجد أناساً سمعوا بآذانهم.**



(١) مرجع سابق؛ Ryle, PP. 69,70

(٢) مرجع سابق؛ Tusker, P. 83

١. خطورة الاعتراف بالفم فقط
(٢١-٢٣)

«ليس كل من يقول لى: يارب يارب يدخل ملكوت السماوات بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السماوات، كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة. فحينئذ أصرح لهم أنى لم أعرفكم قط. اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم».

يضع المسيح، هنا، أمامنا أشخاصاً أسسوا فكرهم عن الخلاص، بناءً على ما قالوه للمسيح أو عنه. «ليس كل من يقول لى» (عدد ٢١). «سيقولون لى فى ذلك اليوم» (عدد ٢٢). **ويؤكد المسيح إن مصيرنا الأبدى لا يعتمد على ما نقوله الآن، أو ما سنقوله له فى اليوم الأخير، لكنه يعتمد على إن كنا نفعل ما يقول، وإن كان اعترافنا بالفم تصاحبه طاعة أدبية تامة.** صحيحٌ أن الاعتراف بالفم بالمسيح أمر حيوى للخلاص «لأنك إن اعترفت بفمك وآمنت بقلبك .. خلصت» (رو ١٠ : ٩ ، ١٠). ولا يمكن أن يعترف الإنسان اعترافاً حقيقياً بالمسيح، بدون عمل روح الله القدوس (١كو ١٢ : ٣).

لكن نوعية اعتراف الناس بأفواههم فقط، والذين يصفهم المسيح فى نهاية «الموعظة على الجبل». تبدو (على الأقل من خلال النظرة العابرة)، وكأنها جديرة بالإعجاب والاحترام.

فأولاً، كان اعترافهم مهذباً، لأنهم ينادون المسيح بلقب «رب». وفى أيامنا هذه، نتَّجه للمسيح بكل احترام وهيبة وندعوه «ربنا».

وثانياً، هذا الاعتراف كان سليماً لاهوتياً، فبالرغم من أن لقب «رب» الذى أطلقوه على المسيح لا يعنى أكثر من مجرد كلمة «سيد»، إلا أن القرينة توضح أن كلمة «رب» تحمل فى طياتها إشارة إلى أن الله أبوه. وأنه هو الديان. فهى تحمل معنى «الرب» أى الله. وبعد موته وقيامته / عرف المسيحيون الأوائل بالتأكيد معنى ما كانوا يلقبون به المسيح: إنه (رب). فهو اللقب الإلهى الذى يقابله «رب» فى اللغة اليونانية و«يهوه» فى اللغة العبرية. فنستطيع أن نقول إن الذين تكلم عنهم المسيح فى «الموعظة على الجبل» كان اعترافهم به رباً اعترافاً راسخاً مستقيماً يعنى أنه الله الرب.

لكن ثالثاً، كان اعترافهم حاراً، لا بارداً ولا جامداً، لأنهم بكل حماس قالوا: «يارب يارب»، كما لو كانوا يريدون أن يلفتوا الأنظار إلى قوة وغيرة تكريسهم.

رابعاً، كان هذا الاعتراف علنياً. لم يكن هناك اعتراض داخلى على إخلاصهم للمسيح، فالبعض تنبأ باسمه، وادَّعوا أنهم فى مناسبات عامة تكلموا عن شخصه وسلطانه وتعليمه.

لكن أكثر من هذا، فإن هؤلاء المعترفين باسمه (شفاهاً) قاموا أحياناً بمعجزات. وليوضِّح المسيح هذا الأمر، لجأ إلى أمثلة صارخة من الاعتراف الشفاهى، وممارسة بعض الأمور فوق الطبيعية التى تشمل النبوَّة، وأخراج الشياطين، وصنع المعجزات. لقد ركز هؤلاء الناس، فى كلامهم مع المسيح عن يوم الدينونة الأخير، على «الاسم» الذى به خدموا. وذكروا ثلاث مرات أنهم استخدموا «اسمه»، وفى كل مرة وضعوا «اسمه» أولاً لتأكيد هذه الحقيقة. لقد ادعوا أنهم اعترفوا باسم المسيح علانية، وباسمه تنبأوا، وأخرجوا شياطين وصنعوا قوات. ولا يوجد أى داعٍ لأن نشك فى صدق ادعائهم، وباسمه تنبأوا، وأخرجوا شياطين وصنعوا قوات. ولا يوجد أى داعٍ لأن نشك فى صدق ادعائهم، لأن المسيح يقول إن مسحاء كذبة وأنبياء كذبة يعطون آيات عظيمة وعجائب (مت ٢٤ : ٢٤)، وهذا يؤكد عليه أيضاً الرسول بولس (٢تس ٢ : ٩، ١٠).

فهل ترى يوجد اعتراف أفضل من مثل هذا الاعتراف المسيحى؟

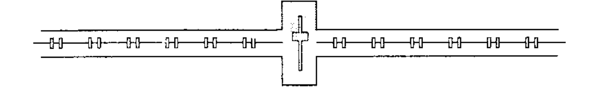
إننا أمام أشخاص دعوا المسيح، وقالوا عنه أنه «رب» بإخلاص، وباستقامة، وبحماس، فى حياتهم الشخصية، وفى خدمتهم الجهارية. فما الخطأ فى هذا؟

فى حد ذاته، لا يوجد خطأ، لكن كل شئ فى هذه الأمور خطأ لأنها عبارة عن أقوال بلا صدق، واعتراف بلا جوهر، لا يمكن أن يخلِّصهم فى يوم الدينونة. لذلك، تحول المسيح من «ماذا قالوا عنه، وما سيقولونه له؟» إلى «ماذا سيقول هو عنهم؟» إنه سيقرر قراره الحاسم: «حينئذ أصرِّح لهم» (عدد ٢٣). والكلمة اليونانية هنا (Homologeso) معناها «أنا سأعترف»، واعتراف المسيح لهم سيكون علانية كاعترافهم هم به، لكنه سختلف عن اعترافهم به، لأن اعترافه صادق وعملى. سيقول لهم هذه الكلمات المرعبة: «إنى لم أعرفكم قط. اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم»، فبالرغم من أنهم استخدوا «اسمه» بحرية كاملة، إلا أن «أسماءهم» لم تكن معروفة لديه.

إن سبب رفضه لهم، هو أن اعترافم كان من الفم لا من القلب، ولم يؤثر فى حياتهم. لقد قالوا له: «يارب يارب»، لكنهم لم يخضعوا لربوبيته، ولم يطيعوا إرادة أبيه السماوى. ويكتب لوقا فى حديثه عن الموعظة كلمات أقوى: «ولماذا تدعوننى يارب وأنتم لا تفعلون ما أقوله» (لو٦: ٤٦).

إن الفرق الجوهرى هو بين «القول» و«العمل». وهو السبب الذى جعل المسيح الديان يطردهم من أمامه، لأنهم «فاعلوا إثم». قد يدَّعون أنهم قاموا بأعمال عظيمة، وصنعوا قوات كثيرة. لكنهم فى حياتهم اليومية كان عملهم شريراً- لا صالحاً. إذاً، ما المنفعة التى تعود عليهم، عندما ينطقون «باسم» المسيح بشفاهم؟ لقد عبَّر بولس عن ذلك فيما بعد عندما كتب «ليتجنَّب الإثم كل من يسمِّى باسم المسيح» (٢تى ٢: ١٩).

ونحن الذين ندَّعى أننا مسيحيون، لأننا اعترفنا بالمسيح، سواء سرا أو جهراً، من خلال المعمودية والتناول من مائدة الرب، قد يبدو أننا نمجِّد المسيح بأن نقول له: «يارب، يارب»، ونردد قانون الإيمان، ونرنِّم ترنيمات نعبِّر بها عن تكريسنا للمسيح، بل قد نقوم بخدمات متنوعة باسمه. لكن مثل هذه الكلمات لا تبهر المسيح، لأنه يسأل عن دليل على إخلاصنا له، من خلال أعمال طاعتنا الصالحة.



٢. خطورة المعرفة العقلية فقط
(٢٤-٢٧)

«فكل من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها أشبِّهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لأنه كان مؤسساً على الصخر. وكل يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها يشبَّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت، فسقط وكان سقوطه عظيماً».

وإن كان التباين فى الفقرة السابقة بين «القول والعمل»، فالتباين هنا بين «السمع والعمل». ويقول المسيح، إن هناك شخصاً «يسمع أقوالى هذه ويعمل بها» (عدد ٢٤). وهناك شخص آخر «يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها» (عدد ٢٦). ثم يبيِّن الفرق بين السامعين المطيعين والسامعين العصاة فى المثل المعروف، مثل البنائين: فالرجل العقال «حفر وعمَّق» (لو ٦: ٤٨). وبنى بيته على الصخر. والجاهل لم يهتم بالأساس، «وبنى بيته على الرمل». وبنى كل منهما بيته، دون أن يلاحظ أحدٌ أى فرق بين البيتين، لأن الفرق كان فى الأساس الذى لا يراه أحد. لكن عندما هبت الرياح، ونزلت الأمطار، وجاءت الأنهار، وضربت البيتين بقوة (المطر على السقف، والأنهار على الأساس، والرياح على الجدران حسب شرح «بروس»)[1] سقط البيت المبنى على الرمال سقوطاً عظيماً.

وعلى هذا المنوال، نجد أن المسيحيين المعترفين بالمسيح (حقيقيين أو إسميين) متشابهون، فأنت لا تستطيع بسهولة أحياناً أن تميِّز الحقيقى من المزيف، لأن كليهما يظهران أنهما يبنيان حياة مسيحية. ولم يقارن المسيح المسيحيين المعترفين به بغير المسيحيين الذين لم يعترفوا به .. بل بين مسيحيين معترفين به، فالشئ المشترك بينهما هو أنهما سمعا أقوال المسيح «فكل من يسمع أقوالى هذه». وكلاهما أعضاء فى الكنيسة المنظورة، وكلاهما يقرأ

(١) مرجع سابق؛ Bruce, P. 135

الكتاب المقدس، وكلاهما يذهب إلى الكنيسة، ويستمع إلى العظات، ويشترى الكتب الدينية. **والسبب الذى من أجله لا تقدر أن تعرف الفرق بينهما، هو أن الأساس العميق لحياتهما مختفٍ عن الأنظار.**

إن المحك الأساسى، لا يكمن فى أنهما يسمعان تعاليم المسيح (أو حتى يوقرانها ويؤمنان بها)، بل المحك الأساسى يكمن فمى: هل هما يعملان بها أم لا؟ والعواصف هى التى تكشف الفرق! فالأزمات والكوارث تكشف أحياناً عن معدن الأشخاص، «فالشفقة الحقيقية لا يمكن أن تميز عن المزيفة - إلا من خلال التجارب»[1]. وإن لم تهب العواصف هنا، فأمام عواصف دينونة الله سينكشف الحقيقى من المزيف.

ويركز المسيح فى الفقرتين الأخيرتين فى «موعظته» على أن المعرفة العقلية عنه، أو الاعتراف به بالفم (مع أنهما أمران جوهريان فى حد ذاتهما) ليسا بديلاً عن الطاعة الحقيقية له، **فالمحك الأساسى لا يكمن فيما نقوله عن المسيح وللمسيح من كلمات مهذبة مستقمية حماسية، أو حتى إن كنا نسمع كلامه ونصغى إليه وندرسه ونتأمله ونحفظه، فيملأ عقولنا. لكن المحك هو: هل أعمل بما أقول وبما أعرفه؟ أو بلغة أخرى: هل سيادة الرب، الذى أعترف به، حقيقية واقعية فى حياتى؟**

وعند هذه النقطة، أريد أن أركز على أننا لا نعلِّم أن طريق الخلاص أو طريق الدخول إلى ملكوت السموات (عدد ٢١) يكون بأعمال طاعتنا الصالحة، لأن الإنجيل يعلِّم أن الخلاص هو نعمة مجانية من نقبلها بواسطة الإيمان. وقد ركز المسيح على أن الطاعة يجب أن تظهر فى الذين سمعوا الإنجيل وأعلنوا عن إيمانهم. فُهم يعبِّرون عن إيمانهم بأعمالهم. وقد كان

---

(١) مرجع سابق؛ Calvin, P. 370

الرسل دائماً يركزون على مثل هذا التعليم، الأمر الواضح فى كل الرسائل. ففى رسالة يوحنا الأولى نقرأ: «إن قلنا إن لنا شركة معه وسلكنا فى الظلمة نكذب .. من قال قد عرفته وهو لا يحفظ وصاياه فهو كاذب» (١يو ١ : ٦ و٢ : ٤). وتتحدث رسالة يعقوب عن مخاطر المعرفة العقلية، فيقول يعقوب إن المعرفة العقلية لا يمكن أن تخلِّص. وإن الذى يُخلِّص هو الإيمان الذى يبرهن نفسه بالأعمال، ويقول: كونوا عاملين بالكلمة لا سامعين فقط خادعين نفوسكم» (يع ١ : ٢٢-٢٥ و٢ : ١٤-٢٠).

وعندما نطبِّق هذه الكلمات على أنفسنا، ندرك أن الكتاب المقدس «كتاب خطير» لمن يقرأه، والكنيسة «مجتمع خطير» لمن ينضم إليها، لأن قراءة الكتاب تُسمعنا كلمات المسيح، وانضمامنا للكنيسة يعنى أننا نعترف شفاهاً أننا نؤمن بالمسيح، وكنتيجة لهذا نحن هذا المجتمع الذى وصفه المسيح أنه «يسمع أقوالى ويقول لى: يارب يارب». وهكذا فعضويتنا فى الكنيسة تضع علينا مسئولية خطيرة. هى مسؤولية التأكد من أن ما نقوله وما نعرفه يُترجم إلى ما نعمله.

وهكذا تنتهى «الموعظة» بذات التركيز على ضرورة الأختيار الحاسم، الأمر الذى رأيناه فى «الموعظة» ككل. فالقوانين الأخلاقية التى وضعها المسيح أمام أتباعه، ليست قوانين سهلة، إنما هى مجموعة قيم ومثل متميزة عن قيم العالم ومثله. لقد دعانا لننبذ أخلاق العالم، ونتمسك بأخلاقه المغايرة. وفى دراستنا لهذه «الموعظة»، سمعناه يكرر مرة ومرات دعوته لشعبه ليكونوا متميزين ومختلفين عن شعوب العالم. وقد كان واضحاً عندما أرسلنا لنكون «ملح الأرض ونور العالم». فمثل هذه التشبيهات تضع المسيحيين والمجتمع غير المؤمن على طرفى نقيض، يسهل التمييز بينهما فالعالم مثل الطعام الفاسد الملئ بالجراثيم التى تسبِّب انحلاله، لكن أتباع المسيح هم ملح يعيقون أو يوقفون مثل هذا الانحلال. والعالم

مكان مظلم مرعب موحش، لا نور فيه، يعيش على الظلال، لكن أتباع المسيح ينبغى أن يكونوا نوراً يقشع ظلمته ووحشته.

ومنذ أن تكلم المسيح عن المؤمن «كملح ونور»، بدأ الفرق يتضح بين مقاييس العالم ومقاييس المؤمن، وبدأ المسيح يعلن عن نوعية طريقه، فقال: إن برنا ينبغى أن يزيد، لأنه ينبع من قلوبنا ... ومحبتنا ينبغى أن تتسع؛ فتشمل أعداءنا ... وشفقتنا ينبغى أن تبتعد عن التظاهر والرياء، وصلواتنا ينبغى أن تبتعد عن التكرار الفارغ كالأمم ... وينبغى أن تكون صدقاتنا، وصلواتنا، وأصوامنا من القلب، وتتفق مع حياتنا المسيحية الصادقة.

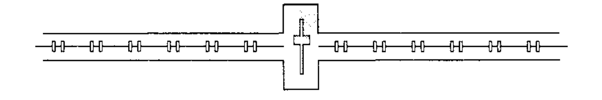
لقد دعانا المسيح، لأن نكنز - لا على الأرض حيث تفسد الكنوز، لكن نكنز الكنز الذى لا يفنى فى السماء. لقد أوقفنا المسيح أمام تحدى اختيار من يسود علينا: الله أم المال والممتلكات؟ أما بالنسبة لطموحاتنا (الأمر الذى يشغل أذهاننا) فالمؤمن لا يضع طموحاته فى أمن الماديات، لكن كل ما يصبو إليه هو امتداد ملكوت الله وبره فى العالم. لقد دُعينا - لا لنشاكل هذا العالم (سواء فى تديُّن الفريسيين أو عدم تدَّين الأمم)، لكن لنتشبَّه بأبينا السماوى الذى يصنع السلام، ويحب الأشرار والظالمين. فعلينا أن نتشبه بالله - لا بالناس؛ فيظهر أننا بالحقيقة أبناء الله (٥ : ٩ و٤٤ - ٤٨).

وهنا، يضع المسيح أمامك البدائل: إما أن تتبع الجموع. أو تتبع أبانا الذى فى السموات. وإما أن تكون قصبة فى مهب ريح الفكر العالمى الدنيوى، أو أن تكون ثابتاً خاضعاً لقوانين كلمة الله التى فيها ترى إعلانه عن طبيعته وإرادته. فالغاية الأساسية «للموعظة على الجبل» هى تقديم هذا البديل لنا، وتضعنا أمام حتميَّة الاختيار.

ولهذا السبب، فختام «الموعظة على الجبل» مناسب جداً، فيها قدَّم لنا المسيح صورتين: الصورة الأولى عن طريقين: كرب ورحب. والصورة الثانية: عن بيتين، أحدهما مؤسس

على الصخر والآخر على الرمل، ولا يمكن أن تحتار بينهما. ويوجد طريق واحد يؤدى إلى الحياة، وطريق آخر يؤدى إلى الهلاك. **ولما لا يوجد إلا بيت واحد يصمد أمام العواصف والأخطار، نكون أمام أخطر آختيار: أخطر من اختيار حرفة الحياة، أو حتى اختيار شريك الحياة، إنها اختيار الحياة ذاتها.**

فأى الطريقين ستختار لتسير فيه؟ وأى الأساسين ستختار لتبنى عليه؟



خاتمة الأحداث

الخلاصة: من هو هذا المعلم؟

[أصحاح ٧ : ٢٨ ، ٢٩]

«فلما أكمل المسيح هذه الأقول بُهتت الجموع من تعليمه لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة».

يعلن كثيرون حتى من أصحاب الديانات الأخرى، بل وحتى من الذين لا يدينون بأى دين، أنهم مستعدون أن يقبلوا «الموعظة على الجبل». لأنها تحتوى حقائق لا تقبل الجدل، فهى تقول: «طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون .. أحبوا أعداءكم .. لا يقدر أحد أن يخدم سيدين .. لا تدينوا لكى لا تُدانوا .. فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم أيضاً بهم»، ويقولون: «ما أجمل المسيح الناصرى المعلم الأخلاقى فى روعته وبساطته! هنا نرى لب رسالته قبل أن تُغلَّف بإضافات المفسرين التى لا فائدة منها. هنا نرى المسيح فى حقيقته، بتعاليمه الأخلاقية البسيطة التى لا تحمل عقيدة أو مذهباً. إنه نبى البر الصادق الذى يقدم نفسه ليس أكثر من معلم بشرى، وهو يطلب منا أن نفعل الصلاح ونحب بعضنا بعضاً».

قال ذات مرة هندوسى «لستانلى جونز»: «أنا لا أفهم المسيح صاحب المذاهب والعقائد، لكنى أحب بل وأنجذب إلى المسيح صاحب (الموعظة على الجبل) وشهيد الصليب». وبالمثل، قال له أحد الصوفيين: «عندما قرأت (الموعظة على الجبل) لم أستطع أن أحبس دموعى»(١).

إلا أن مثل هذه النظرة الشائعة بالنسبة «للموعظة على الجبل» لا تمثل نظرة فاحصة لها، وبها خطأ مزدوج: خطأ بالنسبة لنظرة الناس للمعلم الذى قدم «الموعظة»، وخطأ بالنسبة لنظرة الناس لما تقدمه من تعليم.

فلو نظرنا نظرة أكثر تدقيقاً للأمرين، ندرك أشياء كثيرة مخالفة. ففى الفصل الماضى، تأملنا تفرُّد وتميُّز تعاليم المسيح، من خلال عرضه لطبيعة الأخلاق المسيحية المغايرة للحضارة، ودعوته للتلمذة الحقيقة. لكن يبقى أمامنا أن نتأمل تفرُّد المعلم ذاته. **وما سنكتشفه هو أنه من المستحيل أن نفرِّق بين (المسيح) صاحب «الموعظة على الجبل» و(المسيح) الذى نراه فى «بقية العهد الجديد». بل على العكس، إن مُقدِّم «الموعظة على الجبل» هو ذاته شخص المسيح السامى، ابن الله الحى.**

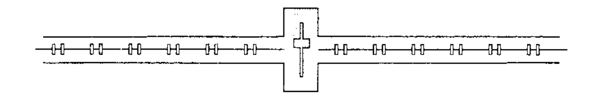
(١) Stanley Jones, *Christ at the round table,* Abingdon, 1928. Pp.39,60

لذلك فالسؤال الأساسى الذى يواجهنا ونحن ندرس «الموعظة على الجبل» ليس : «ماذا أنت فاعل بهذه التعاليم؟» بل : «من هو هذا المعلم بالنسبة لك؟». وبالتأكيد كان هذا رد فعل الذين سمعوا «الموعظة»، فيقول الكتاب: فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بُهت الجميع من تعليمه لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة» (مت ٧ : ٢٨ ، ٢٩).

لقد انذهل سامعو «الموعظة على الجبل» (الجموع والتلاميذ مت ٥ : ١) من سلطان المسيح غير العادى. لم يتلعثم ولم يتردد فى كلامه، ولم يقدم تعاليم قابلة للجدل أو تحتمل أكثر من معنى، ولا كان يمكن أن يسأل أحدٌ إن كانت تعاليمه صواباً أو خطأً، ولم يقدم تعاليم مبالغاً فيها أو مزخرفة. بالعكس، فقد علَّم بكل تأكيد ووضوح، ووضع القانون الكامل لمواطنى ملكوت الله، «فبُهتت» الجموع. والكلمة اليونانية هنا تعنى: «تحيَّرت حتى انعقد لسانها!»[1]. وقال «أ.م. هنتر»: «بعد ١٩٠٠ سنة مازلنا نُبهت ونتعجب من هذه التعاليم»[2].

ومن المفيد أن نحاول تحليل سلطان المسيح هذا، والذى ظهر فى هذه «الموعظة».

فعلى أى أساس قام سلطانه؟ ما هو إدراكه الذاتى عن نفسه حتى يتكلم بهذه الطريقة؟ وما هى المفاتيح التى نجدها فى «الموعظة على الجبل»، والتى تدل على إدراك المسيح لشخصيته ورسالته؟ وسوف لا نذهب بعيداً لنجد إجابة على كل هذه التساؤلات.



(١) مرجع سابق؛ Lenski, p. 314

(٢) مرجع سابق؛ Hunter, p. 96

١. سلطان المسيح .. كالمعلم

لقد تعجبت الجموع من تعاليمه، لأنه كان يعلِّمهم كمن له سلطان. أولاً: لقد قدَّم نفسه كمعلم، وأذهل سامعيه بمادة تعليمه، وبطريقة تعليمه، وبطبيعة تعليمه. وبالطبع كان هناك آلاف المعلمين المعاصرين للمسيح من اليهود أو من غيرهم، لكنه كان متميزاً جداً عنهم جميعاً. فما هو هذا التميُّز؟

لقد اتخذ لنفسه خطاً متميزاً فى أنه أعلن الحق المطلق. كان يهودياً، لكن لم تكن رسالته يهودية، وفسر ناموس موسى بطريقة أبرز فيها أنه ناموس الله، ولم يكن ما يقدمه أخلاقاً مرتبطة بشعب معين (اليهود) أو بمكان معين (فلسطين)، لكنها كانت مطلقة. فهى لكل العالم. كان يتكلم وهو يعرف ماذا يريد أن يقول، وقد قال فى مكان آخر: «إننا إنما نتكلم بما نعلم (يو ٣: ١١) . كان يعرف من هو العظيم فى ملكوت الله ومن هو الأصغر، ومن هو «المطُوَّب فى نظر الله ومن هو التعيس، ومن هو الطريق الذى يؤدى إلى الحياة، وما هو الطريق المؤدى إلى الهلاك، وبكل ثقة، أعلن عن من سيرثون الأرض، ومن سينالون الرحمة، ومن سيعاينون الله، ومن هم الذين سيطلق عليهم «أبناء الله» .. فكيف كان متأكداً من هذه الأمور؟

لقد بحث المفسرون مفردات لغة تسعفهم. ليصفوا جمال تعاليم المسيح التى تفوح بهذه الرائحة العطرة. وسأقدم ما قاله بعض الذين أرادوا أن يصوِّوا المسيح كملك أوم معطى الناموس. فقال «سبرجون»: «كان يتكلم كملك»، «بثقة ملوكية وبسلطان ملوكى» كما قال بالأمر، و«بسلطة عليا» كما قال «ستونهاوس»، وقال «جريشام ماكشن»: «لقد قال المسيح إنه صاحب الحق فى سن قوانين ملكوت الله»، ودمج «چيمس دنى» صورته كملك مع صورته كمعطى الناموس، وقال: «ظهر فى الموعظة سلطانه السامى على ضمير وإرادة وعواطف الناس، وسلطانه الأخلاقى السامى الذى به سنَّ القوانين بدون أى أخطاء، طالباً طاعتها»[١] وكتب «كلفن»: «بُهتت الجموع بجلاله غير العادى الذى لا يوصف والعجيب، فجذب انتباههم إليه»[٢].

وقد قارنه من سمعوه بكثير من المعلمين الآخرين المعروفين لهم، خصوصاً من الكتبة. والذى أذهلهم أنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة، فلم يكن للكتبة سلطان فى ذواتهم، وكان

(١) *Studies in Theology* (Lectures delivered in 1894: Hodder, 1906), p.31,42.

(٢) مرجع سابق؛ Luther, P. 371

واجبهم أن يكونوا أمناء فى حفظ التقليد الذى تسلموه من الآباء، فكانوا بمثابة حفظة الآثار، الذين يبحثون فى التفاسير، ويفتشون ما سبق أن كتبه أصحاب الأسماء اللامعة من معلمى الناموس السابقين. وهذا يعنى أنهم كانوا يستمدون سلطانهم من سلطان المشهورين الذى اقتبسوا منهم.

ولم يكن المسيح قد تعلم على أيدى الكتبة (يو ٧ : ١٥)، بل فضح تعاليمهم المستمدة من تقاليد الآباء وأزاحها من المشهد. ولم يكن المسيح صاحب سلطان اجتماعى يدعو إلى الوقار. لكنه تكلم كلاماً جديداً من عنده سبى قلوب البعض وأغضب البعض! وقد لخَّص «أ.ب. بروس» الفرق بين تعاليمه وتعاليم الكتبة بقوله إن الكتبة كانوا يتكلمون «من خلال سلطة»، أما المسيح فكان يتكلم «بسلطان مطلق».

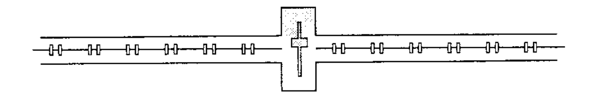
وإن لم يكن تعليمه كالكتبة، فهو أيضاً لم يكن يعلِّم مثل أنبياء العهد القديم الذين لم يشاركوا الكتبة فى تمسكهم بتقاليد الماضى، بل كانوا يعيشون فى الحاضر ويتكلمون باسم يهوه. فكانوا الصوت الحى للإله الحى. وقد أعلن المسيح أن كلماته هى كلمات الله: «تعليمى ليس لى، بل للذى أرسلنى» (يو ٧ : ١٦).

لكن الفرق بين تعليمه وتعليم الأنبياء، أن الأنبياء كانوا يفتتحون تعليمهم بالقول: «هكذا قال الرب»، بينما لم يستخدم المسيح هذه العبارة قط، بل كان يفتتح كلامه بالقول: «الحق الحق أقول لكم»، فكان يتكلم باسمه وبسلطانه، لأنه يدرك تماماً أن سلطانه مثل سلطان أبيه، لأنه هو «فى الآب والآب فيه» (يو ١٤ : ٨-١١). وقد وردت عبارتا «الحق أقول لكم» و«أقول لكم» ست مرات فى «الموعظة» (مت ٥ : ١٨ و٦ : ٢، ٥، ١٦، ٢٥، ٢٩)، وكلها على سبيل التحديد فى المتباينات الستة. ففى الأصحاح الخامس، سنجد هذه العبارة بقوة وتأكيد «أما أنا فأقول لكم»، فلم يكن يناقض موسى كما رأينا من قبل، بل كان يناقض تحريف الكتبة لما قاله موسى. وبهذا، كان يناقض التقليد الموروث منذ قرون؛ ليُحِلَّ محله كلماته الصادقة المستمدة من سلطانه فى تفسير ناموس الله. وهكذا وقف معلماً شامخاً - لا مجرد شارح للناموس. «كان يسن القوانين، ويعطى الوصايا والنواهى والوعود بسلطانه الشخصى البسيط المجرد»[1].

لقد كان متأكداً من صدق وصلاحية وشرعية تعاليمه، حتى أنه قال إن المحك الذى يحكم به على جهل الإنسان أو حكمته هو مدى قبوله أو رفضه لتعليمه، فالحكيم هو الذى يبنى حياته على الكلمة بطاعتها، وكل من يرفض الكلمة جاهل، والمسيح «الحكمة المتجسد» قد عبَّر عن قول

(١) مرجع سابق؛ Plummer, P. 118

سفر الأمثال: «أما المستمع لى فيسكن آمناً» (أم ١ : ٣٣)، فبالاستماع له نكون قد استمعنا إلى «الذى صار لنا حكمة من الله»، فيستطيع الإنسان أن يتعلم أن يكون حكيماً.

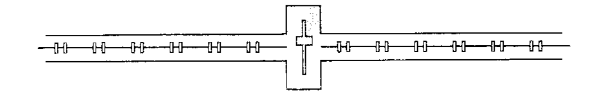


٢. سلطان المسيح .. كالمسيا

هناك دليل فى «الموعظة على الجبل»، كما فى كل تعاليم المسيح أنه كان يعلِّم أنه أتى إلى العالم فى إرسالية، فقال: «إنى جئت» فى أماكن كثيرة (مت ٥ : ١٧ و٩ : ١٣ و١٠ : ٣٤ و١١ : ٣ ، ١٩ و٢٠ : ٢٨). كما قال إنه «أرسل» (مت ١٠ : ٤٠ و١٥ : ٢٤ و ٢١ : ٣٧). وفى «الموعظة» قال على وجه الخصوص: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس والأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل».

ومثل هذا الإعلان، قد لا يثير الجدل إلا إذا أردنا أن نفهم مضمونه. فقد أكَّد المسيح أن جميع ما جاء فى الناموس والأنبياء من نبوات ورموز ستجد إتمامها فى شخصه، وأن كل ما ورد فى العهد القديم يشير إليه. **فلم يظن فى نفسه أنه نبى آخر، ولا حتى أعظم الأنبياء، لكن هو إتمام كل النبوات. كان راسخاً فى أعماقه أن يوم الانتظار قد انتهى، وأن فيه قد تمت جميع النبوات، فكانت أولى الكلمات التى سُجلت فى بداية خدمته الجهارية: «قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله»** (مر ١ : ١٥ ومت ٤ : ١٧).

ونجد فى «الموعظة على الجبل» خمس إشارات مباشرة عن ملكوت الله (٥ : ٣ ، ١٠ و٦ : ١٠ : ٣٣ و٧ :٢١). ومن هنا، يتضح أن المسيح بنفسه دشن الملكوت، وله السلطان أن يسمح للناس بالدخول إليه، فيمنحهم بركاته. **وكل هذا يعنى أن يسوع المسيح كان يعرف أنه هو «المسيا» ، مسيح الله الذى تنبأ عنه أنبياء العهد القديم.**



٣. سلطان المسيح .. كرب

فى مناسبة سابقة، لاحظنا أنه عندما ينسب لقب «الرب» للمسيح، لا يعنى بالضرورة أن هذا اللقب يعنى «الله». وكما كتب «ن.ب. ستونهاوس»: «ينبغى أن نضع فى حسابنا أن الكلمة اليونانية المترجمة (الرب) هى كلمة مرنة، ولا تعنى دائماً أن المقصود منها هو الرب بمعنى الله، وليس فى كل المناسبات التى قيل عن المسيح إنه (الرب) كان المقصود أنه معادل لله، فربما قيلت من قبيل الأدب والاحترام كلقب أسمى من لقب (سيد)[1].

لكننا نجد من بعض القرائن الكتابية، أن المسيح بكل حزم قَبِلَ المعنى الكامل الذى يحمله هذا اللقب، فقال عن نفسه: «ربكم»، وذلك فى سياق حديثه عن نفسه «كابن الإنسان». وفى الرؤية التى رآها دانيال، قال عن ابن الإنسان: «أعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً .. سلطانه سلطان أبدى» (دا ٧ : ١٤ ومت ٢٤ : ٣٩ ، ٤٢). واقتبس المسيح عن نفسه كلمات داود الذى قال عنه: «ربى» الذى سيجلس عن يمين الله (مر ١٢ : ٣٥-٣٧).

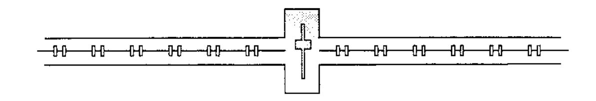
وتساعدنا القرينة لنحكم كيف تحمل كلمة «رب» معنى الألوهية والسيادة. فعلى سبيل المثال: تعليقه على قول من نادوه: «يارب، يارب» (مت ٧ : ٢١-٢٣)، فلم يعلِّق المسيح على استخدامهم للقب، بل قبِله منهم لأنه يليق بمجده واسمه. إنما التعليق الذى قاله، كانِ يدور حول استخدامهم لهذا اللقب بدون أن يفهموا معناه الحقيقى. فهو ليس مجرد «سيد» يُحترم، لكنه «رب» يُطاع. وفى «الموعظة» كما وردت فى إنجيل لوقا يقول: «ولماذا تدعوننى يارب وأنتم لا تفعلون ما أقوله؟» (لو ٦ : ٤٦)، لأنه رأى فى ذاته أكثر من مجرد معلم ينصح الشعب فيسمع أو لا يسمع لنصيحته، لكنه سيدهم وربهم الذى يقدم لهم الوصايا ويتوقع منهم الطاعة التامة، ويؤكد لهم أن حياتهم الأبدية تتوقف على طاعتهم.

وبالطبع لم يكن المسيح مجرد معلم ناموسى عادى، ولكن جرت العادة فى العهد القديم أن يجلس التلميذ عند قدمى معلمى الناموس ليتعلم التوراة.

فنستطيع أن نقول إن المسيح، من هذا المنطلق، كان معلماً للناموس، لأنه علَّم تلاميذه المعنى الحقيقى للتوراة. لكن توقعاته كانت أكثر بكثير من مجرد أن

(١) مرجع سابق؛ Stonehouse, P. 254

يفهموا تعاليمه، إذ كان يتوقع منهم التكريس الكامل له. لهذا لم يكن مقتنعاً بأن يدعوه سامعوه «معلماً للناموس»، لأنه فى واقع الأمر كان «معلمهم وربهم» (يو ١٣ : ١٣)، وبالتالى فهم لم يصيروا مجرد «معلمين» يحفظون وينشرون تعاليمه فقط، بل كانوا أيضاً شهوداً له.



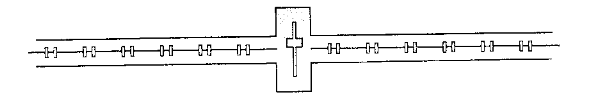
٤ـ سلطان المسيح .. كالمخلص

واضح من «الموعظة على الجبل» أن المسيح كان يعرف طريق الخلاص وعلَّم به، وكان يعلن من هو المُطوَّب السعيد ومن هو التعيس. وأشار إلى الباب الضيق الذى يؤدى إلى الطريق الكرب والذى ينتهى بالحياة الأبدية. وكان واضحاً جداً عندما أعلن عن نوع البيت الذى سيصمد أمام عواصف الدينونة، على أساس يُؤسَّس. **لكن إن تعمقنا أكثر فى رسالته؛ سنجد أنه لم يعلِّم فحسب عن الأخلاق، لكنه كان واهب هذا الخلاص. بل حتى فى التطويبات، يظهر المسيح كمن يوزع البركات، ويعطى الملكوت**. واقتبس «البروفسور إرميا» من كلمات «ج. شنيويند» قوله: «التطويبات شهادة مختفية للمسيح عن نفسه كمخلص المساكين والحزانى»[١].

ولكن، تعالوا بنا، نتأمل كيف قال المسيح لسامعيه إن مجموعة من فلاحى فلسطين يكونون ملح الأرض ونور العالم، وكيف يصبحون أقوياء حتى يكون لهم مثل هذا التأثير فى العالم، فيمنعون الفساد (أو على الأقل يعطلونه)، وينيرون ظلمته. فهل نعرف لماذا؟

إن السبب الوحيد وراء هذا أنهم تبعوا المسيح .. لم يكن المسيح شريراً كما وصف كل الجنس البشرى (مت ٧ : ١١)، واستطاع أن يضفى على تلاميذه بعض صلاحه فيجعلهم «ملحاً». ولأنه لم يشارك فى ظلمة العالم، بل كان هو «نور العالم» (يو ٨ : ١٢)؛ استطاع أن يعطيهم النور ويجعلهم يضيئون.

ومن الجميل نلاحظ أن خدمة المسيح العملية (مت ص ٨ ، ٩)، قد جاءت مباشرة بعد الموعظة على الجبل (متى ٥ـ٧)، التى تمثل تعاليم المسيح. وهذا يُظهر سلطانه فى غفران الخطايا، ومنح الغفران للمفلوج (مت ٩ : ٢٠ـ٢٦). وقال فى تخليصه للخطاة، إنه الطبيب الذى يشفى كل مرض (مت ٩ : ١٢).



(١) مرجع سابق: Jeremias, P. 24

٥ ـ سلطان المسيح .. كالديان

فى «الموعظة على الجبل» حديث كئيب عن يوم الدينونة القادم، فقد رغب المسيح أن تصل هذه الحقيقة إلى أذهان أتباعه وحياتهم، فأعلن عن شروط الخلاص، وحذَّر من أسباب الهلاك، خصوصاً فى حديثه عن الطريقين اللذين ينتهيان بمصيرين.

لكن الأمر الذى يلفت أنظارنا أكثر من مجرد حديثه عن الدينونة القادمة، هو إعلانه عن أنه هو «الديان» (مت ٧ : ٢٢ ، ٢٣) ، فقد استخدم ثلاث مرات ضمير المتكلم «لى .. إنى .. عنى» .

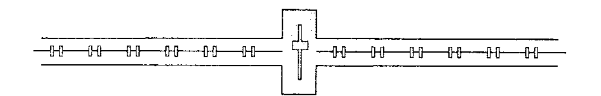
فأولاً، هو نفسه سيكون الديان، فيفحص الدلائل ويصدر الأحكام، حيث يقول: «فى ذلك اليوم كثيرون سيقولون لى: يارب يارب» ، ثم يقول: فحينئذ أصرح لهم» . لذلك، فالمدَّعون سيرفعون ادَّعاءهم له، وهو الوحيد الذى سيحكم فى القضية، وليس سواه يعلن مصيرهم الأبدى!

وثانياً، سيكون هو بنفسه قانون الحكم، إذ يستخدم البعض اسمه الذى استخدموه فى خدمتهم كدليل لقبولهم، فيرفض هذا الادعاء، ويقول لهم: «إنى لم أعرفكم قط» . إن مصير الناس يعتمد ـ لا على معرفتهم العقلية، ولا على استخدامهم لاسمه، لكن على معرفتهم الشخصية به . فالفيصل هنا ـ لا خدمتهم للمسيح، بل علاقتهم الشخصية به .

وثالثاً، يتعلق الحكم أيضاً بشخصه، «اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم» . إن الهلاك (متى ٧ : ١٣) ، والسقوط (مت ٧ : ٢٧) اللذين أعلنهما يتحققان فى طرد الإنسان من محضر الرب . ولا يوجد مصير أسوأ من هذا يمكن أن يتخيله الإنسان، فهو الانفصال الأبدى عن الرب .

فهل جعل نجار الناصرة نفسه محور يوم الدينونة ؟

لقد أعلن أنه «الديان» ، وتصف الأصحاحات الأخيرة من إنجيل متى هذا بتفصيل أكثر، فتوضح كيف سيجلس على كرسى مجده ليدين جميع الشعوب (مت ٢٥ : ٣١) . **إلا أن أساس الدينونة هو موقف الناس منه ، وطبيعة الدينونة هى إنفصال الناس عن محضره ، ولا أظن أنه توجد كلمات مدهشة ومذهلة أقوى من هذه الكلمات التى تعبر عن طبيعة المسيح كديان.**

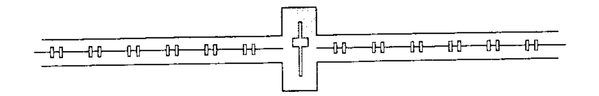


٦ـ سلطان المسيح .. كابن الله

لقد قدم لنا المسيح فى «الموعظة على الجبل» تعليماً شاملاً عن الله، فهو الخالق، وهو الله الحى الذى يشرق شمسه ويرسل المطر، وهو الذى يُطعم طيور السماء ويكسو زنابق الحق، ويزوِّد الإنسان بمطالب الحياة. لكنه أيضاً الملك الذى قدم للإنسان طريق خلاصه وقوانين بره من فم المسيح. وفوق الكل، وبفضل المسيح، يستطيع المؤمن أن ينادى الله «يا أبانا».

وفى حديث المسيح لتلاميذه عن الله، كان يشير إليه بقوله «أبوكم الذى فى السموات»، فهم أولاده، وعليهم أن يُظهروا رحمته ويثقوا فى إمدادات حبه، وإليه يأتون مصلين واثقين فيه. عالمين أن كل ما يعطيهم ليس إلا عطايا صالحة.

وفى كل هذه الأشياء، كان المسيح يدعو الله «أباكم». ومرةً أشار إليه بأنه أبوه «إرادة أبى الذى فى السموات» (مت ٧ : ٢١). وعندما علَّم تلاميذه الصلاة قال: «صلوا أنتم هكذا: أبانا الذى فى السموات». لكنه لم يقُل إطلاقاً «أبونا السماوى»، فيضع نفسه فى مستوى تلاميذه فى العلاقة مع الآب السماوى. **فمع أنه أعطى تلاميذه امتياز أن يخاطبوا الله بذات اللقب الذى يستخدمه هو «أبا الآب»، إلا أنه كان يعرف تماماً أن الله أبوه بمعنى متميز ومتفرد ومختلف تماماً عن علاقة التلاميذ بالله كالآب**. وقد عبَّر عن هذا فى قوله: «كل شئ قد دُفع إلىَّ من أبى وليس أحد يعرف الابن إلا الآب ولا أحد يعرف الآب إلا الابن ومن أراد الابن أن يعلن له» (مت ١١ : ٢٧). وإن كانت علاقة المسيح بالله علاقة الابن، إلا أنه لم يذكر هذا بصراحة فى «الموعظة على الجبل»، لكننا نجدها كامنةً فى اس خدامه كلمات: أبى، أبانا، أبوكم».



٧ـ سلطان المسيح .. كالله

عندما نجازف لنفهم الطبيعة الإلهية التى كان المسيح يدركها عن نفسه، فنحن نحاول أن ندخل إلى أعماق محيطات لا نستطيع أن نسبر غورها. لقد عرفنا أن المسيح كان بالنسبة لله «ابنه»، وكان يعلم أن هذه البنوة متفردة ومتميزة.

لكننا الآن سنخطو خطوة أعمق، لأننا أمام دليل يؤكد أنه كان يقول عن نفسه إنه معادل لله، بل هو والله واحد. وإن كان لم يذكر هذا بحصر اللفظ فى «الموعظة على الجبل»، لكن فى أكثر من مكان يتكلم عن نفسه كما لو كان الله يتكلم عن نفسه. وسأقدم ثلاثة أمثلة على ذلك:

أولاً: التطويبات الأخيرة، قيلت التطويبات الثمانى الأولى بضمير الغائب «طوبى للودعاء ... للرحماء .. لصانعى السلام»، لكن التطويبة التاسعة جاءت بضمير المخاطب: «طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين. افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم فى السماوات فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم» (متى ٥ : ١١ ، ١٢). إن الذى يوقفنا أمام هذه الآية، هو التشابه بين التلاميذ والأنبياء، فقد توقَّع المسيح أن يُضطهَد تلاميذه من أجله، وشبَّه هذه الاضطهادات بتلك التى حدثت للأنبياء الذين تألموا بسبب أمانتهم لله. وتلاميذ المسيح يتألمون بسبب أمانتهم للمسيح. والصورة الآن واضحة: تلاميذه مثل أنبياء الله. وقد أرسلهم فيما بعد، كما أرسل الله الأنبياء من قبل (مت ١٠). فهو يضع نفسه فى مرتبة الله. **ولذلك كتب «القديس يوحنا فم الذهب» (فى نهاية القرن الرابع الميلادى) : «هنا، بطريقة خفية، يعلن المسيح عن ألوهيته ومعادلته لله فى الجوهر»**[1].

ثانياً: نرى ذات المعنى، فعندما قال إن الذى يناديه بمجرد كلمات: «يارب يارب» لن يدخل ملكوت السموات، فكأنه يكمل حديثه ويقول: «بل الذى يخضع لسيادتى» أو: «بل الذى يطيعنى». وجاء فى لوقا: «ولماذا تدعوننى يارب يارب وأنتم لا تفعلون ما أقوله» (لوقا ٦ : ٤٦). لكن طبقاً لإنجيل متى (٧ : ٢١) يكمل المسيح حديثه ويقول: «بل من يفعل إرادة أبى الذى فى السموات». **وهنا، يعتبر المسيح طاعته كطاعة الرب، وعمل إرادته كعمل إرادة الآب، فالأمران شئ واحد،**

(١) مرجع سابق؛ Chrysostom, Pp. 107f

وبالتالى فهو يضع نفسه فى مرتبة الله. ونحن نقف أمام أدلة ألوهيته عندما ندرك أنه لم يخرج عن سياق حديثه ليؤكد هذه الحقيقة عن نفسه، فلم يكن هذا غرضه فى هذا الجزء، لكن هذه الإشارة عن إدراكه أنه هو «الله» كانت تنساب منه، وهو يتكلم عن أمر آخر، هو معنى التلمذة الحقيقية.

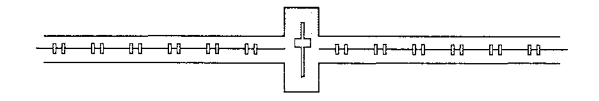
ثالثاً: كما سبق ورأينا أن المسيح تحدث عن الدينونة فى اليوم الأخير، كان سامعوه يعلّمون أن الله هو الديان، وكان المسيح أيضاً يعلّم هذا، ولم يذكر المسيح بطريقة مباشرة أن الله أعطاه حق دينونة العالم، لكن كل ما ذكره أنه فى اليوم الأخير سيقف الناس أمامه، وسيكون هو «الديان» الذى سيحكم عليهم. ويقوله هذا، نجده أيضاً يعادل نفسه بالله.

هذا هو «المسيح الحقيقى» معلم البر البسيط المحب، الذى تحوى «موعظته على الجبل» تعاليم أخلاقية أدبية عامة. إنه يعلّم بسلطان الله، ويعلم ناموس الله، ويتوقع أن يبنى الناس بيوت حياتهم على كلمته، ويقول إن كل من يصنع هذا هو إنسان حكيم سينجو من الدينونة. لقد قال إنه أتى ليكمّل الناموس والأنبياء، وإنه الرب الذى ينبغى أن يُطاع، والمخلّص الذى يهب البركات، وحول شخصه تدور كل أحداث الدينونة فى اليوم الأخير. لقد تحدث عن الله بطريقة متفرّدة باعتبار أنه أبوه. ومضمون كلامه فى النهاية أن ما يفعله الله يفعله هو أيضاً، وما يفعله الناس له يفعلونه لله.

ولا يمكن أن نتجاهل كل أقوال المسيح هذه عن نفسه، فقد جاءت بطريقة تلقائية طبيعية متواضعة غير مباشرة، حتى أن كثيرين لم يلاحظوها، لكنها موجودة، ولا يمكن لأى عاقل أن يتجاهلها. وهى إما ادعاءات حقيقية، أو أنها كاذبة. ولو كانت كاذبة لكان المسيح يعانى من «تطرف جنونى شديد» (كما يقول سى.إس. لويس). فهل ياترى، مثل هذه التعاليم الأخلاقية السامية المقدَّمة فى «الموعظة على الجبل» تخرج من فم شخص مختل عقلياً؟ لو وصل أحد إلى مثل هذا الاستنتاج، يكون استنتاجه مدعاة للسخرية الشديدة.

لا بديل عن أن نأخذ كلام المسيح مأخذ الجد، وأن نقبل فكره عن نفسه كشيٍ ثمين وغالٍ، ونستجيب «لموعظته على الجبل» بجدية شديدة. فنحن نرى فيها وصفه لمجتمع الله المغاير، ونرى قيماً ومبادئ وأولويات ملكوت الله. وفى

كثير من الأحيان، تنحرف كنائسنا عن مثل هذا التحدى وتتشبَّه بالعالم، فلا يقدر أحد أن يميِّزها عن العالم، لأنها تكون قد فقدت ملوحتها وأظلم نورها، وهجرت مبادئها ومثلها، فلم تعُد تقدم أى دليل على أنها «مجتمع الله الجديد» الذى يعيش فى أفراح وقوة الدهر الآتى. ولكن عندما تعيش جماعة المؤمنين وفقاً لقوانين الله؛ سينجذب العالم لهم، ويتمجد الله. وعندما يدعونا المسيح لنفسه، فهو يدعونا لهذا الغرض، لأنه هو إله وسيد الأخلاق المغاير.



قائمة المراجع واختصاراتها. بالنص الأصلي

Bibliography

AG *A Greek English lexicon of the New testament and other early Christian Literature* by William F. Arndt and F. Wilbur Gingrich (University of Chicago press and Cambridge University press, 1957).
Allen *A critical and exegetical commentary on the Gospel according to St Matthew* by W.C.Allen (International critical commentary 1907: T. and T. Clark, 3rd edition, 1912).
Aniquities *The Antiquities of the Jews in the works of the Flavius Josephus, c.* AD 75-95, translated by William Whiston (London, n.d.).
Augutine *Our Lord's Sermon on the Mount,* an exposion by Augustine of Hippo. Early fifth century AD. Translated by William Findlay, in the Library of Nicene and Post-Nicene Fathers, vol. VI, edited by Philip Schaff, 1887. (Eerdman, 1974).
AV The Authorized (King James') Version of the Bible, 1611.
Bonhoeffer. *the Cost of the discipleship* by dietrich Bonhoeffer (1937: 6th and complete English edition, SCM, 1959).
Bruce *Commentary on the synoptic Gospels* by A.B.Bruce, in *The expositor's Greek Testament,* edited by W. Robertson Nicholl (Hodder, 1897).
Calvin *commentary on a harmony of the evangelists, Matthew, Mark and Luke. I. by* John calvin (1558: translated by William Bringle, 1848: Eerdmans, n.d.).
Chrysostom *Homilies on the Gospel of St Matthew,* part I, by John Chrysostom (n.d. translated by george pervost, Oxford, 1843).
Daube *The New Testament and rabbinic Judaism by* David Daube (university of London, Athlone press, 1956).
Davies *The setting of the sermon on the Moun* by W.D. Davies (Cambridge University press, 1964).
Glover *a teacher's commentary on the Gospel of St Matthew* by Richard Glover (Marshall, Morgan, and Scott, 1956).
GNB the Good News Bible (Today's English Version), (NT 1966, 4th edition 1976; OT 1976: The Bible Societies and Collins).
Homilies *the Second Book of homilies* (1571) In *Homilies and canons* (SPCK, 1914).
Hunter *Design for life: an exposition of the Sermon on the Mount* by A.M. Hunter (SCM, 1953; revised edition 1965).
JB The Jerusalem Bible (Darton, Longman and Todd, 1966).
JBP *The New Testament in Modern English* by J.B. Philips (Collins 1958).

Jeremias *the Sermon on the Mount* by Joachim Jeremias (the Ethel M. Wood Lecture delivered before the University of London on 7 March 1961: University of London, Athlone press, 1961).

Lenski *The interpretation of St Matthew's Gospel* by R.C.H.Lenski (1943: Augsburg, 1964).

Lloyd-Jones *Studies in the Sermon on the Mount* by D. Martyn Lloyd Jones (IVP: vol. 1, 1959, vol. II, 1960. References are to the combined edition, 1977).

Luther *The Sermon on the Mount* by Martin Luther (1521: translated by jaroslav Pelican: in vol. 21 of Luther's works, concordia, 1956).

MacArthur *Understanding the Sermon on the Mount* by Harvery MacArthur (Harper 1961; Epworth, 1961).

McNeile *The Gospel according to St Matthew: the Greek text with introduction, notes and indexes* by A.H. MacNeile (1915: Macmillan, 1965).

NEB The New English Bible (NT 1961, 2nd edition 1970;OT 1970).

NIV New international Version (NT: Hodder, 1974).

Plummer *An exegetical commentary on the Gospel according to St Matthew* by Alfred Plummer (Elliot Stock, 1910).

RSV The Revised Standard Version of the Bible (NT 1946, 2nd edition 1971; OT 1952).

Ryle *Expository thoughts on the Gospels* by J.C.Ryle (1865: anniversary edition of Matthew and Mark, Zondervan).

Spurgeon *The Gospel of the Kingdom* by C.H. Spurgeon (Passmore and Alabaster, 1893).

Stier *The Words of the Lord Jesus*, I, by Rodulf Stier, translated by William B. Pope 1855 (T. and T. clark 1874).

Stonehouse *The Witness of Matthew and Mark to Christ* by N. B. Stonehouse (Tyndale press 1944; 2nd edition 1958).

Tasker *The Gospel according to St Matthew* by R.V.G. Tasker (Tyndale New Testament Commentary; IVP, 1961).

Thielicke *Life can begin again: Sermons on the sermon of mount by* Hilmut Thielicke (1956: translated by John W. Doberstein, Fortress, 1963).

Tolostoy *A confession, the Gospel in brief* and *What I believe* by Lew Tolostoy (1882-1884: translated by Aylmer Maude in the Word's Classics series, no 229; Oxford University Press, new edition 1940).

War *The Jewish war in the works of flavius Josephus*, c.AD 75-95, translated by William Whiston (London n.d.).

Windish *The meaning of the Sermon on the Mount* by Hans Windish (1929: 2nd edition 1937: English translation, Westminster, 1941).

John Stott

الكتاب المقدس يتحدث اليوم

الموعظة على الجبل

BST
The Bible Speaks Today

هذا الكتاب

«لابد وأن يكون أتباع المسيح مختلفين تماماً عن الآخرين» .. هكذا يكتب المفكر والكاتب المسيحي الكبير وصاحب هذا التفسير «چون ستوت» John Stott ، حيث لابد للمسيحيين أن يكونوا مختلفين، سواء عن أتباع الكنيسة الإسمية أو عن أناس العالم .. وأيضاً مختلفين سواء عن المتدينين أو الملحدين. إن (الموعظة على الجبل) ، وعلى مدار العهد الجديد كله ، هي التصور الأكمل للمسيحية «كثقافة مضادة» لثقافة العالم ، حيث فيها يتجلى نظام للقيم المسيحية ، ومعايير أخلاقية ، وتقوى روحية ، ومواقف من : المال .. والطموح .. وأسلوب الحياة الشخصية .. وشبكة العلاقات الإنسانية ، وهي الأمور التي تختلف تماماً في منظور وثقافة هؤلاء الذين لا يحيون في دائرة الإيمان المسيحي.

إن هذه الثقافة المسيحية المضادة للعالم ، هي حياة ملكوت الله، وإن كانت حياه إنسانية بالكامل ؛إلا أنها تعاش حسب شريعة السماء.

والمفسّر هنا «چون ستوت» يفسّر الموعظة على الجبل بدقة شديدة، مستعيناً بدراسات ومراجع هامة ، منها أفكار و أقوال لآباء الكنيسة الشرقية مثل (القديس أوغسطينوس) و (القديس يوحنا فم الذهب) ، مثبتاً إمكانية تحقيقها على أرض الواقع ، وكذا مصداقيتها ، من خلال ربط نصوصها بحياتنا المعاشة اليوم. وفوق الكل ، فإن اتجاه «چون ستوت» في هذا التفسير ، هو أن يترك «المسيح» نفسه يتكلم ويعظ بنفس الموعظة مرة أخرى، ولكن لعالمنا المعاصر الواقف على أعتاب الألفية الثالثة.

دار النشر الأسقفية